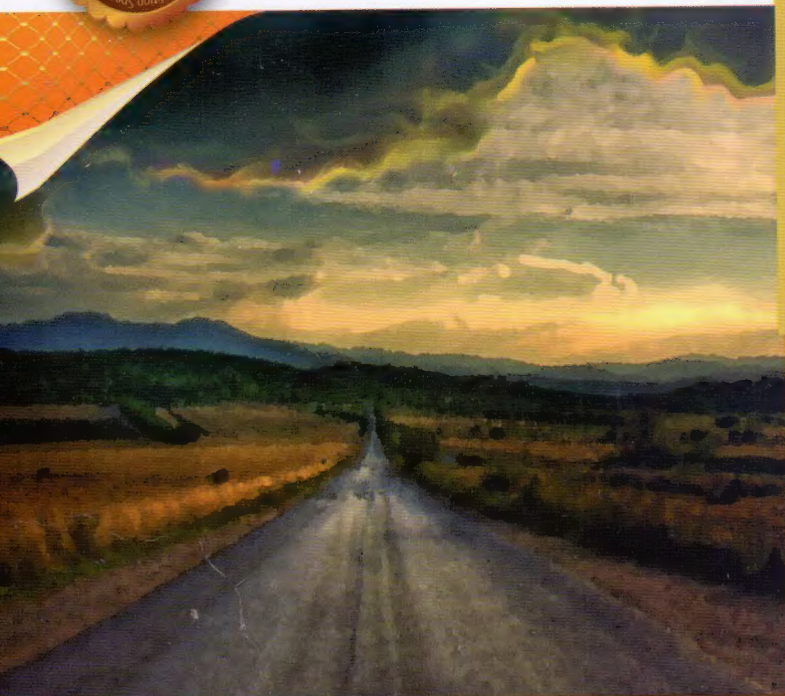




روايات د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



الطريق الطويل



The Long Road

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د نجيب الكيلاني

من إصداراتنا



حارة اليهود



حكاية جاد الله



Design by Nour al-Hamman (masy)

دار الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
تليفون: +20242106060
Email: daralsahoh@gmail.com

دار المصطفى
دار المصطفى
أولاد
021.39.88.62
حي وادي 07 تماريس - لمدينة - الجزائر
Email: alelemmariff@yahoo.fr

الطريق الطويل

القصّة الفائزة بالجائزة الأولى
بمسابقة وزارة التربية ١٩٥٧م

— نجيب الكيلاني —

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للناسر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٨٢٤٧

الترقيم الدولي:

977-255-345-7



الصحوه
ALSAHOB

للنشر والتوزيع

٥ عطفة فريد - من شارع مجلس

الشعب - السيدة زينب

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٧

daralsahob@gmail.com

الفصل الأول

كنت أسيرُ في طرقات قريتنا وأنا في فكر عميق، وكانت مشكلتي التي تربكني تبدو في نظري أكثر أهمية، وأقسى تعقيداً من الحرب ومن «هتلر»، ولذلك لم أكن أعاباً بالأحجار التي تصطدم بقدمي الخافية، ولا أكاد أحس بها وهي تغوص في روث البهائم، أو البقع الموحلة المتناثرة هنا وهناك في طرقات القرية...

ومددت يدي إلى جيب جلبابي لأستخرج الخطاب الذي أرسلته المدرسة الابتدائية إلى والدي، وهو سبب الإشكال الذي تورط فيه عقلي الصغير، فالمدرسة تخبر والدي بأنها لن تقبلني في السنة الرابعة إلا إذا عولجت علاجاً تاماً من مرض البلهارسيا والأنكلستوما، وفي الوقت نفسه تحتم علي ألا أتى إليها في العام الجديد إلا وقد ارتديت لباساً خاصاً أسوة بباقي الطلبة، وطبقاً للنظام واللائحة...

كنت أعرف أن أبي غارق في الديوان حتى أذنيه، وأن محصول

القطن زهيد الثمن فى ذاك العام، ولم يبقَ فى دارنا إلا قليل من الأذرة، لا يكاد يفى بحاجة أسرتنا الكثيرة العدد، وأمى هى الأخرى مسكينة.. لا تفتأ تشكو من آلام حادة فى صدرها، وهى حامل فى شهرها السادس وفى ميسس الحاجة إلى عرضها على طبيب، ومع هذا فقد كان أبى وأمى يعتبران الذهاب إلى الطبيب فى مثل هذه الحالة من الكماليات، أو ضرباً من البذخ لا تحتمله مالتنا الواهية إن صح أن تُسمى مالية..

كل هذا كان يؤكد لى فكرة علاجى من البلهارسيا مشكلة عويصة، ولمَ لا تكون كذلك وأنا أحتاج لقرش ذهاباً، ومثله إياباً، حتى أستطيع الوصول إلى مستشفى الأنكلوستوما والبلهارسيا فى «ميت غمر»؟؟ هذا بالإضافة إلى قطع المسافة التى بين قرينتا وبين أقرب محطة نركب منها القطار، وهذه المسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات..

وكنت فى قرارة نفسى -رغم هذه العوائق- أتشوق إلى زيارة «ميت غمر» وخاصة مع رفاقى من الأطفال الذين تعودوا أن يذهبوا إليها من عام لآخر؛ لإعطائهم حقن «الطرطير المقيئ» حتى يوفروا على أنفسهم آلام التبول والدماء التى تنزف معه.. لقد كانوا يصورون لى جمال مبانى «ميت غمر» والكبرى الواسع الذى يصل بين «زفتى» و«ميت غمر» ويقولون عنه إن اسمه «الكوبرى الفرنساوى» ويتحدثون فى خوف ورهبة عن الإنجليز الذين

يعسكرون هناك ، ولا يكاد يمضى وقت دون أن يروا بسياراتهم الحربية ، ووجوههم الحمراء عبر هذا الكوبرى . . ترى هل سيكون أبى أسلس قياداً هذه المرة ، فيضحى بهذين القرشين فى كل يوم فيه حقنة كى لا يحرمنى من هذه المتعة التى أشوق إليها؟

ودلفت إلى حارتنا الضيقة وأنا أشق طريقى ذاهلاً بين البهائم العائدة من الحقول ، والحمير المحملة بالبرسيم ، والمحارث والطناير ، واقتربت من منزلنا ، فلمحت أبى جالساً على المصطبة ، وبجانبه «الشيخ حافظ شيخا» أحد جيراننا ، ولم أكن فى حاجة لأرهف السمع حتى أعرف فيم يتحدثان ؛ لأن الشيخ حافظ شيخا كان كعادته يرغى ويزيد ويتكلم بصوت مرتفع :

- وشرفى يا عبد الدايم ليتنصر «هتلر» على الإنجليز أولاد الكلاب .
- يا شيخ حافظ دعنا فى حالنا . . لعنة الله عليهم أجمعين . .
- يا رجل خذ بالك . . هتلر رجل شريف ويحترم الإسلام وحرية المسلمين والعرب ، ولن يكون مثل هؤلاء الإنجليز الأنجاس .
- صحيح؟؟

- طبعاً صحيح . . . من زمن طويل ، و«تشرشل» راكب فوق أنفاسنا ينسقينا الذل والويل .

- من يدري؟؟ ربما كان هتلر أظنع وأضل سبيلاً .

- سبحان الله ! أتظن يا عبد الدائم أن هتلر جوعان وجربوع مثل هؤلاء الإنجليز؟؟

- لا أعلم، فأنا رجل من دارى لغيطى، ومن غيطى لدارى، أسأل عن النورج، وأبحث عن مينعاد الرى وما إلى ذلك.

- أبداً... هتلر يريد لنا الحرية والخلاص من هؤلاء النصابين والصوص...

-- هل قلبه طيب لهذا الحد؟؟ وما السبب فى دفاعه عنا؟؟

- يا حبيبى هذه سياسة... سياسة عميقة وكثيرة المسالك مثل سكة «أبو زيد» تماماً.

- لا أفهم ما تقول.

- غداً تفهم.

كان أبى والشيخ حافظ يواصلان حديثهما، وأنا أتسلل متمسحاً بجدران منزلنا الجرباء الكالحة، حتى أبلغ أمى أولاً، فأحكى لها قصة الخطاب الوارد من المدرسة؛ لأنها ولا شك ستكون أقدر منى على التفاهم والتصرف مع والدى، لكنه رآنى حينما كنت على وشك أن أتوارى دخل المنزل، فهتف بى قائلاً:

- تعال يا «سليمان»... علمت أن المدرسة قد أرسلت خطاباً...
خير إن شاء الله..

فسارعت بإخراج الخطاب وقدمته إلى والدي، لكن يد الشيخ حافظ - جارنا - كانت أسبق، فتناوله، وأتيت له باللمبة «الصاروخ» كي يقرأه على ضوءها... وصدق ظني، فقد قال أبي ساخرًا:

- بلهارسيا...؟؟ مدرسة مجنونة صحيح... هل هناك من يسلم منها؟؟
إنها ترافقنا كطعامنا وشرابنا...

فرد الشيخ حافظ قائلاً:

- لكن سليمان تلميذ مجتهد، ومن شباب المستقبل، ولا بد من حفظ صحته من كل الأخطار.

- يا شيخ حافظ... الله يصلحها لك... هل أعالجه من البلهارسيا لتعود إليه بعد شهر، أو أشتري له حذاء؟؟ لقد صح ما توقعته... إن القرشين اللذين أحْتَاج إليهما كي أدفعهما للمواصلات يوميًا، أمر صعب بالنسبة لأسرتنا، وأيام الحرب كلها إفلاس وضيق وحرمان، ويبدو أنها ستضن على بهذين القرشين... وصحوت من أحلامى البائسة على صوت والدي وهو يقول:

- ادخل لتعشى... ستفرج إن شاء الله.

قالها أبي وهو متضايق متألم، ولم يكن ذلك بغريب على، فلقد عهدته دائمًا كلما تكاثرت عليه الديون، ووقع في أزمات

مالية، حائراً متألماً... فمشيت إلى الداخل وأنا فى كرب شديد، فسوف أحرم من مشاهدة الكوبرى القرنساوى، وميت غمر ومبانيها وبحرها الواسع، والإنجليز بوجوههم الحمراء المخيفة... ثم حانت منى التفاتة إلى جاموستنا العجفاء التى تتلوى من نقص البرسيم، وإلى الباب المكسور لإحدى الحجرات لا نستطيع إصلاحه، وإلى أمى وهى تعد لنا طعام العشاء المكون من «الخبيزة» والخبز الجاف، وقد بدت على وجهها تقلصات الألم، وتخرج منها من آن لآخر تأوهات باكية: «آه يا قلبى!! ومع ذلك فيدها لا تكف عن العمل، إذ تملأ الأطباق «بالخبيزة» الساخنة، وترص الخيار المملح، وتصفف أرغفة الخبز التى تاهت سمرتها فى ضوء المشعل المتاهفت الضئيل... وطالت المباحثات بين أبى وأمى، فكانت أم تلح وتصر على تهيئة الظروف المناسبة لعلاجى؛ حيث إن المدرسة أمرت فلا راد لأمرها ولا معقب لحكمها، وليس من المعقول أن أتخلف عن دراستى لضيق ذات اليد عن مثل هذا المبلغ، ولكن أنى لأبى أن يهتم بالمعقول وغير المعقول ما دام لا يملك مليماً واحداً فى جيبه؟ وسرعان ما وجدت أمى الحل، أنها ستبيع نصف كيلة من الأذرة، وما أكثر الباحثين عن الحبوب فى تلك الأيام السوداء، وسيكون ثمنها كفيلاً بقضاء ما أحتاج إليه.

وهرولت إلى سعيد ابن عمى الشيخ حافظ شيخا وزميلي فى المدرسة:

- سعيد . . . لقد وافق أبى أخيراً . . . وسأتى معك غداً إلى ميت
غمر . . .

وكانت الدنيا لا تكاد تسع سعيد من الفرحة، فقد كنا منذ
الطفولة حتى ذلك اليوم - ونحن فى الثالثة عشرة من عمرنا تقريباً -
أصدقاء أوفياء، كالأخوين، كثيراً ما نأكل معاً، ونلعب سوياً،
ونذاكر فى مكان واحد، قلت :

- اسمع يا سعيد . . أمن الممكن أن أرى الإنجليز؟؟

- طبعاً . . . كلنا نراهم ونحن ذاهبون أو راجعون من المستشفى .

- ألا تستطيع الكلام معهم؟؟

- يا خبر أسود . . !! ماذا جرى لك يا سليمان؟؟ إن عرباتهم
الصفراء تمر علينا وكأنها الريح، ويا ويل من يغفل عن نفسه لحظة
أو يتوانى فى مشيته . . . !!

- ماذا يحدث؟؟ . .

- يلفظ أنفاسه تحت العجلات .

تركت سعيداً يصف ويهول، بينما أخذ خيالى الخصب يؤلف
لى نماذج شيطانية من هؤلاء الإنجليز الذين ينطلقون كالعاصفة
وينقضون كالموت ولا يعبأون بأرواح الناس . . . ثم قلت فجأة :

- ألا يستطيع أبى وأبوك أن يقصف رقبة أحدهم؟

فضحك سعيد وقال :

- اسكت يا عبيط . . . إن عندهم مسدسات ومدافع وقنابل
ودبابات . .

- مسدسات ومدافع و . . . ؟؟

- أجل وسوف تراها بعينيك .

وفى اليوم التالى كان علينا أن نصحو مع الفجر فأمامنا خمسة
كيلو مترات حتى نصل إلى أقرب محطة نقطعها مشياً، وسارت
قافلتنا -وهى تربو على العشرة عدداً- ما بين بنين وبنات، وصغار
وكبار، وكنا حفاة الأقدام، فأخذتنا لا نلبسها إلا حين الذهاب إلى
المدرسة، ولم نكن نكثرث كثيراً بالتحذيرات التى نقرأها فى كتب
الصحة، التى توصينا بعدم السير حفاة؛ لأن ذلك مدعاة للعدوى
والأمراض، ولكن معنى ذلك أن يحل موعد الدراسة ونحن لا
نمتلك أحذية . .

وانطلقت أشباحنا الذابلة تدب فى الظلام، ونحن نتعشر
ونكبو، وما زالت أجفاننا الصغيرة تحاول الخلاص من سلطان
النوم، وقد تعلق فى يمين كل منا منديل يحوى رغيماً وقطعة من
الجبين؛ لأننا لن نعود من سفرنا إلا آخر النهار . . أما القرشان فقد
ربطتهما أمى ربطاً محكمًا فى الكم بحيث لا يلمحهما أحد،
وأوصتنى كثيراً أن أحترس وأحذر من اللصوص لأنهم ذوو دهاء

وعبقرية في السرقة، ويستطيعون أن «يسرقوا الكحل من العين»
على حد تعبيرها . . .

لم نكن نشكو أو نتألم من طول المسير المضنى، ولم نكن نتبرم
من قسوة الحياة وبخلها علينا، فقد تعودنا هذا النمط من الكفاح
والصبر، بل كنا نحمد الله على نعمه «الكثيرة» لأننا نحظى بالذهاب
إلى المدرسة، بينما أضرابنا لا همَّ لهم إلا الجرى وراء الحمار طول
اليوم، والكدح المتواصل فى الحقل . . .

ولكن كان يحز فى نفسى أن جدتى -سامحها الله- قد تركت فى
كم جلبابى رقعة واضحة كبيرة، ولشد ما كانت تؤلمنى هذه الرقعة،
إذ تبدو كعلامة للذلة والفقر، وإشارة على الخزى والعار، ولطالما
حاولت جاهداً أن أخفيها أو أتخلص منها، وخاصة عندما جاءنى
حسن بن موسى أبو عفر -أحد أثرياء الحرب فى قريتنا- وكان يحقد
على لنجاحى فى دراستى، وقال لى فى شماته:

- جلبابك مرقع . . ألسن خزيان؟؟

ولكن لا مفر، فقد كان هو الجلباب الوحيد الذى لا أملك
غيره، بل كنت أجلس فى بيتنا كالحبيس حتى تغسله أمى وتحففه،
ثم تلبسه لى وأنا أزمر وأتذمر، بينما هى تهمس فى ثقة وإيمان:

- هذا رزق من عند الله . . . ما أكثر مَنْ لا يجدون مثله . . البطر
يزيل النعمة يا ولدى .

ولقد كان تألمى من هذه الرقعة أشد وأقسى وأنا ذاهب إلى «ميت غمر»، ولكن ما الحيلة؟؟ إن أمى تقول:

«الحرب»، وأبى يقول: «الحرب» والشيخ حافظ شبيحا لا يفتأ يقول: «الحرب»، والإنجليز هم أساس البلاء... لكن هتلر رجل شريف «ومناسب» حتى لكان هتلر أحد أقربائه...!!

وكنا فى كل مرة نرعى ونجذب مع «كمسارى» القطار، فتارة نقول له: إننا طلبة ولا يجوز لنا أن ندفع نصف أجرة السفر، وتارة أخرى نخلع ما على رؤوسنا - كما جرى العرف بيننا نحن الأطفال - كيما نبدو أصغر سنًا فى نظره، لكنه كان يتحایل أو يهدد أو يتوسل حتى ينال نصف الأجرة، وكنا نحن نعلم أن القطار لم يصنع للركوب مجانًا مثل حمارنا، لكن الركوب مجانًا كان معناه أن نستمتع بإنفاق قرش أو قرشين فى «ميت غمر» حيث الحلوى والفواكه والخبز الطرى الذى يختلف كثيرًا عن خبزنا الجاف الأسود، وهذا ما كان يدفعنا للتمحك ومحاولة الإفلات من الدفع...

وحينما كنا على مقربة من ميت غمر واحتشدنا مع الناس عند فاتحة الكوبرى تساءلت: «لم لا يتركونا نمر الآن؟» فرد صديقى سعيد حافظ مبدئيًا علمه ببواطن الأمور:

- علينا أن نتظر دقائق، فالمرور الآن ممنوع، والسفن الشراعية هى التى تمر فى مثل هذا الوقت من كل يوم...

فقلت : ولمَ لا تمر السفن من تحت الكوبرى فى الوقت نفسه الذى تمشى نحن من فوقه؟؟

فقال سعيد : هذا غير ممكن . . .

وقطع حديثنا صوت نغير فى عربة صفراء تنطلق بسرعة دو أن تعباً بأحد، وسرعان ما أفسح لها الناس طريقاً رحباً ، وهروا حارس بوابة الكوبرى ليفتحها، ويعطى إشارة للذين يعملون على إخلاء السبيل أمام السفن الشراعية، فأوقفوا عملهم بسرعة أيضاً، بينما تهادت العربة الصفراء فى مشيتها، ونحن ننظر إليها فى خشوع ورهبة، وهمس سعيد فى أذنى :

- أمامك الآن اثنان من الجنود الإنجليز فى عربتهم الصفراء . . .

- إذن فهو لاء هم الإنجليز؟؟

أجل .

- وأين القنابل والمدافع و . . . ؟

- المسدس فى جيب السترة، والمدفع فى يد الجندى الجالس فى الخلف ألا تراه؟؟

- بلى .

- إنهم يملكون عربات، ومخازن كثيرة مملوءة بهذه الأسلحة . . .

- ولماذا تخاف منهم يا سعيد؟

- إنهم ناس كفار يا سليمان، وغلاظ الأكباد، الموت عندهم أمر هين، ومعهم سلاح كثير . . كثير جداً.

- ولم لا نصنع سلاحاً مثلهم؟

- أبى يقول إنهم يمنعوننا من ذلك . .

- كيف؟ ولماذا؟؟

وهز سعيد كتفيه وهو يتمتم: لا أدري

وقبل أن تنطلق العربية الصفراء، سمعت من خلفي صوتاً عالياً يقول:

- هات واحداً «بياستر» (قرش) يا جونى .

ثم يتبعها بقهقهة عالية، وحينما التفت إلى مصدر الصوت وجدت غلاماً كث الشعر، ملوث المنظر، حلته مملوءة بالبقع الزيتية المتسخة، وحوله مجموعة من أصحابه، ثم أخذوا يصفقون ويرددون فى صوت رتيب منغم: يا عزيز، يا عزيز . . . كبة تأخذ الإنجليز .

وبعد وقت فتحت البوابة، وجرينا وسط الحشد المتدفق، وكان زملائي وهم يجرون معى يستمعون للأصوات اللذيذة التى تنبعث من أثر ارتطام أقدامهم الحافية بالأرض الخشبية فوق الكوبرى أو

بحجر البازلت فيما بعد الكوبرى، وعربات الإنجليز تمر واحدة فى إثر الأخرى، حتى لكان الإنجليز قد ملئوا كل ناحية، وسدوا كل منفذ...

وكنت ذاهلاً عما حولى، وأرسم فى عقلى علامات استفهام كثيرة حائرة، ولم يكن عقلى الصغير بقادر على أن يجد لها الإجابات الشافية...

كنت أتساءل: ما السبب الذى جعل الإنجليز يختارون ديارنا بالذات منزلاً لهم؟ ولماذا نهابهم، ونرتعد منهم رغم أنهم غرباء، ونحن أصحاب الأرض؟ وهل فى مقدورنا أن نكون شجعاناً كهتلر؟؟ أجل... هتلر ذلك الذى يطاردهم ويذيقهم الدمار والفناء كما سمعنا من الشيخ جافظ الذى يواظب على قراءة الصحف والمجلات... إن هتلر جدير بالاحترام حقاً ما دام فى استطاعته أن يخارب هؤلاء الإنجليز بالرغم من أسلحتهم ونظراتهم المتغطرسة المخيفة... ووجوههم الحمراء التى تبدو كوجوه الشياطين.

وكنت أسمع فى المدرسة وفى الشارع ومن الشيخ حافظ: أن الإنجليز والحرب هما سبب البلاء، وعلة الفقر والجوع، والضائقات المالية التى يرزح الناس تحت وقعها، وكنت أشعر بدورى أن هذا الكلام صحيح، أما كيف يكون ذلك؟ فلم أكن

أعرف له تفسيراً . . المهم أن هاتفاً في أعماقي يصرخ مؤكداً هذه الحقيقة وكنت واثقاً أن اعتقادي صحيح ، إذا لم يكن كذلك فما السبب في أن مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما كانوا في صراع دائم ، وحرب لا تهدأ مع هؤلاء الإنجليز؟؟ لا بد وأنهم أساس الشقاء ، ومصدر الجوع والحرمان وكل المصائب . . . ووصلنا شوارع ميت غمر :

- سعيد . . . سعيد . انظر . . ما هذه المباني ؟ أتراها مخازن للغلال التي يتزعمونها منا - نحن الفلاحين - كل عام ، ليطعموا منها الإنجليز ؟

قهقه سعيد عاليًا ، وشعر بشيء من الغبطة والتعالي الذي مصدره جهلى أو سذاجتى ، وتوقعت هذه المرة أن ينعتنى بالعبط والبله ، لكنه قال :

- هذه مخابى . . أفهمت ؟ !

- مخابى ؟

- أجل ليهرع إليها الناس في وقت الغارات حتى ينجوا من قنابل هتلر . . .

- عجبًا ، ماذا جنينا في حق هتلر حتى يطرنا بالقنابل ؟ . .

- في الحقيقة أن هتلر - كما يقول أبى - يقصد ضرب الإنجليز ،

لكنهم منبثون فى أرضنا وديارنا وفى كل ناحية، فماذا يعمل
هتلى؟؟

- أ يضرب المذنب والبرىء؟

- نحن مذنبون أيضاً .

- ماذا تقول؟

- طبعاً، لأننا سمحنا للإنجليز بالمقام فى أرضنا، وأطعمناهم من
قمحنا، وأمددناهم بكل ما يحتاجون إليه .

- ولماذا نفعل ذلك؟

- قلت لك مرة أننى لا أعلم، هكذا يقول أبى، وهذا غاية ما
أعرفه . .



كانت مستشفى البلهارسيا والأنكلستوما موجودة فى منطقة
زراعية فى الطرف الشمالى من ميت غمر - يحيط بها سور خشبى
من جهاتها الأربع، والفلاحون يتكدسون داخلها بوجوههم
الشاحبة التى تترجم عن فقر الدم الشديد، بينما وجوه الإنجليز تكاد
تنفجر وينشق منها الدم لشدة حمرتها واكتنازها، ويظهر الفلاحون
بملابسهم الزرقاء الرثة، وبأقدامهم المشققة الحافية، وأجسادهم
الضامرة الهزيلة، التى أكلتها البلهارسيا، كما تأكل النار الهشيم،

وبطونهم المتفخخة التى ثوى فيها الداء، وأرهقتها العلة . . إن الواحد منهم ليأخذ العلاج ثم يسارع إلى حقله، ويلقى برجليه فى ماء القناة، ويقبض على يد الطنبور بكفيه الجافة الخشنة، ويظل يديره الساعات الطوال، وتبدأ البلهارسيا -بالطبع- دروتها من جديد، وكأنه لم يعالج أو يشق ويتعب فى الذهاب إلى بعيد حيث يوجد المستشفى . .

ولا أزال أذكر ذلك «التومرجى» الضخم الجثة بسترته البيضاء، وطربوشه الأحمر الذى يركز على قمة عوده الفارع، وشواربه المفتولة فى عنجهية وكبرياء . . .

ولن أنسى منظره وهو يطل من نافذة الحجرة الخشبية التى تعطى فيها الحقن، ويصرخ بصوت عالٍ صوب المرضى:

- تعالوا هنا يا بهائم . . . تعالوا اسمعوا الدرس . . وكنا نحجى وننكفى ونتسابق فى الوصول إلى مكان الدرس، وإلا فالكرباج الذى فى يد «التومرجى» سيبعث فينا النشاط والهمة إن نحن تراخينا . . . وكان يدور فى ذهنى هذا السؤال: «هل يمتُ «التومرجى» بصلة ما لهؤلاء الإنجليز؟ إن هناك عاملاً مشتركاً أعظم بينه وبينهم واضحاً كل الوضوح . . . وهل هذه المستشفى هى الدار التى تفيض برحمة وحنان، وتخفف البلوى عن الإنسان كما تعلمنا فى المدرسة . . ؟؟» .

وكنـت أفهم أن كل ما يتصل بالصحة والطب نظيف غاية النظافة، لكن ما أكثر ما تقززت نفسى كلما ذهبت إلى دورة المياه بالمستشفى حيث الأقدار المكشوفة هنا وهناك بصورة لم أرها فى حظيرة بهائمنا فى الريف . . .

وفى آخر النهار عدنا نـجـر جر أرجلنا المنهوكـة من أثر المشى الطويل، ووعشاء السفر، وعادت أقدامنا لتضرب الأحجار والحصى من جديد فى طرقات القرية فتذكرنا نعومة الشوارع فى ميت غمر، وخاصة طريق المعاهدة الذى رصفوه خصيصاً للإنجليز، وقارنا ذلك بقريتنا المتواضعة، ولم نستطع أن تواصل مقارنتنا فقد كان الشيخ حافظ شـيـحا يهدد كالمعتاد ويهدد فى السياسة ويعلق على الأخبار التى يقرؤها فى الجريدة، ويشئ بكل فخر وإعجاب على خطط هتلر الحربية وانتصاراته فى شتى الميادين:

- أقسم بالله العظيم أن هتلر لا بد أن ينتصر على الإنجليز الملاعين، ويلبسهم الخيش والمرقع ويجعلهم عبدة لمن يعتبر . . .

- نذر على يا شيخ حافظ لأذبحن خروفاً لأهل الله وأوزع الشربات يوم أن ينتصر هتلر . . .

كنا نسمع الحديث فى بيت الحديث الشيخ حافظ ونحن نقرب من المنزل. بينما قابلتنا «بسيسة» الحلوة فى مرحر ظاهر، وبراءة محبة:

- حمدًا لله على السلامة.

فازورَ عنها أخوها سعيد، ولم يحاول الالتفات إليها في جفوة معتادة، بينما ابتسمت أنا لها في حب وعطف وقلت :

- الله يسلمك يا بسيمة .

- ألم تأت لنا بشيء حلو . . ؟

- المرة الثانية إن شاء الله . .

فبدأ على وجهها شيء من من الكفهرار والتأثير وقالت :

- لا أريد منك شيئاً . .

- ماذا؟ هل أنت غاضبة؟ أنت تعلمين أن القرشين اللذين أخذناهما يكفيان فقط كأجر للقطار . .

لكن بسيمة ذات الاثنى عشر ربيعاً لم تكن لتحفل بمنطق أو تكثر ثلجة نبيديها لها، إنها تعلم أننا كنا في ميت غمر حيث الحلوى والفاكهة وكل شيء، وإننا من الواجب علينا أن نحضر لها أى شيء، ولو بضعة أوراق ملونة، أو قطعاً من الأقمشة الخضراء والحمراء، أو أغطية الزجاجات التي تحلم بشرب مياهها الغازية، ولكنني ربيبت على رأسها في حنان، وقلت في شهامة :

- وحق مقام سيدى عيسى العراقى يا بسيمة لأحضر لك ما تشائين بعد غد إن شاء الله . . .

فاستنار وجهها بابتسامة عذبة، وأشرقت ملامحها بالأمل
الجذاب، الأمل الذى نحيا عليه جميعاً، وأمسكت يدي، ودلفت
معى إلى منزلنا، وفى قلبى مشاعر متلاطمة مختلطة، يخص
«بسيمة» جزء كبير منها، بينما فتحت أُمى ذارعها حينما رأتنى:

- أهلاً سليمان... وصلت يا حبيبى...؟ تعال يا ولد
استرح...

وكانت بسيمة أسرع منى فى الارتواء بين أحضان أُمى التى
ضمت كلينا فى حنين وشغف، وقبلتنا فى وجتينا قبلة طويلة،
بينما تسلفت يدها المعروفة إلى قدمى تحسسها، وتنفض عنها
الغبار والأقدار قائلة:

- لا بد أنك تعبت كثيراً يا بنى...

- أبداً... كان سفرًا طيباً... ورأينا الإنجليز.

- تحمّل يا ولدى... الصبر طيب... غداً تصبح موظفًا كبيرًا
وتستمتع بحياتك، طول العمر يبلغ الأمل يا ولدى...

وطافت بمخيلتى صورة طبيب المستشفى بمنظاره الأنيق،
وسماعته البراقة التى تتدلى من عنقه وكأنها طوق من المجد
والفخار، وسلسلة المفاتيح الفضية التى يلفها على أصبعيه، وهو
يحدثنا بلغة متأنقة رقيقة عن البلهارسيا وأعراضها، وعدواها،

وعن ضرورة اهتمامنا بالأغذية حتى نشفى سريعاً، والفلاحون يجلسون أمامه على الأرض، يستمعون إلى الدرس وكان على رؤوسهم الطير، يهزون رؤوسهم دون أن يفهموا تماماً ما يقول، مناديل الخبز الجاف معلقة في أذرعهم . . . ثم صورة التمورجى ذى الشارب الطويل المبروم، وهو يلوح بكرباجه الأزعر، ويخب فى سترته البيضاء وحذائه الأسود اللامع . . . ترى أى الصور الثلاث سأكون عليها فى مستقبلى: الطبيب أم التمورجى أم هؤلاء الفلاحين بنظراتهم الطيبة الفطرية، ولحاهم غير الحليقة تماماً، والبشرة التى لوحتها الشمس وأضتها العسرة والكد الطويل؟ . .



الفصل الثانى

لم تكن أسرتنا تضم غير سبعة أفراد: جدتى وأبى وأمى وأخوين صغيرين - ليلى ومحمود - وعمى «فريد» وأنا . . .

أما جاراننا الشيخ حافظ شيخا فقد كانت له أخت عانس فى حوالى الأربعين من عمرها بالإضافة إلى زوجته «خضرة»، و«سعيد» و«بسيمة» . . .

وللشيخ حافظ قصة طريفة لعلها تكشف لنا عن جانب مهم من جوانب شخصيته؛ لقد كان الشيخ حافظ يعتبر العدو اللدود والخصم رقم واحد للإنجليز . . . صحيح أننا كلنا يجمعنا حقد مقدس ضد هؤلاء الذين أفسدوا أمورنا السياسية، والاقتصادية، وانحرفوا بالأخلاق والقيم إلى طريق شائك حالك . . . لكن الشيخ حافظ كان شعلة متقدة من غضب وثورة، وسيان أكان فى محل الخردوات الذى يمتلكه أو فى بيته أو فى سوق القرية حيث يعرض بضاعته، فى أى مكان كان يسب ويلعن ويسخط على الإنجليز،

بقدر ما يمتدح ويمجد في هتلر، حتى ابنته «بسيمة»، وابنه «سعيد»، كانا يشعران بكثير من الحرج والضيق حينما نقول لأحدهما: «يا ابن الشيخ حافظ هتلر».

لقد كان يمشى دائماً وفي جيبه جريدة، ومعروف عنه أنه إذا ما عثر على جريدة أتى عليها من أولها إلى آخرها، فإذا ضاقت به السبل ولم يجد جريدة جديدة، هرع إلى مخلفاته، يقلب في محتوياتها القديمة حتى يعثر على أخبار قديمة تصور انتصار الدكتاتور الألماني، فيعيد قراءتها مثني وثلاث ورباع، ولقد ساعد على اندماجه في السياسة بديهة حاضرة، وعاطفة متقدة، وإلمام كاف بالقراءة والكتابة، فقد قضى في الجامع الأحمدى بطنطا ما يقرب من ثلاثة أعوام حفظ خلالها بعض الفقه والأحكام بالإضافة إلى القرآن الكريم.

كثيراً ما كانت تخرج زوجته خضرة هائجة مائجة وهي تقول:

-ماذا جرى لعقلك يا شيخ حافظ؟؟ أليس وراك غير هتلر...؟؟ يا راجل حرام عليك... قم واعمل لك شغلة تأكل منها لقمة عيش.

لكن الشيخ حافظ كان رجلاً يعتز برجولته وكرامته، ويرى أن تدخل الزوجة في أمر زوجها مروق وقلة أدب، ومنقصة لشرفه وشجاعته، فينهال عليها سباً وشتماً ويتوعدها ويزمجر قائلاً:

- اسكتى يا حمقاء يا جاهلة . . . ومن أدراك بهتلر وبالسيسة؟ لم
يبقَ غير أن تلبسى جلبابى وعمامتى وتقومين مقامى . . قلة
أدب . . !!

ويحاول الجالسون معه إسكاته، ولكن هيهات إنه لن يقرأ أو
يهدأ له بال إلا إذا أعطى زوجته درساً قاسياً فى واجبات الزوجة
واحترام رجولته ومركزه . . .

كان سعيد وبسيمة يشعران بالخجل لهذه المظاهر، لكن
بمرور الزمن، وتكرار هذه الأمور، أصبح لها حكم العادة. فلم تعد
تثير فى نفسيهما همّاً شديداً. . . أقول إن للشيخ حافظ قصة غريبة
تكشف عن جانب مهم من جوانب شخصيته؛ فلقد كان أبوه -
رحمه الله- مصرياً صميماً، وضابطاً فى جيش الخديوى توفيق،
واشتراك مع عرابى جنباً لجنب فى الصراع الدامى الذى خاض
الشعب غماره ضد الغزو الإنجليزى إبان الثورة العراقية . . . وطعن
الخديوى الثورة من الخلف، فوجد الإنجليز ثغرة واسعة ينفذون منها
إلى ديارنا، إذ زعموا أنهم جاءوا مؤقتاً لحماية الخديوى، واستقرار
الحكم، والقضاء على المتمردين والثائرين . . . وسرعان ما أقيمت
المحاكم، وحوكم أنصار الثورة، فأعدموا وشردوا ونفوا
واضطهدوا، واستطاع والد الشيخ حافظ شيخاً أن ينجو بنفسه،
فهاجر من القاهرة متخفياً، وأوى إلى قريتنا غربياً طريداً، فأفسحوا

له وحموه، وبمرور الزمن اتخذ له زوجة وداراً فأنجب الشيخ حافظ، وتلك العانس التي ذكرناها، وترك زوجة الأولى وأولاده منها في القاهرة للأقدار تتصرف فيهم كيف تشاء...

وهكذا اقتضت الظروف أن يعيش هذا الرجل -والد الشيخ حافظ- فترة طويلة من القلق والتخفى ومقاساة الأهوال، بينما هيأت الخيانة لغيره من الأذئاب عيشاً رغيداً وسوقاً رائجة، ومناصب عالية... أما عرابي والبارودي فقد قضوا ردحاً من الزمن رهن الغربة القاتلة، والوحدة المؤتة في جزر المحيطات النائية...

فالإنجليز إذن هم الذين حكموا على والد الشيخ حافظ بالضياح والتشرد، وهم الذين تسببوا في أن يرفع الأوغاد والخونة، وأن يطارد ويضطهد ذوو الرأي الحر، والنزعة الاستقلالية، ورواد التقدم.

فلم يكن غريباً أن يكون حقد الشيخ حافظ على الإنجليز أضعاف حقدنا، بل إن حقه هذا دفعه لأن ينشد الانتقام والثأر منهم على يد أى إنسان مهما كان جنسه وليكن هتلر مثلاً... وقد يكون هتلر مستعمراً مستغلاً مثل الإنجليز تماماً لكن الشيخ حافظ كان يبعد عن ذهنه أمثال هذه الخواطر، فيصور له وهمه أن هتلر هذا قد أرسلته العناية الإلهية ليذيق الإنجليز سوء العذاب، فضلاً عن أن دعاية المحور، وزعمها بأن هتلر رجل يدعو إلى تحرير الشعوب من ريقة

الاستعمار، وأنه شخصياً يحب الإسلام ويميل إليه، ويشعر بشعور الود والإخاء للعرب... كل ذلك جعل الشيخ حافظ يتمادى فى حسن ظنه، ويغالى فى ثقته بهتلر، ويجعل من معارك الجيوش الألمانية أنشودة يتغنى بها فى كل مكان...

وقد استطاع الشيخ حافظ أن يجمع حوله عدداً من الرجال فى القرية يؤمنون بما يؤمن به، ويتفانون فى حبهم لهتلر، كان فيهم الشيخ سلامة الأعمى فقيه المكتب، والحاج عبد الستار راسب الكفاءة وزميل عمى فريد، وزكى القباني، وعثمان الطرطورى كاتب الشكاوى والعرائض وغيرهم...



جلس الشيخ حافظ مع أصدقائه، ثم تنهد وهز رأسه فى حسرة وأسى بالغ، فرمقه الشيخ عثمان الطرطورى، وقال:

- ما بك يا شيخ حافظ...؟

- والله يا عثمان الهم فوقى وتحتى...

- ولم كل هذا؟؟

- تصور أن الدول العربية كلها تمقت الإنجليز من كل قلبها، ومع هذا فهم يحاربون جنباً لجنب معهم... حياة كلها ذل ونفاق وخيانة لضمائرها...

- وماذا نعمل يا شيخ حافظ؟

- لو كان فى كل بلد عربى خمسة مثل رشيد على الكيلانى بطل العراق، وعزيز المصرى، لما استطاع الإنجليز أن يسوقونا كالأغنام إلى ميدان الحرب، ويستغلوا أرضنا ومطاراتنا، بل وينهبوا أقواتنا على مثل تلك الصورة البشعة المخزية . . .

- وماذا كان مصير رشيد على الكيلانى؟

- يا حبيبى ليست العبرة بالمعايير الظاهرية للنصر والهزيمة . المهم أن فى العراق رجالاً أحراراً آمنوا بالاستقلال وبالتحرر، وقذفوا بكلمة الحق دون خوف . . . وما دام الأمر كذلك فهذا بداية الخير . . . سيأتى يوم يقضى فيه على المفاسد والخيانات . . .

- والله يا شيخ حافظ إنى ليحز فى نفسى أن يقضى عزيز المصرى أيامه معتقلاً ورشيد على يحيا مشرداً من بلد إلى بلد، بينما الملوك والزعماء الذين يدعون أنهم مع الحلفاء ومع العالم الحر تنحنى لهم الجباه، وتدق لهم الطبول!!

- أمر مؤسف حقاً .

- هؤلاء مكانهم فى المقدمة؛ لأنهم خير من يؤتمنون على مصائر الشعوب .

وهم الشيخ حافظ بالكلام، لكن زوجته «خضرة» ظهرت

بوجهها الغاضب وعينيها اللتين تنبثان عن ثورة وتحفز، لكن الشيخ لم يكذبها وتخاطبه حتى بان الحزن فى ملامحه . . . وطأطأ رأسه فى حزن وأسى . . . ولم تكن عادة الشيخ حافظ . . . ترى ما الذى أصابه بهذا الاستسلام الطارئ فأخذ يستمع لكلام خضرة الذى يهوى على رأسه كالمطارق . . . لقد كانت تقول بعيداً عن أصدقائه :

- ألسن خزيان يا رجل . . ؟؟ ليس فى بيتك رغيى واحد، بل ولا حبة من القمح أو الأذرة . . . أظن أننا سنطعم الأولاد جرائد وخردوات . . طبعاً . . أم هتلر سيحضر لهم العشاء هذه الليلة . . ؟؟

وهز الشيخ حافظ رأسه، وحك ذقنه بظهر يده مرتبكاً، ولم يجد مناصاً من أن يقول :

- إن الله سيفرجها يا خضرة . . .

- البلد كلها ليس فيها حبوب للبيع . . . ابحت لك عن طريقة . . . أو اذهب إلى أى بلد قريب لعلك تجد كيلة أو كيلتين من الحبوب . . . إن شاء الله . . .

- الفضيحة . . . !! الفضيحة يا حافظ . . . الناس عيونهم دائماً تبحلق فى بيوت الآخرين . . .

وغلبيها الدمع فانحدر على وجهها، بينما غمغمت تقول:

- استرني سترك الله، ولا تشمت بي الأعادي...

- عيب يا خضرة... لا تبكى... حالاً سأحضر لك ما تطلبين.

واستجمع الشيخ حافظ شجاعته، وصرفها، مؤكداً لها أنه سيحصل لها على كل ما تريد، وعاد إلى مجلسه والعرق البارد يبلل وجهه، وأطياف من الدموع الحائرة تتراقص في محجريه... عاد ليفرق في صمته، ويسرح ببصره ذاهلاً، تاركاً أصدقاءه يتجاذبون أطراف الأحاديث...

كانت حالته تصير إلى هذا المآل لو كان أبوه بقي على وفائه للخديوى وتنكر لضميره ومثله العليا؟ ولم يكد هذا الخاطر يطوف بذهنه حتى بادر يطرده سريعاً، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وحوقل وكبر واستغفر، ودندن ببعض آيات من الزجل عن العزة والشرف وما إلى ذلك من معانٍ طيبة نبيلة...



وكان اليوم التالي كسابقه مملوءاً بالمتاعب والأحداث... خرجنا بالمعتاد في عتمة الفجر قاصدين ميت غمر. لم تكن أيام العلاج تزيدنا إلا ضعفاً فوق ضعف، ووهناً على وهن. ولا شك أن الإنهاك الذي يلازمنا في سفرنا مع قلة الغذاء، بالإضافة إلى

المضاعفات التي تخلفها حقن «الطرطير المقيى» زادت من هزالنا وشحوب وجوهنا، ولكن سلوانا الوحيدة هي أننا سنحصل على شهادة بخلونا من الطفيليات وبذلك تفتح المدرسة لنا أبوابها فى العام الجديد . . .

وبينما كنا نخترق «طريق المعاهدة» سمعنا أصوات فرقة عالية، لقد كان من خلفنا جندى إنجليزى يقود «موتوسيكله» فى سرعة جنونية، كأنما كان يستعرض سطوته وقوته، ووجدتني على حين غرة أقف على جانب الطريق وأتجه إليه فى تحد وجرأة لست أدري كيف هبطت على، وصرخت فى وجهه وأنا ألوح بيدي: «ملعون أبوك يا جونى . . .» ولست أدري هل سمعنى أم لا، وهل فهم مقصدى أم لم يفهمه، لأننى لم تتح لى الفرصة كى أفكر فى ذلك، إذ رأيت الجندى يندفع نحونا دون اكتراث ويوشك أن يصطدم بنا، لكن سرعان ما انحرفت بعيداً عن طريقه كى أنجو بنفسى فانزلت رجلى ووقعت فى مجرى مائى صغير يحاذى طريق المعاهدة، فقهقه الجندى فى سعادة عارمة، وفاضت أسارير وجهه بالبشر، وهو يرانا بين هارب ومذعور، وساقط فى المجرى، ومرتبك قد تعثر فى خطاه فلا يقوم إلا ليقع، والهلع قد سيطر علينا جميعاً . . . واندفع هو فى طريقه بعد أن نعم بهذا المنظر المسلى، ولو أنه يشبه لحد كبير منظر الفئران الخائفة التى تعبت بها القطة قبل التهامها . . .

وأخذت أجاهد حتى خرجت من المجرى، بعد أن تلوث ثوبى
بالطين وتشبع بالماء، ووقفت حائراً لا أدري ماذا أفعل، والشتائم
والنقمة تنبعث من فمى متلاحقة على الرغم منى، كأنى بذلك
أطفئ لهيب غيظى، وأخفف بعض الشىء من حقدى المضطرم بين
أحنائى . . .

يا لهؤلاء الإنجليز من أقدار . . . لم يكفهم أن ينتزعوا اللقمة
من أفواه الجائعين ويستعبدونا، بل يتسلوا بمنظر البؤس والشقاء،
والذى يلون حياتنا التعسة. أجل . . . كان يوماً قاسياً مؤلماً . . .
فعندما انحرافنا ناحية المستشفى، وتركنا طريق المعاهدة، رأينا
مشهداً يدمى القلوب، لقد جلس عمى «سالم» بائع الجميز تحت
الشجرة العالية يبكى ويندب حظه قائلاً:

- يا روحى يا ولدى «يا سيد» . . . يا ميت ناقص عمر . . . يا
سندى يا بنى تركتنى لمن يا «سيد»؟ . . . أنا عجوز ومسكين ووحيد يا
حبيبى . . . الله يجازيهم حرقوا قلبى عليك . . . آه يا مسكين يا ابن
المسكين . . . كنت أتمنى أن أموت بدلاً منك يا سيد . . . لكن الأمر
أمر الله . . . وهكذا كان عمى سالم يتأوه ويتألم، وحواليه بعض
معارفه الذين يحاولون تهدئته، وترضيته بقضاء الله وقدره، كان
أحدهم يقول:

- ربنا كريم يا سالم، لا بد أنه سيعوضك خيراً كثيراً.

- يعوضنى؟؟ أنا عاجز النظر . مريض الجسم يا ناس . لا أرى
ولا أقدر على العمل . . . يا طول عذابى بعدك يا ولدى؟؟ كنت يا
سيد عيني وذراعى وأملى فى حياتى .
- الله يجازى من تسبب فى هذا .

ثم ينفجر عم سالم باكياً ، وتخرج كلماته موجعة محزنة تكاد
تمزق نياط القلوب . . .

إذن فقد مات سيد ذلك الشاب الطيب ، السمع المعاملة الذى
كان يبيع لنا الجميز فى الصباح أمام المستشفى ، وكنا جميعاً -نحن
الزبائن- من ذوى الملايم ، ولكن «سيد» كان سعيداً بتعاملنا معه ،
رحيب الصدر لمساوماتنا ، وها نحن اليوم نراه قد ودع الحياة . . .

لقد كان الواقفون يروون كيف أن أحد السائقين الإنجليز كان
يقود عربته وهو مخمور ، وتمضى به العربى مترنحة ذات اليمين
وذات الشمال وكأنها هى الأخرى قد فقدت توازنها من أثر الخمر ،
وكان ترنح العربى يزداد كلما تصادف وجود فتاة جميلة أو غير
جميلة -فى الطريق ، فلا يسع الإنجليزى «الخفيف الظل» إلا أن
يظهر إعجابه وحسن ذوقه بهذا الأسلوب السمج من الغزل ،
وكانت النتيجة -أن اختلت عجلة القيادة واندفعت العربى ناحية
اليسار ، فسحقت «سيد» بن عمى سالم تحت عجلاتها ، بينما
تدحرجت سلة الجميز بعيداً دون أن تصاب بسوء . . . وهكذا ودع

«سيد» الحياة، ودعها في شرح شبابه المكافح، وترك أباه الشيخ يهذى ويخلط في كلامه، ويرسل عبارات التوجع والتفجع التي تذيب القلوب . . . ولست أدري هل ابتسم سيد للموت الذي أنقذه من شقاء الحياة وهوانها، أم ترك الحياة وهو ناغم أسيف من أجل أبيه الحائر المسكين . . .؟؟ أسئلة لم أستطع الاهتداء إلى الجواب الشافي عليها حينذاك . . .!! وسكبنا بعض العبرات . . . ثم واصلنا سيرنا إلى المستشفى حيث التمورجي الضخم الجثة، وحيث الطبيب بسمته المتأنق، وحركاته المتأففة، وحيث أكداش الفلاحين في أسمالهم ينتظرون الدرس، ومن بعده عملية الحقن كالمعتاد . . . وعند عودتنا من المستشفى قلت:

- ألا نجلس لنأكل؟

فتسابق الزملاء في حل عقد مناديلهم واستخراج الأربعة واللفت والفلفل، بينما لاحظت أن زميلي سعيد ابن الشيخ حافظ قد انتحى جانباً، وجلس بعيداً عنا في صمت مكتئب، فصاح به أحدنا:

- تعال كل يا سعيد.

- شكراً، ليس رغبة في الأكل.

وهمس أحد الزملاء في أذني قائلاً:

- سعيد لم يحضر معه طعامه اليوم .

فاندفعت في غضب وحدة :

- وما شأنك أنت ؟

- لأنني لم أره يحمل منديلاً اليوم ، فماذا أزعجك إذن ؟؟

- كن في حالك ، وكفى كلاماً فارغاً .

قلت هذا وأنا أهمُّ واقفاً حاملاً طعامي معي ، قاصداً صوب
سعيد . . .

لقد كنت أعلم ، أن أباه في ضائقة أشد وأقسى من الضائقة التي
تأخذ بخناق أبي ؛ لأننا كنا نملك حداً أدنى من الحبوب يكفيننا بقية
العام ، أما الشيخ فهو تاجر «خردوات» من يده لقمه كما يقولون ،
وقد تعذر عليه بالأمس الحصول على قوت أسرته .

- لمَ لا تأتي كي تأكل معي يا سعيد ؟

- لأنني شبهان . . . وأنا في الحقيقة قد نسيت أن أحضر طعاماً معي
اليوم .

- لا فرق بيني وبينك يا سعيد .

- طبعاً طبعاً يا سليمان .

- إذاً فهيا نأكل :

- اعتذر لأنى - كما قلت لك - لست جوعاًناً .

- إذا لم تأكل معى فلن أمس لقمة واحدة .

- لا تلح على فى ذلك . . . أرجوك .

لقد كان أمر سعيد غريباً حقاً، يستطيع أن يكبح جماح معدته لهذا الحد، وسيطر على شهوة الطعام التى تحتدم فى أعصابه ؟ «يا لك من عزيز مترفع يا سعيد، فهل ورثت هذا الإباء والترفع عن جدك الضابط الثائر أم أليك بائع الخردوات ؟ أو هو طبع فيك أثاره عنادك وكبرياؤك اللذان اشتهرت بهما بين أقرانك ؟ » ولم أكن أعرف آخر مرة أكل فيها سعيد؛ قد يكون منذ يوم أو أكثر أو أقل ومع هذا فقد أصررت أن نأكل معاً، وأصر سعيد على عدم الأكل، ولما رأى تشبثى واستمساكى بذلك وامتناعى عن الطعام، أكل لقيمات قليلة معى فى زهد وأدب، كان يبدو عليه أنه يغالب دموعاً توشك أن تنفطر من عينيه، لكنه استطاع أن يضغط على عاطفته، ويكبت مشاعره فنجح فى ذلك . . . «يا لك من كبير شريف يا سعيد؟ ! كبير على الأقل فى نظرى . . .» .

ما إن وصلنا إلى «المحطة» حتى وجدنا أن القطار قد فاتنا، كان علينا أن نتسكع ساعتين على الأقل حتى يأتى القطار الذى يليه، وأثناء تجوالنا لمحت رجلاً يلعب بالورق، وحوله زمرة من الغلمان هواة القمار، بشعورهم الطويلة، وأرديتهم المغبرة، وسحنهم

الكالحة، ودفعنى حب الاستطلاع أن أندس بينهم، وأستمع بمشاهدة هذا المنظر الفريد... كانوا يلعبون الثلاث الورقات، وكان أحدهم يضع القطعة ذات الخمسة قروش فوق إحدى الورقات، ثم تعود إليه صارت عشرة قروش كاملة... يا إلهى يا له من مكسب هين سريع ترى ماذا يحدث لو وضعت أنا قرشاً واحداً...؟؟ حتماً سيعود إلى قرشين، والقرشين تتحول إلى أربعة، والأربعة إلى ثمانية... وبذلك وبذلك أستطيع أن أملا جوفى بالطعام والفاكهة وأشرب العرقسوس، وأجلس فى القطار واضعاً رجلاً على رجل، والأهم من ذلك أنى سأحمل هدية من الحلوى إلى بسيمة التى سيشرق وجهها سعادة وبشراً وستعلم مدى رجولتى وكرمى... يا لها من لعبة مغرية...؟؟

لكن أمى كانت تقول لى إن لعب القمار حرام، وأنه يُخرب البيوت، وكانت تحذرنى من ذلك كثيراً... لكن ماذا سيحدث لو خالفتها مرة واحدة وجربت هذه اللعبة؟؟ أنها تجذبنى إليها جذباً لا هوادة فيه ولا رفق...

وكانت صورة المكسب المتوقع تلح على عقلى، وتجعله شيئاً مؤكداً، فلم يراودنى قط شبح الخسارة، لكن قلبى كان يدق عالياً متواصلاً، وأنا أقدم رجلاً، وأؤخر أخرى... كانت أعصابى تصخب وتحترق والعرق يتفصد من جبينى، وضميرى يلهبى

بسياط من اللوم والتقريع، إذ كيف أخالف أمر أمي وأتصرف هذه
الوزر الأكبر؟؟

وفي هذا اليوم بالذات كان معي قرش إضافي، قلت:
فلأجرب حظي بقرش واحد، فإذا ما فقدته بقي لي الثاني، وتكون
هذه الحادثة خاتمة المطاف... لكن كلا، لن أفقده مطلقاً.. هيا
تشجع.. تشجع، قرش واحد فقط سوف يجلب لك الكثير.. يا
لي من متمرّد عاجز..؟؟ فيم التردد؟ وفيم النكوص؟؟.

وأخذت أجيل بصري في الثلاث ورقات، وهي تتطاير بين
يدى الرجل في خفة وسرعة مدهشة، وكثيراً ما خمنت وقدرت،
فكان تقديرى في الغالب مصيباً لا يخطئ في الورقة التي
أختارها... و...

أخيراً صممت على خوض التجربة، وليكن ما يكون، وتلفت
يمنة ويسرة فتأكدت أن زملائي قد تفرقوا بعيداً، ولم يبق أحد منهم
بجانبي، فوجودها فرصة ثمينة من الواجب أن أغتنيها حتى لا
يراني أحد حينما أخسر نقودي... ومن يدري؟؟ لعلّ أعود إليهم
وجيبي مكّس بالنقود. وتناهى إلى سمعي رنين القطع المعدنية
المنتظرة، فدفعت يدي في جيبي وأخرجت أحد القرشين،
واستجمعت قوتي وقذفت به فوق إحدى الورقات الثلاث، وقلبي
يدق دقات عالية، يخيل إلى أنها كانت توشك أن تصم أذني.. يا

لها من لحظة رهيبة . قاسية . . . رغم أنني لن أفقد سوى قرش . . .
قرش واحد . . . ورفع الرجل الورقة التي وضعت قرشاً عليهما وهو
يقول :

- قرش واحد فقط؟؟ أنت فقير جداً . .

وأمسكت بأنفاسي في انتظار النتيجة ، وركزت كياني وسمعي
وبصرى في يدي الرجل اللتين تقلبات الورقة ، وهنا زاغت عياني ،
وأوشكت أن أفقد وعيي حينما تبين لى خسارتي ، وانتزع الرجل
القرش ووضعه في جيبه وكان لم يحدث شيء . . .

لكن كيف أترك هذا المكان دون أن أثار لنفسي ، وأسترد قرشي
الضائع على الأقل؟؟ وهكذا الخسارة قد تدفع إلى التماذى فيها ،
وبعض الخطأ قد يدفع إلى الإدمان . . .

ومرت فترة لست أدري أطالت أم قصرت ، ووجدتني على
الرغم منى أترك يدي تعبث في جيبي كى تخرج لى القرش
الباقى . . . !! كانت مغامرة أو لم يعد يبقى معى سوى القرش ،
فهل معنى ذلك أننى سأخسره ؛ وبالتالي أقطع المسافة من هنا إلى
بلدنا سيراً على الأقدام وهى تربو على الخمسة عشر كيلو متراً؟؟
لم أكن أخضع للتفكير المنطقى السليم ، ولم أعمد إلى استشارة
عقلى فى هذا الوضع الحرج ، كنت مدفوعاً بعاطفة قوية ، وبالشأر
الذى أشعله فى قلبى ذلك القرش الضائع ، وبالسخرية المرة التى

لذعنى بها هذا الرجل صاحب الورق حينما قال لى : «أنت فقير جداً».

كانت هناك قوة توهن من عزمى ، وتبعث الشك فى نفسى ، وتلعب بعواطفى . . . إذا لا بد أن أقذف بهذا القرش الباقى وأربح أعصابى وليكن ما يكون . . .!! عجباً ! أين القرش ؟ وأخذت أبحث فى جيبى وأقلبه ظهراً لبطن ، وأبحث هنا وهناك ، وأسأل هذا وأسأل ذاك . . لكن دون جدوى . .؟؟ أخذت أصيح وأتوعد وأتهم ، ولكن الجميع كانوا لا يعبهون بى ، ويضحكون منى ومن حزننى الشديد ، ودموعى التى توشك أن تنفرط وحيرتى وارتابكى . . . واتجهت إلى أحدهم وكان يقف بجانبى :

- أنت أخذت بقرش من جيبى . . .

وأمسكت بطرف كفه فى إصرار ، لكنه رمقنى بنظرة استخفاف وازدراء وقال :

- دع كفى وإلا كنت بك الشارع .

- لن أتركك . . . أنت الذى أخذته . . . سأنادى العسكرية .

ولم أكد أكمل جملتى حتى شعرت بيده المتسخة الملوثة بالشحم والغبار تهوى على وجهى فى عنف ، وتلقى بى على الأرض بينما عاد هو إلى مراقبة لعب الورق ، وكأن لم يحدث شيء . . .

لقد عقدت الدهشة لسانى ، وأفقت إلى نفسى على أثر هذه الصفعة ، وكأنما صحوت من حلم مخيف ، وهممت بالوقوف ، فشعرت بيد تربت على كتفى فى مودة . . . لقد كانت يد «سعيد حافظ» . . .

- الله . . . أنت هنا يا سعيد؟

- ماذا جرى؟

- لا شيء . . .

- قل . . . أتخفى عنى سرّاً؟

فأطرقت برأسى دون أن أجيب والأسى يملؤنى ، والخسرة تعصر قلبى ، بينما ردد سعيد بصره بين حلقة القمار ومن فيها وبين وجهى المحتقن من أثر الصفعة وهتف قائلاً:

- يا نهار أسود . . . هل لعبت القمار يا سليمان؟؟

ولم أجب إلا بدموعى صامتة تحدت على وجتى المحمرة ، فاحترم سعيد قدسية هذه الدموع وبلاغتها وقال:

- حقك علىّ يا سليمان . . . لا تحزن . . . طبعاً القرش الباقى .
راح . . . لا تهتم ، فى ستين داهية .

- بل القرشان ، فلقد سرق أحدهم القرش الباقى .

- ليكن ذلك . . . هيا واترك هؤلاء الأوباش، فليس عندهم غير الخسران والسرقة والضياع وشتى أصناف المهازل . . .

لقد صدقت أُمى : إنهم يسرقون الكحل من العين، يسرقونه بطرق كثيرة بالإضافة إلى الطريقة المباشرة . . . لن أعود إليها مطلقاً، حتى ولو كان اللعب لمجرد التسلية . . . أبداً . . . أبداً لن أعود إليها . . .

هذا ما حدث فعلاً، فقد عشت طول حياتى كلما وجدت حلقة من حلقات القمار عرضاً فى الطريق، تسلفت يدى تلقائياً لتحسس جيبي وتطمئن على أن ما به من النقود لن يحاول أحد أن يسرقه، وأشعر بلمسات الحزن اللاذعة التى انتابنى فى تلك المرة المشثومة، وأحس بالرجفة التى كانت تهز كيانى كله، وتجعل نبضات قلبى مدوية متلاحقة . . . وكان علىَّ فى هذا اليوم أن أبحث عن أحد زملائى من الفلاحين - وقد كان يأتى للعلاج راكباً حماره - لعله يعطف على ويدعنى أركب معه ولو لمتصف الطريق وأتحمل الباقي مشياً على الأقدام . . . وهذا ما حدث فعلاً . . . وعدت إلى منزلى ألث من التعب . . . ولمحت بسيمة تجرى وتوائب فى خفة العصفور الطليق، فانزويت فى مكان لا ترانى فيه حتى تمضى لحال سبيلها، لأننى لم أحضر لها ما طلبته منى، وكنت أحاول نسج قصة خيالية أرويها لأُمى ولأبى عن سبب تأخيرى، وعدم ركوبى

القطار، بعد أن توصلت إلى سعيد ألا يفشى شيئاً مما حدث . . لعنة الله على شيطاني، لم يكفه أن يعذبني هذا العذاب، فعمد إلى يستحني على اختلاق الأكاذيب حتى أنقذ نفسي من اللوم والتقريع ومن ضرب العصا أيضاً . . . ولم يشأ اليوم أن يمر هكذا بهذه النكبات - أعنى وقوعي في المجري ثم موت سيد بن بائع الجميز، وثالثة الأثافي حكاية القمار - بل أبلغتني أمي وهي في غاية الألم أن «بسيمة» ستسافر غداً إلى الإسكندرية، وقد تغيب في سفرها مدة ليس بالقصيرة.

- ماذا تقولين يا أمي؟

- ستسافر بسيمة.

- لكن هذا لا يمكن . . . ولم السفر؟

- أنت صغير ولا تفهم في الحياة كثيراً.



الفصل الثالث



أجل، كنت لم أزل صغيراً، لكنى شعرت بأن قطعة من جسمى تتزع انتزاعاً أو أن قلبى الصغير قد انخلع من مكانه . . . ربما كنت أتعلق بأذيال الطفولة، لكن «بسيمة» كانت كالدمية اللطيفة التى تتعلق بها روح الطفل فيظل يناجيها، ويداعبها، ويبكى بكاء مرّاً إذا اختطف أحد منه هذه الدمية .

وتسللت عقب غروب الشمس إلى حيث لقيت «بسيمة» الصغيرة بوجهها المستدير الدقيق الملامح، ونظراتها الحنون البريئة، وقالت لى وهى تشيح بوجهها عنى فى حركة نسوية فطرية متقنة :

- أنا لست ميسوطة منك يا سليمان .

- صحيح يا بسيمة؟؟

- طبعاً لأنك بخيل .

- ما ذنبى؟؟ غصب عنى . . . الظروف صعبة جداً، وأنت عارفة .

فنسيت بسيمة تأثرها وغضبها على . ثم تاهت بنظراتها في السماء وكأنها تحلم أحلاماً وردية يوشىها خيالها الساذج بكل جميل من الظلال والألوان ، وقالت :

- أنا مسافرة إلى الإسكندرية يا سليمان .

- أصحيح هذا يا بسيمة . . ؟

- طبعاً ، فأنا لا أكذب عليك .

وأصابني غم شديد لأنى لم أكن أتصور أن تنأى بسيمة عني لأى سبب كان ، لأنى كنت أشعر بسعادة بالغة ونحن نلهو سوياً وأفقت من همومى على صوتها الرقيق الخالم وهى تقول :

- كنت أتمنى يا سليمان أن تكون معى . . . أمى تقول لى إنى سأرى البحر الواسع الكبير . . . البحر المالح . . . بحر بصفة واحدة . . .

ولم أكن بحاجة لكى أفهمها - كما تعلمت فى المدرسة - أن للبحر ضفة أخرى لكنها بعيدة جداً بحيث لا تراها العين ولا يحدها البصر ، فاستطردت قائلة :

- وأبى يقول إن فيه رجالاً ونساء عرايا يسبحون فيه طول النهار بلا خجل أو حياء . . .

قلت لها : لعلك تقصدين المصيف ؟

لكن بسيمة لم تكن تدرك معنى لهذه الكلمة - المصيف - ولا تعبرها التفاتاً، لذلك ابتسمت ملء شديها والتمعت أسنانها فى ضوء القمر، وهى تقول:

- وفى الإسكندرية حلوى كثيرة... وخبز طرى... ولحم وبرتقال... وفيها بيوت عالية.. عالية جداً مثل سرايات الملك.

- وأنت، أتعرفين سرايات الملك؟

- جدتى كانت تحدثنى عنها طويلاً بالليل وهى تحكى عن جدى الضابط الذى كان يعادى السلطان، ولما أحبوا أن يمكوا به هرب منهم.

وصحت على حين غرة:

- ولم تذهين للإسكندرية يا بسيمة؟

- كى أنفسح وأكل حلوى وفاكهة وحاجات كثيرة..

- أنا فاهم.. لكن من سيعطيك كل هذه الأشياء هناك؟

- عمى.

- عمك؟

- طبعاً، ألم أقل لك إن جدى كان ضابطاً كبيراً وله أولاد غير أبى فى مصر والإسكندرية، ولا يلبسون العمة والجلباب مثل أبى

لكن عندهم طرايبش وبذل . . . وأمى تقول إنهم أغنى منا،
وعندهم قروش كثيرة . . .

لم أكن فى حاجة لأن تخبرنى أمى - حين عدت فى المساء - بأن
حالة الشيخ حافظ شيخا تنحدر من سبى إلى أسوأ، وأنه يحصل
على لقمة العيش وكأنه ينحتها من الصخر الصلد، لهذا أمعن فى
التفكير، وتخلى حيناً عن حديث الحرب وهتلر . . . لكن ماذا
يعمل؟؟ لم يعد حاله خافياً على أحد، إن ملابس أفراد الأسرة
الممزقة لتفصح عن حاله، وهموم سعيد ووجوه ينمان عما يختفى
وراء جدران بيتهم من مأساة بطلها الغلاء وضيق ذات اليد،
والمعارك الكلامية التى لا يهدأ لها أبداً الشيخ حافظ وخضرة زوجته
لم تعد سرّاً مستتراً، والجرائد التى لم يكن يتخلف عن شرائها إلا
نادراً أصبحت شيئاً مستحيلاً بالنسبة للشيخ حافظ، فكان عليه أن
يريق ماء وجهه ويذهب إلى هذا وإلى ذاك من هواة قراءة
الصحف، ويتزلف ويتودد كى يقرأها، ويطمئن على أخبار هتلر
وهزيمة الإنجليز . . .

لهذا قرر الشيخ حافظ أمراً لا رجعة فيه . . .

صحيح أن هذا الأمر آلمه كثيراً وحرمه لذة النوم، ومنعه العيش،
أو قل آدمى فؤاده، وهزه هزاً عنيفاً، فشعر أن الأقدار التى تناصبه
العداء اليوم وتحاول أن تخلق من حياته جحيماً لا يطاق . . . لقد قرر

الشيخ حافظ أن يرسل ابنته بسيمة لتشتغل كخادمة فى الإسكندرية عند أحد أثرياء الحرب. وبما خفف وطأة آلامه، وأدخل إلى قلبه شيئاً من الهدوء، أن إحدى معارفه أكدت له أنها تشتغل عند الأسرة نفسها، وأنها ستعتبر بسيمة كابنتها، وترعاها وتحميها من كل سوء، وستبيت معها، وهى التى ستسقيها وتطعمها، ولن تجعلها تشكو من شىء مطلقاً، فضلاً عن أن أجر بسيمة سيربو على جنيتين اثنين... إنه مبلغ كبير حقاً، يستطيع الشيخ حافظ أن يسدده به مطالب سعيد فى المدرسة. وأن يشتري بعض الحبوب. ومن يدري؟ لعله يعود لشراء الجرائد من جديد...

إذن فالحياة قاسية. ورغم قسوتها لا بد أن نعيشها، ونوائم بيننا وبينها، ونصبر ونتحمل حتى تعود المياه إلى مجاريها وينصلح الحال.

كنت أحب بسيمة حباً يتناسب مع عمرى وعمرها، وكانت تبدو فى نظرى كبيرة عالية القدر، رغم أن أبائها هو الشيخ حافظ الخردواتى وأن أمها خضرة ذات الشهرة الذائعة الصيت فى العراق، ورغم أنى طالب بالسنة الرابعة الابتدائية، وبإلها من منزلة كبيرة فى قريتنا الصغيرة المتزوية، لكننى هبطت من سماء خيالى وأحلامى حينما صدمتنى تلك الكلمة البشعة فى نظرى، ألا وهى «خادمة»... أنصحب بسيمة خادمة تؤمر فتطيع، وقد تركل وتهان،

وتعيش على فتات الموائد، وعنجهية السادة وغطرسة أثرياء
الحرب...؟؟

يا إلهي... إن الحياة تكشف عن كثير من أوهامى كلما امتدت
بى الأيام، يا لها من مسكنة ساذجة...!! تساق كالذبيحة بينما
تغنى وتبتسم وتحدث عن عمها المزعوم الذى ستذهب إليه فى
الإسكندرية.. فماذا تكون حالتها حينما تظأ رجلها أرض
الإسكندرية لأول مرة، حيث الألوان والأضواء والصخب؟

وما موقفها حين تدخل بيت سيدها، وبدلاً من أن يداعبها
ويربت على كتفها ينهرها ويصيح فى وجهها كى تحضر هذا الشيء
أو ذاك؟ وما شعورها حينما ترى أولاد سيدها ينعمون بالملابس
الزاهية الثمينة ويحظون بالدلال والرعاية والعطف، بينما هى
تتلقف ما يقذفون به إليها من ثياب مستعملة وما يوجهونه إليها من
تأنيب وازدراء؟؟ فهل ستبكى بسيمة وتقول لهم أرجعونى لأمى
وأبى؟؟ وهل سيقرون لضرعتها ونحيبها ويحققون لها رغبتها؟ أم
يلهبونها بالعصى والزجر والصفعات، فتستغيث بأخيها سعيد كما
هى عادتها:

- الحقنى يا سعيد الأولاد يضربوننى.

فلا يغيثها سعيد ولا يلتفت إليها؟؟

مسكينة يا بسيمة . . . ١١

قد يتاح لها البرتقال والحلوى وغير ذلك من الطعام، لكن سيكون ذلك كله مر المذاق عديم اللذة، وكأنه مخلوط بالسّم. وستعلم بسيمة حينذاك أن هناك أشياء أهم من الأكل، وأعظم من الفواكه. ولن تنسى أبداً حنان أمها ورقة أبيها، وغطف أخيها سعيد، وهو يدفع عنها الأولاد. . . وقد تجد الفرصة أيضاً فتشترى البحر الكبير الواسع ذا الضفة الواحدة، لكنها آنذاك ستشعر بالوحشة القاتلة، والوحدة الأليمة، وستبدو أمام نفسها وكأنها قطرة حقيرة ضائعة في مثل هذا البحر العريض. وقد ترمق هؤلاء الذين يسبحون على الشاطئ بعين حائرة، وتعجب منهم إذ كيف لا يسترون أجسادهم، ويختبئون بعيداً عن أعين الناس كما يحدث في القرية. . . قد يكون الزمن جزءاً من العلاج، وقد يسلس قياد بسيمة بعد مرور بضعة أيام بحكم العادة، وبالتالي ستخف عواطف أبيها وأمها رويداً رويداً فلا حيلة لهما في الأمر، فاللقمة المغموسة في العسل تتبعها لقمة أخرى بلا إدام، وقد لا يخلفها شيء على الإطلاق.

وسافرت بسيمة . . . ١١

كانت فرحة منشرة الصدر، لكن أمها كانت تبكي، وأبوها توارى عن الأنظار يعالج أحزانه في خلوته، وسعيد كان ذاهلاً

شارد البال، أما أنا فقد شاءت الظروف أن ترانى أمى وأنا أبكى
فسارعت تجفف لى دموعى وهى تقول :

- إن قلبك طيب مثل أمك تماماً . . . كل شىء يهون يا بنى . .

فلا تبكى :

لكنى لم أجد ما أجيب به، وبقيت طول اليوم سابحاً فى عالم
حالك السواد، لا أكاد أفرغ من تهاويله وخيالاته وآلامه . . .



ولست أدرى ما العلاقة بين سفر بسيمة وإصابتى بالتهاب
وحرقان فى الزور فى اليوم نفسه، إذ ارتفعت درجة حرارتى
وأخذت تتابنى نوبات شديدة من السعال، ولم يأت الليل حتى
كنت أهذى من أثر الحمى. وجلست أمى بجانبى بالتعويذات
والمأثورات المعروفة كيما تذهب عنى أثر الحسد الذى ظنت أنه هو
سبب دائى، وكان أخواى الصغيران - ليلى ومحمود - يحومان
حولى، ويتفحصان فى وجهى، بل كانت ليلى تقبل نحوى حاملة
كسرة من الخبز، وهى تقول لى: «خذ وكل يا سليمان».

- فإذا ما عجزت عن الرد بكى أمى، وتناست ألمها الشديد
الذى يسكن صدرها، وجلس أخواى الصغيران يكيان مثلها، أما
جدتى فقد جاءت وجست نبضى، وتحسست جسدى لتختبر

حرارتي شأن المجربة الواعية، والحكمة الشعبية تقول: «سل مجرباً ولا تسلم طبيباً»، لكن يبدو أن جدتي كانت مجربة وطبيبة في الوقت نفسه، إذ سرعان ما شخصت الداء وقررت أن زوري قد سكتته «الدية»... الدية؟ ما شأنها هي الأخرى بزوري وبالحمي التي ترعش كياني كله؟؟ لم أسمع ولم أقرأ في حياتي مطلقاً أن الذئاب تسكن الأزوار كما تزعم جدتي الآن، فهذا شيء لا أصدقه، حتى ولو رأيت الذئبة تعوى في فمي، لكن جدتي أكدت هذا في هدوء وثبات لا يدعان مجالاً للشك أو التردد، وكأنما كان قرارها وحياً متزلاً، وإنجيلاً لا يقبل النقد أو التحويل... وكنت أفكر أن أقول لجدتي أن زوري أصغر من أن تسكنه عصفورة وليدة، فما بالك بالذئبة، ولكن الكلمات ماتت على شفتي حينما سمعتها تقول:

- بسيطة جداً يا أم سليمان.. اسم النبي حارمه لا يحتاج إلا إلى جزار ابن جزار يخرج له الدية من زوره. فانتفضت في فراشي كمن لدغته عقرب وهتفت:

- جزار؟؟ هذا لا يمكن.. كفى تخريفاً.. الجزار لذبح البهائم فقط وليس لإجراء العمليات الجراحية..

فابتسمت جدتي في ثقتها المعهودة، ورمقتني في إشفاق، ولعلها كانت تضحك من كل قلبها لسذاجتي الصيانية، وقالت:

- لا جراحة ولا أى شىء... اطمئن... مجرد تمرير السكين على رقبتك.

- يا نهار أسود... مستحيل... دعونى أموت ولا داعى لهذا المهزلة.

فمرت جدتى بكفها الباردة العجفاء على رأسى وبدنى، ثم قبلت جبينى الملتهب وهى تقول:

- لا تخف أبداً... لن تمسك السكين سوى بعض المس الخفيف الرقيق، وبذلك تخرج «الديبة»، وتشفى تماماً.

فانهمرت الدموع من عينى وأجهشت بالبكاء، ورأسى يكاد يتفلق من الصداع، وصحت:

- دعونى... دعونى... لا أريد أن أشفى.

ولن أنسى ما حببت ذلك الرجل الأشيب الذى أربى على الثمانين من عمره، الجزار ابن الجزار وهو يدخل على مستلاً سكيناً طويلة صدئة، ثم ينحنى على بسحته المغضنة السمراء، وعينيه الغائرتين وأنفه الكبير، ويده المرتعشة التى كانت تقبض على السكين. ثم يقترب من عنقى ويحاول تمريرها عليه، ولكنى انتفضت محاولاً التمرد... ولكن هيهات... فقد أمسكت عدة أيادى، فاستسلمت مرغماً، لكن جدتى كانت عند وعدها، فقد

مرت السكين الصدئة مرّاً سريعاً رقيقاً، بينما كان الرجل يزمجر بصوت أجش كأنه ينبعث من كهف سحيق:

- اخرجى يا ديبة... أنا جزار ابن جزار أذبحك يا ديبة...
اخرجى يا ديبة.

ولم يكد ينتهى من عمله - أعنى تطبيبه - حتى وثبت فرعاً من فراشى محاولاً أن أتسم الهواء، أو أبلل فمى بقليل من الماء، فتبسّمت جدتى ابتسامة المتصرة وقالت:

- بالسلامة إن شاء الله... ألف صحة وعافية تسلم بدنك يا سليمان..

لقد ظننت جدتى - عفا الله عنها - أننى قد شفيت من جراء هذا العمل، فلم أحاول أن أخبرها بأن جسدى ما زال يتقد بالحمى، وأن زورى ما زال يلتهب من شدة الألم، وأن السعال لا يبرح يهزنى بشدة... لم أحاول أن أخبرها بكل ذلك؛ لأنه ليس فى حاجة إلى تأكيد، لأنها لن تصدقنى أبداً مهما زعمت، بل ستتهمنى بالتمارض والتخنث. فمجيء الجزار وإخراج الذئبة - وإن كنت لم أرَ ذئبة تخرج من زورى - كل ذلك دلالة واضحة على شفائى التام...

وتسلل النوم إلى أجفانى، فرحت فى سبات متقطع، إذ صحوّت فى منتصف الليل لأرى أمى قد ارتمت نائمة بجوارى،

وعلامات الإنهاك والألم ما زالت تظهر فى تقلصات وجهها، وبصرت بليلى ومحمود وقد تكورا عند قدمى، وأنفاسهما الرتيبة تصل إلى سمعى فى غطيظ ضعيف، وأما أبى فقد لمحته بطرف عينى وهو يجلس على الكرسي الخشبي اليتيم وقد أسند خده على راحته، وهو يهمس فى صوت يشبه النجوى ويقول: «يا رب سدد ديونى... يا رب لا تذلى لأحد... يا رب ارزقنا واشف مرضانا... افرجها يا رب يا كريم...»

مسكين أبى... إنه يفكر فى ديونه ليل نهار. وصدق من قال: إن الديون ذل بالنهار، وهم بالليل، وعلة فى القلب والشرابين والأحشاء... كان أبى يتعذب كثيراً بسبب تلك الديون، فلا يحلو له مأكّل، ولا يصفو له مشرب، لقد أتعبه التفكير، فكثر عدد الشعرات البيضاء فى رأسه الخليق، ولحيته المهملة، وشاربه، وازدادت التغضنات وضوحاً وعمقاً فى جبهته، حتى لفائف التبغ التى كان يصنعها بيديه قل عددها وأصبحت رفيعة جداً بحيث إنه لا يكاد يجذب منها نفسين أو ثلاثة إلا ويجدها لفظت آخر أنفاسها...

والشأى الذى لم يكن ينسأه بين لحظة وأخرى أصبح لا يناله إلا كل بضعة أيام، وهكذا علمنى أبى كيف أتألم وكيف يثن ضميرى تحت وطأة المسئولية منذ الصغر، وعلمنى أن تحت ستار الليل

كثيرين ممن لا يذقون النوم إلا غراراً . بل وكثير من المرضى والجائعين والبائسين . . والحقيقة إنى كلما تذكرت قصة ديون أبى ، وجدتها مقترنة بصوت عمى «فريد» ، فما صلة عمى بهذه الديون؟

إن عمى الذى كان يعيش معنا فى تلك الأيام ، إنسان عاطفى طيب القلب ، لا يكثر كثيراً بمستقبل أيامه ، بل يعيش ليومه ، ويحظى وينعم بالسعة التى هو فيها دون النظر لأى اعتبار ، وهو أزهرى فاشل ترك الأزهر إبان ثورة سنة ١٩١٩ ، فلقد رأى عشرات من إخوانه يسقطون صرعى الرصاص البريطانى ؛ لأن الشعب كان ينادى بالحرية والاستقلال . .

وكان لعمى بالرغم من هذا فلسفة خاصة فى الحياة ، إذ كان يعتقد أن واجب الطالب الأول هو العلم والتحصيل ، وليس المظاهرات والتجمهر والهتافات الصاخبة ، فيوم أن نكون أمة متعلمة واعية سنعرف كيف نسير ، ونتجنب العثرات والزلل . وكنت أنا شديد التأثير بهذا رأى ، وساعدنى على ذلك ما جبلت عليه من وداعة ، وميل للمسالمة والهدوء ، على عكس سعيد حافظ كلية ؛ لأنه كان ثائراً متمرداً مشاغباً طول حياته ، سواء أكان ذلك فى الشارع أو فى المدرسة . . . وما أكثر ما كان عمى يسكب فى أذنى مواعظه ، ويأخذ الحماس الشديد وهو يحذرنى من أوهام الحب حينما سأكون غريباً فى إحدى المدن لطلب العلم ، ويحذرنى من

المغالاة فى عواطفى ومن الإفراط أو التفريط ؛ لأن ذلك سيكون على حساب مستقبلى ونجاحى ، وهذا لا يليق بابن رجل فلاح يشقى ويكدح من أجل ولده . وكان عمى يتنهد فى شىء من الألم وهو يجذب نفساً من لفافة تبغ بين أصبعيه ، ويقول :

- ابتعد يا سليمان بكل قوتك عن التدخين ولا تقع فى الخطأ الذى وقعت أنا فيه ، لقد كنت أشعر وأنا أضع اللفافة بين شفتى أنى صرت رجلاً حتى لكان شارة الرجولة هى سحائب الدخان التى تتصاعد من فمى وفتحتى أنفى ، وكنت أشعر أن ذلك أدعى إلى إكبارى فى أعين الناس ، وخاصة تلك التى كنت أحبها ، وكم كان الفخر يملئونى وأنا أقدم لفافة لأحد أصدقائى . . . كانت عوامل نفسية غريبة تسيطر على عقلى يا سليمان وكنت مستسلماً لها ، وكأن إرادتى صارت هباء ، وأخذت أنحدر قليلاً قليلاً بعاملين مهمين :

أولهما: أنى أعيش غريباً بعيداً عن القرية بلا رقابة أو عناية ،
وثانيهما: فرقة من إخوان السوء ، حتى أصبحت لا أستطيع أن أفارق التدخين والأفيون والحشيش ، وهنا علمت بعد فوات الأوان أن الرجولة الحقة هى ألا تستعبدك عادة مهما قويت ، وألا تستذلك نزوة أو شهوة مهما احتدمت ، بل كن إنساناً فى حدود الإنسانية الطبيعية السليمة لا فى غمار الشذوذ والانحراف . . .

ثم يبدو الحزن على وجه عمى ويقول:

- قم يا سليمان وقل لوالدتك إنى أريد فنجان قهوة. ثم يتحسس جيبه، ويخرج ورقة صغيرة مفضضة ويحاول فتحها بعناية بالغة، ويستخرج منها شيئاً بنى اللون ليلوكة فى فمه، وأعتقد أن هذا الشيء ما هو إلا قطعة من الأفيون...

لم يكن مع عمى نقود لينفق على التدخين والأفيون فكان يلجأ إلى أبى ليقترض منه، أبى كان محدود الطاقة، فقير الموارد، فعمد عمى آخر الأمر إلى بيع بضعة قراريط من أرضه - وكان يملك فدائاً ونصف - وارتيك والدى أشد الارتباك...

فالعار كل العار فى أن ينزل غريب على أرضنا أو يشتريها، وأبى يظن أن الأرض قطعة منا، وجزء من شرفنا وكرامتنا، أو حرم مقدس لا يصح أن يطأه غريب، بل إن الموت أهون من ذلك عند أبى، فماذا يقول أهل القرية حينما يشطر حقننا إلى شطرين، ويشاركنا فيه دخيل على الأسرة؟ إنهم يسمون ذلك عقوقاً وإهمالاً وفضيحة...

لقد وقع أبى فى حيرة قاتلة، فعمى «فريد» يريد مالاً وأبى ليس معه جنيه واحد، وعمى لا بد أن يحصل على المال، لذلك عول على عرض بعض الأرض للبيع، وقرر أبى شراء الأرض حفظاً لكرامة الأسرة، ووفاء لتقاليدهما للمحافظة على كل شبر من

أرضنا، وامتدت يد أبى إلى الناس كى تقترض منهم المال بالربا الفاحش، وكان مرسى أبو عفر أسرع هؤلاء جميعاً لد أبى بما يشاء من مال . . . ومرسى هذا تاجر كان يخزن بعض البضائع قبل الحرب وأثناءها، فما أن تأزمت الحالة، وانتشر الغلاء، وراجت السوق السوداء حتى أخرج مخزون بضائعه فارتفع من رجل فقير مغمور إلى تاجر كبير يملك؛ ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه، وظلت الديون تلهب أبى بسياطها، ويتراءى له شبحها المخيف ليل نهار فلا يكاد يفرغ من تسديد شىء منها، حتى يأتى عمى - سامحه الله - ويعرض بضعة قراريط أخرى للبيع، فإذا لم يشتريها أبى فستكون من نصيب عشرات غيره، فلا مناص إذاً من الاستدانة من جديد، ولا إفلات من مقاساة الآلام المختلفة . . .

وكان عمى رغم هذه الآلام التى يسببها لنا عطوفاً كريماً ولا يحاول إنكار ما يقترفه فى حقنا، بل كان يبكى أحياناً ويقول:

- ماذا أعمل؟؟ هذه إرادة الله . . . رينا يتوب علينا .

وكانت جدتى تأتى إليه وتقول:

- يا ولدى يا حبيبى ارحم أخاك . . . ارحم عبد الدائم صاحب العيال . . . وارجع لنفسك . . . غداً تندم يا فريد حينما تروح السكره وتأتى الفكرة .

فبطاطى، عمى رأسه فى غم شديد، ويبدو وكأنه غارق فى بحر
لجى، عاصف الريح مضطرب الأمواج لا أمل له فى النجاة،
ويهمس مهموماً:

- أنا أشد منكم حزناً وأسفاً.

فتقول جدتى: وكيف تعيش بعد أن تأتى على كل ما تملك من
قراريط؟ لم يبق لك إلا القليل..

- سأخرج من هذه القرية ولن أعود إليها أبداً..

سأبحث لنفسي عن عمل.. أى عمل مهما كان لونه ومركزه..

- وإذا لم تجد عملاً يا فريد..

- المهم أنى لن آتى إليكم مهما كان الأمر... سأموت شريداً جائعاً
ولن أريكم وجهي، فقد تسببت لكم فى متاعب كثيرة ويكفيكم
هذا... إنى أستحق كل ما سيحدث.

ورغم كل هذا فقد كان عمى يعيش فى البيت كواحد منا، يأكل
ويشرب وينام فى البيت مع تضاؤل ميراثه وحقوقه يوماً بعد يوم،
وقد فعل عمى خيراً بعدم موافقته على الزواج مع أنه تجاوز عامه
الخامس والثلاثين، إشفافاً على مستقبل أسرته الغامض الشائك..



الفصل الرابع

- السلام عليكم يا عبد الدائم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . . تفضل ادخل يا «مرسى» . . .

ودخل «مرسى أبو عفر» المرابى المعروف، وقد رسم على ثغره ابتسامة مفتعلة صفراء، وأخذ يتهادى فى مشيته التى تنبى عن حذر، وتمعن ودهاء، يؤكد ذلك عودة القصير النحيف، ونظراته التى تعيث هنا وهناك، وتنحنحه التقليدى . . . وكان أبى كلما رأى مرسى ازداد وجهه شحوباً وغماً، واختلجت عضلات وجهه من الغضب المكبوت، وانتفض جسده كله من الغيظ الدفين، وبان فى عينيه الضيق والتبرم . . . كان مرسى كالحنظل الشديد المرارة، وكان أبى مرغماً على تجربته . . .

- سلامات يا عبد الدائم .

فرد أبى فى إيجاز: الله يسلمك . .

- الدفع وجب يا زين الرجال .

- أبداً . . . باقى الشهر .

- حرام عليك يا عبد الدائم . . والله والله والله مال ناس ، ولا
يخصنى فيه مليم . . .

ورمقه أبى بنظرات مشتعلة ، ولكنه كظم غيظه وسكت ،
وأخذت تتردد فى ذهنه تلك الكلمة التى نطق بها مرسى : «حرام
عليك يا عبد الدائم» . . . يا للسخرية والمهزلة ! أحرام على أبى ؟
أحلال على مرسى أن يمتص دماءنا ، ويقرضنا بالربا الفاحش ،
ويطارد أبى من وقت لآخر حتى يكدر عليه عيشه ، ويؤرق له
نومه ؟؟ وماذا أجرم أبى ؟؟ لأنه مستسلم كالضحية ، وصابر رغم ما
به ، متحمل لمرسى وكلام مرسى . . . ؟؟

ومن مرير السخرية أن مرسى يزعم أن المال ليس ماله ولكنه مال
ناس !!! والأدهى من ذلك أنه يقسم بالله ثلاث مرات ليؤكد
قسمه ، أو على الأصح يؤكد كذبه . . . وبعد فترة صمت قال أبى :

- لا داعى لمثل هذا الكلام . . . سواء كان مالك أو مال ناس ، فأنا
لا أماطل أحداً ، وسأرده لك بالمليم الواحد ، فالقطن ما زال
متكدساً كما ترى ، والحرب شلت حركة التجارة ، والإنجليز
خربوا بيوتنا . . .

- اللهم خرب بيوتهم . . .

كان مرسى يلقي بهذه الجملة الأخيرة على سبيل المجاملة والمجارة لا على سبيل العقيدة والإيمان بها، فهو يعلم أن الحرب كانت خيراً وبركة عليه، فقد هيأت له السوق السوداء، وعلمته أفضل وسائل الاحتكار، وعرفته كيف يصل إلى ذوى السلطان ممن يشرفون على توزيع التموين فى البلاد، فيرشيههم ويهاديهم ويبنى ثروة على الخداع والسحت، وعلى أشلاء الضحايا، فليس من المعقول أن يتمنى مرسى -ضاداً- خراب بيوت الإنجليز؛ لأن فى ذلك خراباً لبيته، وانقطاعاً لمكاسبه وموارده.

وكثيراً ما حدثت نفسى قائلاً: «ماذا يحدث لو أن كل إنسان فى مصر رفض أن يمد يده للإنجليز أو يتعاون معهم على الإطلاق؟؟ أكانوا يقيمون القواعد العسكرية، ويطيّب له المقام بيننا، ويتخذون منا حلفاء، ويجعلون من بلادنا سوقاً رائجة لتجاراتهم ومنتجاتهم؟؟ أكان من الميسور أن يجد المستغلون -أمثال مرسى- والصوص الحماية والتشجيع فيثرون، ويتربعون على القمة؟؟» أسئلة تراودنى وأنا جالس مع والدى ومرسى، فأجد أن الإجابة عنها ممتلئة بالصعوبة والإشكالات . . .

- على كل حال يا عبد الدايم . . . إذا لم نستطع بيع القطن فأعتقد أن بيع الجاموسة قد يساعدك كثيراً.

فضغط أبى على أسنانه كمن يحاول أن يوقف تياراً عارماً من الغضب، وقال:

- أشكرك على نصيحتك... لكن لى أن أتصرف كيف أشاء، وخصوصاً أن بيننا وبين الميعاد شهراً كاملاً كما قلت لك...

- هل تضايقت منى يا عبد الدائم...؟؟ أنا لا أقصد إيلامك والله العظيم...

- انتهينا... لا داعى للكلام فى هذا الموضوع.

وكان معنى ذلك أن وضع ختاماً للزيارة، فأنصرف مرسى والابتسامة المصطنعة الصفراء ملتصقة على ثغره، والمكر والدهاء يطلان من محجريه... لم تكن هذه الزيارة الأولى من نوعها، بل إن مرسى لا يفتأ يتردد علينا من وقت لآخر كالشبح الممقوت، لتذكرنا طلعتة البهية. بما تراكم علينا من ديون، وليتقلب أوقات الراحة التى نختلسها اختلاساً إلى نكد وحزن. كان هو يشعر بهذا فيما اعتقد، لكن لعله يجد من اللذة والسعادة ما لا يستطيع مقاومته، ولقد كرر على سمع والذى أكثر من مرة حكاية بيع الجاموسة، فقد كان من المعروف أنها تدر كمية كبيرة من اللبن، وكانت أمى تبيع الجبن والسمن، فتجد بذلك مصدراً طيباً للقروش القليلة التى لا غنى عنها. لكن يظهر أن مرسى قد مالت نفسه لحرماننا من هذه الجاموسة والاستمتاع بلبنها الكثير، ولم يكن

يكفيه ما نحن فيه من ديون، حتى لكأن الطمع والشراسة أصبحا من مستلزمات حياته الجديدة..

كان الله فى عون أبى، فقد كظم غيظه، ولم يرفع فأسه ليحطم بها رأس هذا المرابى الطامع الذى لا تعرف الراحة إلى قلبه مسيلاً، ولا الذوق إلى حياته طريقاً... لكن لا بد أن يطأطئ أبى رأسه للعاصفة حتى تمر بسلام لعل الله يتداركه بعنايته.

وحان موعد افتتاح الدراسة، وكان على أبى أن يعد لى الملابس المدرسية المطلوبة، وكان الأمر أصعب من أن تحله نصف كيلة حبوب تبيعها أمى أو كمية من الجبن أو السمن نعرضهما فى سوق القرية؛ لأن مابقى من الحبوب لا يكاد يكفى، ولأن شراء حلة جديدة ليس بالشىء الهين...

أخذ أقرانى فى القرية يذهبون إلى المدينة واحداً بعد آخر، ويعودون وفى يدهم الملابس الجديدة، فكنت أتحاشى النظر إليهم وأقلت منهم كلما سألونى: هل أشرتيت ملابس أم لا؟ لكنى أصبحت بين نارين، فحالتنا المالية غير خافية علىّ، وفى الوقت نفسه ما ذنبى أنا حتى أحرم من الملابس وأعرض للغمز والتجريح والألم النفسى بين زملائى؟..

وخيل إلى أن حزنى كان أشد من أى إنسان آخر. فالتار لا تحرق إلا القابض عليها، ولكنى كنت مخطئاً فى ظنى، فقد سمعت أمى تقول فى تأثر:

- يا عبد الدائم . . . سليمان يظهر متأثراً . . . ألن تحضر له بدلة؟

- كيف أتصرف؟؟ قولى . . . أبيع نفسى؟؟ أأخلق المال؟

- مسكين يا ولدى، إنه لا يتكلم، لكن يظهر على وجهه الألم الشديد.

- ربنا لا ينسى عييده يا أم سليمان . . . ستفرج إن شاء الله.

وجاء اليوم الأول للدراسة، وقبعت أنا فى البت أبكى بشدة، وهل كان فى استطاعتى أن أفعل غير ذلك؟؟ . . كنت أشعر بالألم يمزق نياط قلبى والحزن يفرى كبدى بلا رحمة . . . فزملائى قد خرجوا أفواجاً فى طرب ومرح إلى المدرسة. كنت أقف فوق سطح منزلنا فى مكان حيث لا يرانى منه أحد، وأراقبهم وهم منطلقون خارج القرية فى الطريق الموصل إلى المدرسة كانت تقع فى قرية مجاورة لنا. وشعرت حينذاك بالحرمان، وبشيء من التمرد على حظى العاثر.

وقد كان لهذه الحادثة العابرة أثر كبير فى نفسى، فقد جعلتنى أقدر الوقت وأنتهز الفرص، وأغالى فى تقديرى لقيمة كل عمل مهما كان، فلن يخالجنى أدنى شك بعد ذلك فى أن أبذل غاية جهدى، فلو أتاحت لى ظروف طيبة اليوم فمن يدرى؟؟ لعلها تنقلب إلى النقيض فى اليوم التالى. ولا شك أن الشيء الذى ينال

بالعرق يأتي سهلاً ميسوراً، ولذلك تعلمت أن أقدر الأشياء، لا بما تعارف عليه الناس من ثمن لها، ولكن بما بذلت من طاقة في سبيلها . . .

أما أبى فلم يكلمنى مطلقاً فى ذلك اليوم، بل ولم يأت من الغيط ليتناول طعام الغذاء، ولعله احترم عواطفى ودموعى ومشاعرى البائسة، فأثر ألا يرانى لأنه لم يكن فى حاجة إلى مزيد من الألم لنفسه ولى أيضاً.

وفى المساء عاد عمى «فريد» . . .

عاد وفى يمينه شىء مكور لم أتبينه فى غبش الليل . ودخل، ثم فتحه أمام أعيننا، لقد كان سروالاً طويلاً من الصوف الممتاز، لكنه مستعمل، ويصلح لرجل كبير لا طفل صغير مثلى، لكن كانت خطة عمى فريد واضحة بلا غموض . . .

لقد أخذونى إلى أحد «الخياطين» فى القرية، وبقدرة قادر خلق الرجل من السروال الطويل سروالين قصيرين . . . ورغم أنه لم يكن على دراية بحياكة مثل هذا النوع من الملابس - لأنه يشتغل فى الجلابيب البلدى ومثيلاتها - إلا أنه أعمل فيه المقص، ويقليل من التحوير أخرج ما أراد أبى وعمى . . . ألم أقل إن عمى رجل طيب رغم ما هو متورط فيه من أفيون وحشيش وإفلاس مطرد . . .؟؟

لكن هل حل إشكال البدلة بما يتناسب مع الحقيقة؟؟ إن المدرسة تشترط زياً معيناً .

ثم أنا . . . !! إن هناك شعوراً قاسياً يعتصر فؤادي ، لأنني أعيش على الإحسانات والتسول . . وماذا يكون موقفي حينما أقابل ذلك الذي جاد على بسرواله حتى أستخرج منه سروالين؟؟ هل أمشي شامخ الأنف رافع الرأس كما هي عاداتي؟؟ وهل أفخر بملابسي الجديدة شأن كل الطلبة؟ لا شك أن الخجل سيغمرني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ، وكلما نظر إلى أحد سيبدو لي أنه يحقق ويمعن النظر في سروالي ، وأنه يعرف حقيقته ، وكلما تهامس اثنان لن يكون موضوع الهمس - فيما أحسب - إلا هذه السبة التي لا مفر منها .

سامحك الله يا عمي . . . !!! ألم تجد حلاً غير هذا؟؟ أكل ما في الأمر أن تنصيد لي سروالاً ، لتسد حاجتي بهذه الطريقة التي أفضل العري عليها؟؟ ألا تعلم أن لي قلباً وإحساساً ، ونفساً تتألم . . . تتألم بشدة وتبالغ في ذلك؟؟ لكن الحمد لله . . . هذا كل ما نستطيعه . لتوافق المدرسة أو لا توافق على هذا الزى ، وليسخر زملائي أو لا يسخروا ، ولتتمرد نفسي الآية أو تخضع ، فلا بد أن أذهب إلى المدرسة ، وأواصل دروسي وأبني مستقبلي الذي يريده لي أبي ، وينفق من أجله ما يستطيع من جهد .

ومرت الأيام عندنا -نحن معشر القرويين- مزيجاً من الكفاح والصبر والأمل، وكان حديث الحرب في كل مكان، ولا كلام للناس إلا عن الغلاء الفاحش والقطن الذى بارت تجارتها، والمهاجرين الذين يفرون لوأذاً عن المدن التى أقضت مضاجعها الغارات، والشيخ حافظ شيخا عاد إلى سابق عهده من اهتمام بالسياسة وبأخبار هتلر وغزواته الموفقة، سمعته وهو يدرش مع أحد أصدقائه وكان يقول:

- لست أدري من أجل أى شيء نحارب؟؟ هل نحن نكره الألمان حقاً بحيث يدفعنا الكره والحقد لشن الحرب عليهم؟؟ إن كان كذلك فالإنجليز أجدر بكل مقت وكره.

- ويزعم زعمائنا أننا ندافع عن العالم الحر، ونقف في وجه النازية والديكتاتورية الألمانية... إن بناء الديموقراطية في خطر ويجب أن نحميه...

فيثور الشيخ حافظ ويضرب كفاً على كف ويقول:

- أحوال تجنن... أين هذا العالم الحر؟؟ هل في مصر حرية حتى ندافع عنها؟ إن الإنجليز هم كل شيء في البلد، وهل العراق التى أرادت انتهاج سياسة حرة فأعلن تشرشل عليها الحرب -هل هي الأخرى تستمتع بالحرية؟؟ والجزائر، وسوريا، ولبنان، وإيران؛ كل هذه الدول، هل تنعم بالحرية؟

ويرد صديق آخر فيقول :

- صدقت يا شيخ حافظ ، نحن لا نحارب من أجل أى شىء ، لا نعرف لنا غاية .

- بل ندفع ضريبة الذل والاستعباد . .

ويبلغ الشيخ حافظ ريقه ، ويجفف عرقه ، ويتلفت يمنة ويسرة مخافة أن تكون «خضرة» آتية إليه فتغنص عليه مجلسه ، ثم يقول :

- وأين هى الديموقراطية . . ؟ يا حبيبى البلد كلها إقطاع ، وتجار ، وسادة وعبيد ! مفهوم ؟؟

ثم يضحك فى سخرية مرة ويستطرد :

- «أحب الحسين ولكنما لسانى عليه وقلوبى معه» فيرد آخر قائلاً :

- أقصد أن المصريين يحبون هتلر؟

طبعاً . . إذا جاء رجل ليخلصنى مما أنا فيه من بؤس ، هل أكرهه؟ ستكون حماقة منى . . . وعلى كل حال لم يعد خافياً على أحد أمر تلك المظاهرات التى قامت فى القاهرة تهتف لهتلر تستنجد به . . .

- آه يا شيخ حافظ وألف آه . . ما زال هناك بعض الأغبياء الذين يؤمنون بوعود الإنجليز ومحالفتهم ، لكأن ثمن المحالفة أن نكون أذناناً وبقرة حلوباً لهم ، وسياجاً لإمبراطوريتهم التى لا تغرب عنها الشمس . . .

- أتعرف يا صاحبي متى يعرف الناس عدوهم من صديقهم؟

- متى؟؟

- حين يفتحون تاريخهم ويقرأون ويعرفون من جنى على وحدتهم، ومن حطم كتلتهم العربية، وجعلها دويلات صغيرة مبعثرة، من السهل التهامها، ولا تقوى - مفردة - على صد عدوان.

- لعنة الله على الإنجليز. . لقد رمونا بكل داء وبيل في شتى مرافق حياتنا. .

وهز الشيخ حافظ رأسه في أسف عميق، وبان في عينيه شبح دمة حائرة، وهو يقول:

- شرفنا. . وأعراضنا التي أصبحت مغمزاً لكل غامز، وعرضة للقليل والقال؟

فقال أحد السامعين:

- ماذا تعنى يا شيخ حافظ؟

- أقصد نساءنا اللاتي يبعن ويشترين لدى جنود الإمبراطورية التي تدافع عن الحريات. . . كم من خادومات وراقصات داعرات خلبهن الإغراء ودفعهن العوز فوقن فريسة سهلة للفجور. .

وهكذا تتغلغل مفاصد الإنجليز فى صميم خصوصياتنا وأخلاقنا
وتقاليدنا العريقة .

كنت أستمع إلى الشيخ حافظ بكل مشاعرى ، وكان الغيظ يأكل
قلبى أكلاً حينما يبسط الشيخ حافظ مؤامرات الإنجليز ومفاصدهم
فى بساطة ويسر ، وكنت أعجب من سر سكوتنا عنهم ، وإيواننا
لهم ، بل وتفأخرنا بصداقتهم ، ولم أكن أدرك تماماً الخطة الخبيثة
التي يسرون عليها لهدم معنوياتنا وقوميتنا وحريتنا وحماية الملك
والإقطاع ، لكن عندما سمعت عن جنائيتهم على الأعراض ، وعن
قصص بائعات الهوى من الراقصات والحاديات ، انتابتنى رجفة
شديدة ، وعلى الأثر وثبت إلى ذهنى صورة «بسيمة» . . . !!!

بسيمة التي أصبحت خادمة هى الأخرى ، وتساءلت بينى وبين
نفسى فى لهفة : أياكون مصيرها الانزلاق والزلل كما حدث
لعشرات غيرها . . إنه خاطر حالك السواد يخيفنى جداً ، بل يملأ
قلبى بالبشاعة والفظاعة . . إذن لا فرق بين البشر والذئاب ، كلا
النوعين حيوانات شرهة لا همَّ لها إلا العبث وقضاء المآرب
واللذات . . . ويبدو أن المثل والقيم أوهام شاعر ، وأساطير
مخترع ، لا وجود لها إلا فى دنيا الأحلام . . .

بسيمة . . البريئة . . الصغيرة . . الحلوة ، أتصبح عرضة
للضيعة؟؟ لشد ما يثيرنى ويؤلمنى هذه القسوة التي يضطرم بها قلب

الحياة...!!! ولم أستطع أن أواصل استماعي لأحاديث الشيخ حافظ وأصحابه، بعد هذه الخواطر التي عصفت بي، واجتاحت كياني كله، تركت في جسدي ما يشبه وخز الإبر، وفي روحي ما يشبه جمر النار. وتمنيت آنذاك أن تقذف الأقدار بأى إنجليزى بين يدي، كى أشفى غليلي فأمزقه إرباً إرباً، وأثر لحمه وعظامه للكلاب... وما أعجب أحلام الطفولة التي تتخيل وتهول في الخيال، وتبنى وتهدم، وتصول وتجول كما كان يفعل أبو زيد الهلالي، وسيف بن ذى يزن اليماني...

لقد كانت الظروف تأبى أن نزاول ما يعتمل في صدورنا، فنهرب من الواقع إلى دنيا الخيال كى نشطح فيها حسبما يحلو لنا؛ لأن ذلك يجلب لنا شيئاً من الراحة وقليلاً من الهدوء، وحينما يممت وجهي شطر منزلنا سمعت الشيخ حافظ يقول:

- الفاتحة يا جماعة أن يأخذ الله باليد، وينصر هتلر... الفاتحة... فتمتم الجميع قائلين: «الفاتحة على أولاد الحرام والظلمة...».

كنا عائدين من المدرسة فقلت لسعيد:

- ما بك يا سعيد؟ أراك سريع الغضب، شديد الثورة هذه الأيام؟

- إن طبعي هكذا.

- لكن لم تكن بهذه الصورة العنيفة!

- فعلاً. أنا تعبان . . . متضايق . . . لم أعد أحتمل كلمة من أحد.

- ولم كل هذا؟

مصمص سعيد شفتيه، واكتسى وجهه بنقاب من الحزن، وحاول أن يتكلم، لكن لسانه تعثر، واحتبست الكلمات في فمه وأوشك على البكاء، فقلت:

- تكلم يا سعيد، ألسنا أخوين لا فرق بيننا؟

فتشجع سعيد وكور قبضته مهدداً، وقال:

- حسن بن مرسى أبو عفر قال لى بعض الكلام الفارغ هذا الأسبوع.

- ماذا قال بالحرف الواحد؟؟

- كلام لا يقال ولا يصح أن أنطق به . .

- ألهذا الحد يا سعيد؟

- نعم، لقد طعني فى الصميم . . لا بد أن أريه مهما كان . . سأقتلع له عينيه وأجعله قعيداً كفيفاً . . إنه إنسان قذر.

كانت ثورة سعيد من العنف بحيث أشفقت عليه من التماذى فيها، فقلت:

- لا بد أنه غيران منك لأنك أول الفصل، أما هو فرا سب للمرة

الثالثة فى الابتدائية . . . يجب أن تدعه يأكل نفسه وينفجر من الغيظ .

- لقد صفعنى يا سليمان صفعة شديدة . . . لا بد من الانتقام منه .
- صفعك؟؟ كيف ذلك؟؟ أنه لا يجرؤ مطلقاً، أنا أعرفه جباناً رعيدياً لا يستطيع أن يرفع يده فى وجه أحد .
- لا أقصد أنه صفعنى بكفه . . لكنه فعل ما هو أقصى من ذلك فى نظرى، لقد مادت بى الأرض ولم أعرف كيف أتصرف ساعتئذ .
- ماذا جرى؟؟

- قال لى : ما هذه النفخة الكذابة . . أنت أختك خدامة . . . !!!

فصحت فى دهشة : ماذا تقول؟؟

فقال سعيد فى أسف : هذا ما حدث . .

- ولأول مرة أخالف طبيعتى الهادئة الوداعة، ويفلت منى زمام نفسى، فتموج رأسى وتفور بشتى الانفعالات والأفكار فأقول :
- لا بد من تأديبه فعلاً . . . بل سأقطع رقبته . . إنه نذل جبان مثل أبيه .

أما سعيد فقد سكت لفترة قصيرة - ويبدو أنه هو الآخر خالف طبيعته الثائرة - فقال فى نبرات حزينة مختلجة :

- لا يا سليمان . . لن نغد يدنا عليه ، ودعه هذه المرة حتى لا يفتضح أمرنا . . ماذا لو ضربناه؟؟ سيعرف مَنْ لم يكن يعرف أن أختي خادمة ولن يغفر لي كوني أول الفصل . بل سيكثر عدد الشامتين والكائدين . . . سأقبل المذلة هذه المرة . . . وسأتركها تمر ، ولعلّى يوماً ما أستطيع أن أعطى حسن بن مرسى درساً قاسياً . . درساً لا ينساه . .

كان كلام سعيد معقولاً ، بل كان أكبر من سنه وفهمه ، لكن يبدو أن الأحداث والملمات كانت تعمل عملها فتبهه الرأى الصائب والحكم السليم . فلم أملك إلا أن أطأطأ رأسى موافقاً ، ثم أحاول أن أواسى «سعيد» وأخفف عنه بعض ما نزل به من إهانات ، وأمسح ما علق بكرامته من أذى ، وهيهات . .

وحاولت أن أغير دفة الحديث فقلت :

- يجب أن نجتهد هذا العام يا سعيد ، ولا بد أن نحصل على درجات عالية حتى نضمن التعليم الثانوى بالمجان .

- التعليم الثانوى؟؟

- أجل . .

- إنك واسع الأحلام .

- ماذا؟؟ هل تحولت عن هدفك؟ ألم تقل أنك تريد أن تكون

- ضابطاً مثل جدك الذى أراد أن يطرد الخديوى - هو وعرابى -
ووقف فى وجه الإنجليز؟؟
- يظهر أن أبى ينوى اختصار الطريق بالنسبة لى، وربما لا أجد
مناصاً من ذلك، بل تستطيع أن تقول إنى أميل إلى هذا... .
- إنك تدهشنى بما تقول... .
- لن يستريح ضميرى مادمت أرهق أبى وأثقل على أسرتنا بهذه
الطريقة، فإذا نجحت فى الابتدائية هذا العام فسأذهب توأ إلى
المحلة الكبرى، ويقول أبى إن حاملى الابتدائية يأخذون مرتباً لا
بأس به، قد يربو على عشرة جنيهات.
- لا تتكلم مثل هذا الكلام.
- وهل يعجبك أن تبقى أختى بسيمة خادمة؟؟
- وهكذا كان يتحدث سعيد وكأنه ليس أمامه أن يختار، بل عليه
أن يدخل باباً واحداً فيه النجاة وفيه الخلاص لسمعته وبسمعة
أسرته وأخته، وإنى لأفكر فى سعيد - أول الفصل - الذى قد
ترغمه الأقدار على قطع تعليمه، وأفكر فى حسن بن مرسى أبو
عفر صاحب الرسوب المتوالى، فيدور رأسى من العجب فأقول:
«لعل الله فى ذلك حكماً تخفى علينا»، وأطوى قلبى على همومى
وأمضى فى طريقى.

قلت لسعيد: لا تفكر فى ذلك الآن، علينا أولاً أن نجتهد كسابق حياتنا الدراسية، ونحاول تحقيق أقصى ما يمكن من النجاح..

- نظرك فى محله سيكون لك ذلك إن شاء الله. ولست أدري ما الذى جعلنى أتذكر فى مساء هذا اليوم «بسيمة» وأتذكر غضبها منى، ونفورها حينما لم أحضر لها الحلوى من ميت غمر، وأخذت أستعيد الصورة بكامل خطوطها وظلالها، وأنا أجد فى ذلك راحة عجيبة. والذكريات قد تكون مصدراً للراحة مثل الأحلام حينما نفر إليها هرباً من آلام الواقع ومأساه. لكنى قلت محاولاً خداع نفسى:

«لا بد أنها الآن قد عافت الحلوى من كثرة أكلها فى الأسكندرية». وقبل أن آوى إلى فراشى، تهادى فى خاطرى سؤال: «متى تعود بسيمة؟؟ كم اشتقت إليها وإلى غضبها منى...!!».



الفصل الخامس



وكان لا بد لاستهتار عمى من نتيجة . . . نتيجة مؤلة يدفع فيها الثمن غالباً جداً، لقد جاء عمى إلى أبى وقال :

- أنت تعلم يا عبد الدائم أنه لم يبق لى غير ستة قراريط .

- نعم أعلم هذا .

- وأعتقد أن إيرادها لن يسد حاجة شخص متلاف مثلى .

- لا داعى لمثل هذا الكلام، أنت أخى ولا فرق بيننا، وسواء كان لك ستة قراريط أو أكثر أو أقل فهذا لا قيمة له عندى بالمرّة، سنظل نأكل ونشرب ونعيش معاً، ونشترك فى تحمل السراء والضراء سوياً .

فهز عمى رأسه وقال :

- أنت إنسان نبيل طيب يا عبد الدائم، لكنك صاحب عيال . ولا يمكن أن أحملك ما هو فوق طاقتك من نفقات، يكفى جداً أننى

كنت السبب فى ارتباكك المالىة وتراكم هذه الديون عليك، لكن الحمد لله فإن عزائى الوحيد أن أرضنا أصبحت فى حوزتك ولم يستول عليها غريب .

- اسكت . . . أنا أخوك الأكبر فى مقام أليك فلا تشك فى هذا .

- على أية حال انتظر حتى أتم كلامى . . . إن كرامتى وخلقى يأتیان أن أعيش عائلة عليك، عاطلاً خاملاً . . . صحيح أنا عبد ذليل للمخدرات لكن ما زال فى بقية من خير، وفضل من نخوة، يجب أن أتحرك وأبحث لى عن عمل، وأرجو أن تكمل عونك لى وتشتري منى هذه القراريط الستة، وتعطينى ثمنها دفعة واحدة؛ لأننى سأخذ هذا المبلغ وأذهب إلى القاهرة وأبحث لى عن عمل، أى عمل . . . فما رأيك فى ذلك؟؟

- هذه مغامرة وأنا مشفق عليك منها .

- لا بد أن أتحمل وأبدأ من جديد .

- يعز على ما ستقاسيه .

- سوف أذهب إلى «س . بك» نائب الدائرة، ولعله يساعدنى فى الحصول على وظيفة كتابية بسيطة، أو يستطيع تعيينى فى سلك التدريس ولو فى إحدى المدارس الأهلية، فأنا كما تعلم «راسب كفاءة» ولن يكون أمامى عقبة سوى عدم لياقتى الطبية، وريثنا لن ينسانى . . .

وسار الكلام بين أبى وعمى «فريد» على هذه الوتيرة، والذى يفسح صدره ويستجيب لمنطق العاطفة والأخوة، ويلج على عمى فى البقاء بالقرية، وعمى يصر على ما اعتزمه لأن بقاءه هكذا نوع من التنطع والعار لا يليق بالرجال، رغم أنه كان يغالب أهواءه ويكبت رغباته، فقد كان يحب قرينتا، ويكره من كل قلبه أن يفارقها، لكن لم يكن له أن يختار . .

بقيت مسألة مهمة وهى : من أين يأتى أبى بالمال اللازم لشراء الستة قراريط؟؟ أيعود أبى إلى مرسى أبو عفر يسترضيه ويستعطفه ليقرضه مبلغاً جديداً بالإضافة إلى المبلغ القديم؟؟ إن أبى لم يسدد ما عليه حتى الآن، ومرسى ما زال يوالينا بزياراته السمجة بمبرر ويلا مبرر، والضنك الذى نعيش فيه يتضخم ويزداد يوماً بعد يوم، وأبى قد أغرق الشيب سواد رأسه وأنهك من قواه، وعمى لا بد له أن يبحث عن مستقبله بعد أن أصبح فى حكم المفلس . . . هل يصم أبى أذنه هذه المرة ويترك عمى لبيع هذه القراريط لأى إنسان، ولا داعى لهذا التمسك الشديد، ولا لهذه الفقرة التى تقول : «لن ينزل أرضنا غريب»؟؟؟

لكن أبى قد تحمل الكثير وقاسى ما قاسى، فلم لا يكمل الشوط، وتحمل ما يستتبع ذلك من تكاليف . . . قالوا للقرد سيمسخونك فقال : هل سيجعلونى غزاً؟؟؟ فلن يسوء وضع أبى

أكثر مما هو عليه، وكان كثرة ما لاقاة أبى من آلام أكسبه شيئاً من المناعة والتمادى فى ما كان بصده . . . لم يكن أبى فى حاجة لأن يذهب إلى «مرسى» لأن مرسى - كما أسلفت - زيارته لنا لا تفتر أبداً . . . جاء مرسى أكثر من ذى قبل، بل ولم يحاول أن يمتنع منه ويرد عليه فى اقتضاب كما كان يحدث . ولا أظن أن مرسى قد فاته معنى ذلك، فهو رجل خبير بمثل هذه الحالة .

قال مرسى :

- لقد فرغ صبرى يا عبد الدايم، والشهر الذى كان ميعاداً لسداد المبلغ أصبح شهرين، وأنت تعلم أنه لولا العشرة والجيرة وطول المعاملة لما ترددت فى رفع الأمر للمحكمة .

لقد نسى مرسى أو تناسى أنه لم يرحم أبى من عرض القضية على المحكمة، إلا بعد أن وقع له أبى على صك بمبلغ إضافى مقابل انتظاره شهراً آخر، ورغم هذا الجشع والقسوة فهو يزعم أنه يراعى العشرة والجيرة ولم يعتد على حرمتها، لكن كان على أبى أن يغمض الطرف عن هذه الوقاحة لأنه بصدد صفقة جديدة . . . صفقة دفعته إليها الظروف دفعاً مباغتاً، وبعد فترة قال مرسى :

- يعلم الله أنى لا أمتلك مليمًا واحدًا من هذه الأموال يا عبد الدايم . . . الناس يظنون أنى أحضر هذه الأموال من بحر أو

أزرعها فى الغيط . . . ألا يعلمون أنها أموال أيتام وأرامل ، وأنى
مدين مثلكم تماماً؟؟ ما أنا إلا وسيط . . .

كان مثل هذا الكلام - لما فيه من كذب لا داعى له - يضايق أبى
أشد المضايقة ، ويشير أعصابه لدرجة كبيرة ، ويكاد يخرج عن طوره
لولا اعتصامه بالصبر . . .

واستطرد مرسى قائلاً: والناس يا عبد الدائم لا يستقر لسانهم
في فمهم دقيقة واحدة . . . دائماً أبدأ يزعمون أن معى ألوقاً مؤلفة
من الجنيهات ، وأنى سأشتري «عزبة» وعربات ركاب . . . وما كينة
طحين . . . لست أدرى ما سر هذا وأنا لم تساعدنى الظروف كى
أرى ليلة القدر ، كما أنى لم أعثر على كنز من الذهب .

كان أبى يتجرع هذا الكلام تجرعاً رغم أنفه ، وكان صامتاً لا يرد
حتى ينتهى مرسى من كلامه المكرر المحفوظ الذى لا يتغير إلا قليلاً .
وقال أبى فجأة:

- اسمع يا مرسى ، أنا فى حاجة ماسة إلى مبلغ جديد .

- من أين يا عبد الدائم؟؟ أظن أن يكون معى مال ثم آتى لأطاردك
هذه المطاردة وألح عليك فى الطلب؟؟ إنه لعيب كبير .

- تصرف كيف شئت ، المهم عندى هو إحضار المبلغ ، وسأعطيك
الربح الذى تريده ، مفهوم؟؟

- لكن أنت عالم بكل الأحوال .

- ومن أجل هذا أنا متأكد أنك تستطيع الحصول على ما أريد .

- أصل ال... .

فقاطعه أبى قائلاً: لا أصل ولا فصل... هيا بنا . سأعطيك

الجاموسة التى طلبتها مراراً، وتمنيت شراءها . فهل هذا يسرك؟؟

- ماذا تقول؟؟

- الجاموسة... الجاموسة...!! سأبيعها لك.. ألا تصدق؟؟

- وسكت مرسى حتى يستجمع شوارد فكره ويحكم خطته، ثم

قال:

- لا مانع عندي، لكن المبلغ القديم، ما الحل بالنسبة له؟

- سنضيفه على المبلغ الجديد بعد خصم ثمن الجاموسة .

- وتمحك مرسى قليلاً وحك ذقنه بكفه، ففهم أبى ما يعتمل فى

مخه فبادره قائلاً:

- وسنضيف عليه نسبة جديدة من الربح... لا تخف..

وهكذا تمت الصفقة الجديدة على هذا الوجه... ولن أحدثك

كثيراً عن أبى حينما جاء مرسى أبو عفر وأخذ الجاموسة.. كان

يبدو وكأنه فقد عزيزاً لديه، أو أن الجاموسة كانت أحد أفراد الأسرة

ثم اختطفخت اختطافاً، وكانت ليلي -ومعها محمود- يتشبثان بها أيمًا تشبث، ويقفان بباب البيت ويمنعانها من الخروج بسذاجة وبراعة، أما جدتي فقد كانت تقول لى:

- يا سليمان يا ولدى، البهائم عندها وفاء كثير، وتعرف صاحبها ويعز عليها فراقه، أما رأيت جاموستا وهى تزعق فى استغاثة وألم والدموع تنسكب من عينيها؟؟...

ولما رأت جدتي التأثير البادى على وجهى قالت: لا تحمل همًا يا بنى.. المال والبهائم فى انتقال دائم، تروح اليوم وتأتى غداً، لا بد وأن ربنا سيفرجها ونشترى أخرى وأخرى، اذهب أنت وذاكر لك درسين..

ثم ترفع عينيها إلى السماء وتمد كفيها فى ضراعة وتوسل وتقول:

- يا رب خذ بيد سليمان بن عبد الدايم ابن بطنى، واكتب له النجاح والوظائف العالية، بحق علمك بحالى..، أما أمى فلم تنطق بكلمة واحدة، وكان فى صمتها حزن بليغ، وأسف عميق؛ لأنها أثرت أن تختزن آلامها فلا تبوح بها لأحد، وهذا هو السبب فى أن آلام القلب التى كانت تعاودها من وقت لآخر قد اشتدت وطأتها فى هذه الآونة، فلم يعد يهنا لها نوم، ولا يطيب لها مطعم، حتى ازداد شحوب وجهها، وتدهورت قواها، فإذا

ذهبت للصلاة أرى سجودها وقد طال . فأحسب أنه زيادة التبتل والضراعة ، لكنه يطول لدرجة تبعث على الشك والريبة ، فأذهب لأحركها فأوجدتها فى إغماءة ، وأجرى هنا وهناك لأحضر ماء فأبلل به وجهها ، أو أبحث لها عن بصلة تشمها أو . . . أو . . . وكانت أمثال هذه الإغماءات تكاد تذهب عنى عقلى ، فأعيش ساعات طويلة أقاسى الآلام والخوف من آثارها . . . كنت أخاف أن تروح أمى ضحية هذه الإغماءات فيسقط قلبى عن موضعه ، لكن جدتى كانت تأتى فى مشيتها المتثدة ، وتقبل نحو أمى قائلة :

- بسم الله الرحمن الرحيم . . . يا هادى يا زب . . . مدد يا سيدى عيسى العراقى . . . همته يا قطب الرجال . . . ثم تحاول تحريك أمى وتذليك أطرافها ، وتتمتم ببعض التعاويذ ، وبعد قليل تحاول أمى أن تفتح عينيها فى بطاء شديد وتتساءل عما حدث ، وتتهجد بعمق ، بينما ترد إليها الروح من جديد وأشعر أن أمى قد مرت من الأزمة بسلام ، فأحمد الله من كل قلبى ، وأهرع إلى المسجد فأسجد الله شكراً ، وأطيل فى سجودى . . . ولا تمر هذه الحادثة فى كل مرة دون تعليق جدتى ، إذ توجه اللوم إلى أمى قائلة : ارحمى نفسك يا أم سليمان . . . أنت مريضة وضعيفة ، والراحة يا بنيتى لازمة لبدنك ، والدنيا لم تبْنَ فى يوم واحد . . .

ثم تمط شفيتها قائلة :

لكن من يقرأ ومن يسمع . . . ؟؟ كلامى كله ذاهب مع الريح ،
وتقول فى لهجة التأكيد . . ثم إن حمل الهموم يقصر العمر . .
اسمعى كلامى يا أم سليمان واعملى معروفًا . .



كان الناس فى ذلك الوقت يفرون من المدن ليتقوا شر الغارات
وينجو بأرواحهم ، وكثر عدد لابسى الملابس الأفرنجية فى أقاليم
مصر ، بينما أخذ عمى «فريد» يشد الرحال إلى القاهرة لا يعبأ
بموت ، ولا يهاب غارات ، لقد كان طول حياته هكذا دائماً يتسم
بغير قليل من اللامبالاة ويعتبر أن أمر الحياة أو الموت موكول
للأقدار ، ويؤمن أعمق الإيمان بالمثل الذى يقول : ليس من المكتوب
هروب . .

هل سرت فى طريق مجهول لا تعرف له معالم ، ولا تتبين له
غاية؟؟ هكذا كان شعور عمى «فريد» حينما عزم على مغادرة
قرينتا ، ففى جيبه بضع عشرات من الجنيهات هى كل ما يملكه ،
وأمامه دنيا القاهرة الواسعة الصاخبة ، ويتعشم أن يجد له مكانًا -
ولو ضيقًا- وسط هذا الزحام ، ترى ماذا يكون مصيره؟؟

هل سترحمه الأقدار فتتحقق له أمنيته ، ويرتاح ضميره؟ أم
سينفق ما معه من جنيهاات محددة فى بحثه عن العمل ، ثم يتلفت
بعد ذلك فيجد نفسه فى الشارع بلا مال ولا سكن ولا طعام؟

لكم يزعجنى هذا الحاطر المخيف، ويعكر على صفوى، لا من أجل ما سيقاسيه عمى من متاعب فى سبيل لقمة العيش، لكن من أجل شىء آخر أعرفه تمام المعرفة، فهو لن يمد يده لأحد، وسيفضل الموت جوعاً وتشرداً على الذهاب إلى أحد معارف ليبيت عنده ليلة؛ أو يتناول عنده شربة ماء...

لك الله يا عمى... فإننى أحبه رغم كل هذا لأنه طيب كريم لين الجانب معى. فأنا أعرف أن مدمنى المخدرات يحظون بقسط غير قليل من سرعة الغضب، وفحش الأخلاق، حتى إن صورتهم كانت مقترنة فى خيالى بالشوارب الكثة، والأسنان الصدئة، والعيون التى يتطاير منها الشرر، والعصى الغليظة والدم السائل...

ولن أستطيع نسيان اليوم الذى سافر فيه عمى إلى القاهرة...

فقد كنت جالساً فى الفصل، أستمع إلى مدرس اللغة العربية وهو يشرح لنا موضوعاً إنشائياً عنوانه: «صف النهضة الصناعية فى مصر»، وكان الأستاذ أثناء شرحه يحاول أن يوجه أنظارنا إلى نقطة مهمة حينما كان يقول: إن المستعمرين أفهمونا أن بلادنا أراض، زراعية فحسب، ولكن الحقيقة يا أبنائى أن مصر ذات استعداد ضخم لأن تكون مصر الصناعية أيضاً، فعندنا الحديد والبترو-

وكثير من المعادن، ومصادر الكهرباء التى هى أساس النهضة الصناعية . . . فقاطعت الأستاذ قائلاً:

ولم لا تعمل الحكومة على النهوض بالصناعات إذن؟؟ فابتسم الأستاذ، ولعله وجد أن الإجابة الصريحة عن هذا السؤال قد تجر عليه ما هو غنى عنه من متاعب فقال:

- إن شاء الله سيأتى اليوم الذى يتحقق فيه ذلك . . والبركة فى همتكم يا شباب المستقبل . . .

وهممت بالكلام مرة أخرى، لكن «المشرف» قرع باب الفصل قرعات خفيفة وقال:

- سليمان عبد الدايم . .

- نعم . . .

- تعال كلم حضرة الناظر . . .

وذهبت إلى حضرة الناظر لأرى عمى فى الانتظار ومعه بعض أصدقائه الذين جاءوا لتوديعه عند المحطة . . . لقد أراد عمى «فريد» أن يرانى قبل أن يرحل إلى القاهرة.

- لا أحد يعلم يا سليمان هل سترانى بعد ذلك أم لا . هذا ما قاله حينما انتحى بى جانباً، وأخذ يكرر على سمعى نصائحه والدمع يترقرق فى عينيه، واصل حديثه قائلاً: هذا العام ستنال

الشهادة الابتدائية، وفي العام المقبل إن شاء الله ستكون في الثانوى... ستصير رجلاً، وأنت تعرف معنى الرجولة... أعنى أنك ستكون ذا مسئولية أكبر، وأتعشم أن تكون أسعد حظاً منى، وأقوم سبيلاً، ولتهتم بدروسك أولاً وآخرأ، ودع المظاهر الكاذبة، وابتعد عن الشر، ولى رجاء يا سليمان وهو أن توافينى بخطاباتك دائماً.

وهممت أن أسأله عن العنوان، لكنى أدركت أن عمى على باب الكريم ولا يعرف له مستقراً حتى الآن، فاختنق السؤال بين شفتى. وانحنى عمى وقبل رأسى فى حنان وعاطفة جياشة، ولما صافحنى أراد ألا يتركنى وأنا مبهوت شاحب اللون. فقال مداعباً:
- أما زالت أناملك تتسخ من أثر الخبر؟؟ لم تعد صغيراً يا سليمان. على كل حال أنا أعلم السبب، وبذلك سوف أرسل لك قريباً قلم حبر نظيفاً جميلاً على شرط أن تكون من الناجحين، ومن المتقدمين أيضاً.

وقبل أن يمضى لحال سبيله أسقط قطعة فضية من ذات الخمسة قروش فى جيبي، ولم يجد كلامى أذنأ مصغية منه حينما هممت بردها. ومضى عمى، ووقفت مبهورتاً لعدة لحظات، وسمعت الناظر ينقر على المنضدة ويقول:

- سليمان عبد الدايم... إلى الفصل.

وما إن غادرت حجرة الناظر حتى فقدت السيطرة على أعصابي، فقد تدفقت دموعي دون أن أستطيع لها حبساً، وصدر عني بالرغم مني نسيج مكبوت أخذ كياني ينتفض له انتفاضاً، فقصدت من فوري إلى دورة المياه، وكانت خالية نظراً لأن الوقت وقت دراسة، وأطلقت لنفسى العنان، فانهمرت دموعي ما شاء لها أن تنهمر، وكنت أحس أن قلبي -وليس عيني- وحدهما -هو الآخر يكاد ينفطر، وكلما هممت بغسل وجهي بالماء وأوشكت أن أنتهى تذكرته وهو يقول: «لا أحد يعلم يا سليمان هل ستراني بعد ذلك أم لا»، فأعود إلى البكاء من جديد حتى أشفقت أن يكتشف أمرى، فغسلت وجهي للمرة الأخيرة، واندفعت صوب السلم قاصداً الفصل، وأثناء صعودي فلتت من عيني دمعة أخرى، لكنى سارعت وجففتها بكفى لأنى لم يكن معى منديل، واستأذنت ودخلت، وحاولت ألا أنظر إلى المدرس حتى لا يعلم ما بى، لكن عينه الفاحصة لم يغب عنها احتقان جفونى وانتفاخها، ومسحة الحزن التى بدت واضحة على وضوحاً تاماً، فقال:

- ماذا بك يا سليمان؟؟

فوقفت احتراماً للمدرس وأنا أركز بصرى فيما تحت قدمى، ويظهر أنى كنت على وشك الانهيار مرة أخرى، لكن المدرس سارع وأمرنى بالجلوس، ثم واصل شرح الدرس.

عدت إلى البيت في آخر اليوم، والقطعة الفضية ذات الخمسة قروش التي أعطانيها عمى ما زالت تسكن جيبى، وكلما لمستها انتابتنى رجفة شديدة، وتذكرت عمى التعس الحظ، وأخذ ضميرى يلهبني بسياطه المعهود، إذ كنت أحس أن عمى فى ميسس الحاجة لكل قرش فى جيبه، وخيل إلى أنى قاس وغد لا وفاء لى، والشعور بالإثم أخذ يلح على حتى فكرت فى أن أقذف بالقروش الخمسة فى إحدى الترع التى تمر عليها، لكن عز على ذلك . . . وما إن وصلت دارنا حتى وجدتها وكأنها فى ماتم، وجو الكآبة مخيم على أركانها، ووجدت جدتى لأول مرة، وقد غاض مرحها وثباتها وانهمرت دموعها، وأبى يجلس غارب النظرات، وأمى كعادتها تشكو من آلام قلبها، فقذفت بالقطعة الفضية فى حجر أمى ولم أنطق بكلمة . . .

وكان «سعيد حافظ» طوال الوقت يحاول تسليتى والترفيه عنى، وإن كنت قد فقدت عمى اليوم إلى وقت قد يطول، فهو قد فقد أخته بسيمة بالأمس، والمصائب يجمعن المصابين.



وفى اليوم التالى بينما كنت أنا وسعيد حافظ ننحدر ناحية المدرسة لمحننا رجلاً كبير السن يدفع أمامه «عربة يد» وعليها خليط من الكتب والمجلات والصحف القديمة، وروايات الجيب، وكان الرجل يدلل

على بضاعته ويذكر الأثمان الزهيدة لها، فدفعنا حب الاستطلاع لأن نلقى نظرة على ما عنده، ووقع فى يد سعيد كتيب صغير كتبه أحد المحامين عن حوادث دنشواى ومأساتها الدامية، وأبدى سعيد رغبة فى شراء هذا الكتيب، لكن المشكلة كانت فى الحصول على الثمن، فقال سعيد: «ليس معى غير ثلاثة مليمات». فقال الرجل: «سأقدم لك خدمة بإعطائك الكتاب مقابل نصف قرش».

ولمحت الحزن على وجه سعيد فبادرت قائلاً:

- من حسن الحظ أن معى مليمين، وبهذا نستطيع أن نشتره.

فطرب سعيد لهذه الفكرة ونال الكتاب.

كان سعيد يميل دائماً لقراءة هذا النوع من الكتب، وذلك راجع لتوجيه أبيه الذى لا يكل ولا يمل من النقاش فى السياسة، وراجع أيضاً إلى ماضى جده الضابط الذى قاسى الأمرين، ولاقى الأهوال فى هذا السبيل . . .

ولم يدخل فى حسابانى أن هذا الكتيب سيكون له قصة طريفة، تلقى ضوءاً على خواطر سعيد وأفكاره وعاطفته التى تلتهب فى خناياه . . .

دخل مدرس الصحة فهب الطلبة وقوفاً إلا سعيد، لكن المدرس لم يلحظ ذلك فمر الموضوع بسلام، وأثناء الدرس كان المدرس

يرسم صورة مبسطة لقلب الإنسان، ويوضح الرسم بالألوان حتى نستطيع تمييز الشرايين من الأوردة، وعقدت الدهشة لسان المدرس حينما سمع أننا خائفًا، فأخذ يتفحصنا ويجرى نظراته بين وجوهنا، في حين أننا بدورنا تلفتنا هنا وهناك، فرأى المدرس «سعيد» وهو منزو في المقعد الخلفي، كمن يختبئ خلف القمطر، ورأسه قد قارب فخذيه، بينما أمسكت يده بشيء غير ظاهر لنا، وخطا المدرس خطوات ناحية سعيد، وحاول أن يرى ما بيديه، لكنه سارع وأخفاه في القمطر، ويظهر أن «سعيد» فاق إلى نفسه، وكف عن البكاء، فمد المدرس يده في عصبية إلى داخل القمطر، فأمسك الكتيب نفسه الذي اشتريناه اليوم، والذي يحكى عن حوادث دنشواي وتبسم المدرس لقد تصفح الكتاب وفهم كل شيء

لقد انهمك سعيد في قراءة الكتاب وغاب عن كل ما حوله، وأخذ يستطرد في قراءة القصة، ويعيش فيها بروحه وقلبه منذ أن ذهب الجنديان الإنجليزيان لصيد الحمام، ثم إحراق القمح الذي بذل الفلاح من أجله طول العام غافيته وقواه، وحادثة قتل المرأة التي كانت عند القمح المتكوم، وخروج أفواج الأهالي ثائرين محتجين، وموت أحد الجنديين من شدة الحرارة وإلحاح المطاردين في طلبه، ثم يوم الانتقام يوم النار الأحمر حينما نصبت المشائق في عرض الطريق، وتدلى على أعوادها الأبرياء من أبناء دنشواي

وزهران البطل الشهيد الذى كان مضرب الأمثال فى شجاعته،
وحوادث الجلد بالسياط، دون احترام لأدمية، أو توقير
لإنسانية... وأخيراً أولئك الذين قذفوا بهم داخل السجون ظلماً
وعدواناً...

قرأ سعيد هذه التفاصيل، فألهبت مشاعره، وهزتها هزاً
شديداً، وجسم له الوهم الدماء المراقبة، والظهور التى مزقتها
السياط، والحزن الشديد الذى هبط على القرية - قرية دنشواى
البائسة - وبكاء الأطفال وصراخ النساء، فلم يتمالك سعيد نفسه
فبكى، وتصاعدت منه الأنات التى سمعها مدرس الصحة، والتى
قابلناها نحن بالدهشة والعجب؛ لأن ذلك لم يسبق له وجود فى
فصلنا.

لم يعاقب المدرس «سعيد» من أجل انصرافه عن درس الصحة،
بل إن المدرس نفسه ترك القلب والأوعية والشرابين ولم يكمل
رسمها ولا شرحها، وأخذ يحدثنا باستفاضة عن يوم دنشواى،
وعن تعسف الإنجليز، وصيحات مصطفى كامل، وتحرك الضمير
العالمى لهذا الظلم الفادح، وسيطرت علينا - نحن الطلبة - الرهبة
والخشوع فاستمعنا وكأن على رؤوسنا الطير لتلك الحقبة من تاريخ
بلادنا، لا لأننا سنمتحن فيها آخر العام. ولكن لما هو أسمى من
ذلك وأكبر...

وصلصل الجرس معلناً انتهاء درس الصحة، أو بمعنى أصح درس التاريخ الوطني، ولم يخرج المدرس من الفصل إلا بعد أن أثنى على وطنية سعيد، وشجعه على قراءة أمثال هذه الكتب حتى يلم إلاماً كافياً الصراع العنيف بين شعبنا وبين الاستعمار.

وفى أثناء العودة إلى البيت قلت:

- لقد أحججلتني يا سعيد... أتبكي هكذا وتدع الطلبة يتغامزون عليك؟

- حدث هذا بالرغم مني يا سليمان.. لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء.

- هل أحزنك أمر زهران لهذه الدرجة؟

- الإنجليز مجرمون... مجرمون جداً يا سليمان.. ليس في قلوبهم رحمة ولا يعرفون عدلاً.

- إن الله قد سلط عليهم من هو أقوى منهم.

- أتعني هتلر؟

- نعم.

- لكن لن يقر قرارى إلا إذا ثارت منهم بنفسى..

- هذا مجرد حماس... لقد كنت تخاف منهم فى ميت غمر ولا تجرؤ على النظر إليهم...

- لم أعد أخافهم منذ اليوم.
 - هل انقلبت بين عشية وضحاها إلى عترة بن شداد.
 - لا تهزأ بي يا سليمان.
 - آسف . . . هات هذا الكتاب لأنني سأقرأه مثلك.
 - لا، لن تأخذه.
 - وله؟ لأنني دفعت فيه مليمين.
 - ولو! سأقره مرة أخرى. وبعد ذلك سأعطيه لك.
- ودلف سعيد إلى بيته، وحقيبته في يمينه مكتظة بالكتب والكراسات، أما كتاب «دنشواي» فقد أمسك به في شماله، قابضاً عليه بقوة كمن يخاف أن يختطفه أحد منه . . .



الفصل السادس



مر شهران على سفر عمى إلى القاهرة . . .

وفى صبيحة يوم جاء «الفرآش» ثم قدم خطاباً إلى المدرس، وانصرف . . . وجالت عينا المدرس فى الفصل حتى وقعتا على، ثم قدم الخطاب لى، وشعرت حينذاك بكثير من الزهو والسرور، فهذه أول مرة أتسلم فيها خطاباً باسمى . . . إذا فقد أصبحت ذا أهمية بحيث تصلنى خطابات خاصة، وأحسست أن زملائي الطلبة يحسدوننى على هذه المنزلة . .

ولم يكن من المستطاع أن أفتح الخطاب وأقرأه أثناء الدرس، لذلك دسسته فى جيبي وأنا أنتظر انتهاء الحصّة بفارغ الصبر، وكأني جالس على الجمر . . . والحقيقة أنى كنت فى عالم آخر بعيد كل البعد عن الدرس، أضع يدي من آن لآخر فى جيبي كى أتحمس الخطاب، وأنتشى ملمسه الناعم الحبيب، وأخالس المدرس فأخرجه من جيبي بسرعة ثم أدقق النظر فى اسمى والفخر يملك

على أقطار نفسى . «سليمان أفندى عبد الدائم» يا لها من سعادة كبيرة . . ولم يكن لدى أدنى شك فى أن هذا الخطاب من عمى . انتهت الحصة ، ففضضت الغلاف وأخذت فى القراءة :

«ها أنا فى القاهرة منذ شهرين رأيت فيها الكثير . وتعلمت الكثير . ولا تعجب حينما أقول لك ذلك . . . فالإنسان يظل دائماً فى حاجة إلى الكشف عن أسرار الحياة ، وكلما تبدت لى عن وجه من وجوهها وحسبت أنى بلغت الغاية ، كشفت لى عن وجه آخر أكثر غرابة ، وأشد امتلاء بالحقائق والأسرار . الناس هنا يا سليمان فى سباق مجنون ، وفى صراع فظيع ، إنهم يشبهون إلى حد كبير وحوشاً فى غابة لا بشراً ذوى حضارات ومدنيات . . . وحمى الحرب قد دفعتهم إلى الهذيان والانحراف والجشع ، وكان أخرى بهم يا بنى أن يأخذوا العبرة من فظائع الوقائع . وألوان الموت والدماء . . .

وغول الغلاء يطل بوجهه الكالغ المخيف فى كل مكان ، تراه يبدو فى أسمال المشردين والعاطلين ، وتبصره فى الأزقة والشوارع ، ولا تخطئه فى المستشفيات والميادين العامة . . . الجميع فى ذعر من المستقبل ، يشفقون على أنفسهم من الغد كل الإشفاق . والمصالح الشخصية هى المقياس أو المعيار الذى على أساسه تقوم المعاملات والعلاقات . . . ولا تعجب من ذلك يا بنى . فالحرب

التي اشتعلت فى العالم كله لم تقم إلا من أجل هذا . . . أعنى السباق على المطامع ، والعمل على الاستعمار والاستغلال . .

قد يكون هذا الكلام غامضاً عليك بعض الغموض . وقد تحسب أن فى ذلك ضرباً من المبالغة ؛ لأن ما ارتسم فى خيالك عن القاهرة وجمالها وآثارها وحكامها شيء غير ما أخبرك به الآن . ولكن صدقنى . . . فهذه هى الحقيقة :

احتكار . . . جشع . . . مادية طاغية . . . أنانية . . . انحلال .
والحرب والاستعمار هما أساس ذلك كله .

والإنجليز هنا فى كل مكان . . سكارى لا يكادون يستطيعون الوقوف على أقدامهم . . . لست أدرى هل يحدث ذلك هرباً من دنيا الواقع وآلام الحرب ، أم إمعاناً فى الاستهتار وعدم الاكتراث . . . ؟؟

والإنجليز - رغم ما فى المدينة من جوع ويؤس - ينعمون بالغذاء الجيد والتزهات الطيبة والمال الوفير ؛ لأن مصر - كما يظهر - بلد كريم جداً . . . حتى مع الغاضبين . . .

لكن لماذا أستطرد هكذا فى حديثى لك عن الحرب والناس ؟؟ . . هل أفعل ذلك لكى أحملك عبئاً بالإضافة إلى أعبائك . . . ؟؟ معذرة يا بنى ، فأننا لم أكن أستعذب الكلام عن مثل هذه الموضوعات فيما مضى ، لكنى وجدت نفسى مدفوعاً هذه

المرّة؛ لأن ما أسجله لك هنا أصطدم به حيثما ذهبت فيشير في نفسي الشيء الكثير، فلا مفر من أن أتخفف مما يثقل ذهني بالحديث إليك فيه، لعلّي أشعر بقليل من الراحة والعزاء...

أما من ناحية موضوعي الخاص، فقد ذهبت إلى نائب دائرتنا (س. بك) فقابلني بابتسامة حلوة، فتحت أمامي طريق الأمل، ويددت ما بنفسى من ظلام الشكوك والخوف، ووعدنى بمقابلته مرة ثانية...

وتكرر التأجيل... وتكررت المقابلات دون أن أحصل على بغيتى أو أعشر على أى عمل أرتزق منه... ولقد همس أحد المتصلين به اتصالاً وثيقاً فى أذنى قائلاً:

- أليس معك ثلاثون جنيهاً...؟

- كلا، ليس معى إلا ما يكفينى شهرين على الأكثر.

- ولا خمسة وعشرون...؟؟

- لقد أخبرت سيادة «البك» بحقيقة حالى... وهو يعلم ظروفى تمام العلم...

فهز الرجل كتفيه فى ازدراء وقال:

- يظهر أنك لا تريد أن تنجز أعمالك وتنتهى شغلك... على أى حال أنت حر... وتركنى ومضى.

لقد استبعدت فى بادئ الأمر أن يكون (س . بك) وأعوانه تجاراً على هذه الصورة . . . لم أكن أظن أنه سيطلب منى رشوة جزاء ما يقدم لى من خدمة . . . لم يسألنى عن مؤهلاتى ، ولا عن مدى كفاءتى ، لكنه أراد أن يطمئن أولاً على «المبلغ» الذى فى جيبى . . .

لقد كنت ساذجاً حينما صدقت نائب الدائرة أثناء المعركة الانتخابية الماضية وهو يتحدث عن الشعب والشرف والحرية والوطنية و . . . إلخ . هذه المترادفات الطنانة المطاطة التى أصبحت تجارة رخيصة سمجة ، وسلعاً مذكوقة لا تقدم إلا للبسطاء والمخدوعين من أمثالنا . . .

وذهبت إلى «مفتش قموين» يمت بصلة لأحد معارفى - لكن للأسف وجدته مشغولاً عنى بعقد صفقات مريبة ، ولا يكاد يخلو دقيقة واحدة من أعماله ، ومع ذلك فقد كان أحسن قليلاً من نائبنا «المحترم» ووعدنى جاداً بالبحث عن عمل لى ، وهانذا أنتظر . . . ولدى سليمان . . .

لم أكن أظن أن الحياة ستناصبني العداء على هذه الصورة ، ولو علمت أنى سألقى نصف ما لاقيت لما ترددت لحظة واحدة فى أن أجبر نفسى على السير العاقل المنتظم وإلا لكان الموت أروح لى من هذه الحياة ، أما ما مضى فلن يرجع ثانية ، فلا مناص من أن أصبر ، وأدعو الله أن يوفقنى هذه المرة . . .

وأعرفك يا سليمان أنى لم أعد أتعاطى شيئاً على الإطلاق من الحشيش أو الأفيون، وقد تعجب من ذلك . . والحقيقة أنى أشد منك عجباً ؛ لأن هذه المخدرات داء عضال ليس من الميسور التخلص عنها بسهولة . . . لم يبقَ معى غير خمسة وعشرين جنيهاً، لن تبقى فى جيبي طويلاً، وليس من المعقول أن أنفقها على المخدرات وعلى الكماليات التافهة . . . حقاً يا سليمان إن الأحداث والمآسى تعلم الإنسان الشئ الكثير، وإنى لأذكرك بالالتفات إلى دروسك والاهتمام بها، مع تبليغ تحياتى إلى والدك ووالدتك وإخوتك والست والدتى حفظها الله

«عمى»



ومرت مدة أخرى ليست بالقصيرة انقطع فيها عمى عن مراسلتنا، ولعله أثر ألا يزعجنا بأنبائه التى لا تسر، فحاول أن ينطوى على نفسه، وينكب على آلامه يجترها كئيباً حزيناً فى غربته القاسية . . .

لكن مع هذا كانت تصلنا عنه أخبار مبتورة أو مشوهة فى فترات متباعدة، فقد جاء أحد زوار القاهرة وزعم أنه رأى عمى يحمل على رأسه لوحاً خشبياً قد تراصت عليه بضع عشرات من الأرغفة، وآخر جاء وقال : إنه رأى عمى بعينى رأسه يحمل الأخشاب

اللازمة لعمليات البناء تحت إمارة أحد المقاولين، وكانت ثيابه متسخة ممزقة ولحيته مهملة منفرة... وكانت هذه الأنباء تبعث الأسى العميق فى نفسى وتترك جروحاً غائرة فى قلبى... إنها صورة تعسة حقاً أن يحيا عمى هذه الحياة النكدية، وهو الذى يحفظ القرآن ويحفظ العلم، وكل ذنبه أنه أخطأ السير فى أول حياته، وحرّم اللياقة الطيبة ولم يوفق إلى العثور على الوساطة التى تأخذ بيده إلى حياة الدعة والاستقرار التى ينشدها.

يا للمصيبة...!! أشتغل عمى ببيع الخبز أو نقل مهمات البناء...؟؟؟

صحيح أن هذا أشرف من التذلل وإراقة ماء الوجه على الأعتاب، لكن هذا كثير... كثير جداً..

وكلما سمعت هذه الأنباء أويت إلى ركن قصى كما هى عادتى وتركت دموعى تنهمر على سجيّتها، والدموع سلاح العاجزين، وهل لى أن أعمل غير ذلك؟؟ لو كان ييدى الأمر لفعلت الكثير...

أما جدتى التى ساءت صحتها، فقد كانت أجدر بالعطف والرثاء...

كانت تقول لأبى:

- يا عبد الدائم، ألا تسافر لمصر وتطمئن على أخيك؟

- أنا لا أعرف له أراضى يا أمى . . . وهو حتى الآن لم يخبرنا عن عنوانه .

- أخوك منك وأنت منه يا ولدى .

- عيني لك وله يا أمى وأنت تعلمين ذلك . . لقد ألححت عليه أن يبقى معنا، ورزقى ورزقه على الله، لكنه ركب رأسه .

- هل صحيح أنه يرتزق من بيع الخبز، ويشغل مع عمال الأجر اليومى؟

فلا يجيب والدى «بنعم» أو «لا»، بينما تبكى جدتى وهى تقول:

- أخاف أن أموت يا عبد الدائم دون أن أرى «فريد» المسكين وأطمئن عليه . . .

- اتركى الأمر لله . . . أطال الله عمرك . . . لا تحملى همًا أبدًا . .

- قلبى يا ولدى مجروح من أجله .

- غدًا يصير موظفًا، وكل شيء يا أمى متعب فى أوله، والحرب هى سبب وقف الحال . .

- يا رب علمك بحالى يكفى عن سؤالى . . .



كانت أخبار الحرب قد تحولت تحولاً كبيراً، ورجحت كفة إنجلترا وحلفائها، وأخذت جيوش المحور تتراجع مخلفة وراءها أكداً من الخسائر في الأرواح والذخائر، وكانت معركة «ستالينجراد» بين الروس وألمانيا، والتي جاهدت فيها الأولى جهاد المستميت حتى دحرت الثانية- كانت هذه المعركة ذات أثر فعال في رجحان كفة الحرب . . .

أجل، لقد توالى الهزائم على هتلر، وتدفق العون الأمريكي على أوروبا، فأنعش اقتصادياتها، وعالج مشاكل الجوع والبطالة لحد ما، وأخذت فرنسا- التي كانت هزيمتها سبة على مر الأجيال- تسترد أنفاسها وتحرك من جديد لتمحو وصمتها، متخذة نقطة انطلاقها في شمال إفريقيا، وكان الإنجليز يبذلون الوعود للأمم المستعبدة والمستعمرة، ويعاهدونها على إعطائها الحرية والاستقلال ثمناً لما يضحى به أبنائها ضد النازية، وتقديراً لما قدموه للإنجليز من عون في الرجال والمواد الخام والمؤن.

ويبدو أن الشيخ «حافظ شيخا» قد ساءت هذه الأنباء، وأقلقت باله أشد القلق، فهو لم يكن يتصور أن هتلر سيهزم، وأن هذه الدول المتحالفة التي دمرت ومزقت شر ممزق ستقف على قدميها من جديد، وكان «الشيخ حافظ» يحاول انتحال الأسباب والمعاذير كي يعلل بها تراجع هتلر، ويحاول أن يعطيه صورة المكر والدهاء

والعسكرية العسكرية، لأن الحرب خدعة، لذلك كان الشيخ حافظ يتتبع انتصار الألمان في إحدى الوقائع، واستردادهم لبعض الأماكن، فيملأ القرية دعاوات وإشاعات عن بداية الاكتساح الألماني الجديد الذي لن يترك الإنجليز أو الأمريكيان يعرفون لهم رأساً من رجلين... لكن كثيراً ما كان يخيب ظن الشيخ حافظ، إذ تواصل القوات المتحالفة تقدمها، بينما ينحسر ظل الألمان عن مناطق مهمة واسعة...

وجلس الشيخ حافظ في أحد الأيام مع أصحابه، وكان يحاول أن يفلسف الأوضاع التي بلغت الحرب، ويحاول كعادته دائماً أن يضيف على هتلر ألواناً من المديح والثناء الذي ينتزع الإعجاب والتوفير. قال الشيخ حافظ:

- صحيح أن هتلر قد تفهقر في روسيا، لكن لا تنسوا أن الطبيعة هي التي أرغمته على ذلك، لقد كان فصل الشتاء قاسياً جداً على الجنود... كل شيء كان متجمداً حتى زيت الدبابات والطائرات، وحتى الدم في سرايين الجنود..

- عجباً، أمن الممكن أن يحدث هذا؟

- ولم لا؟

فرد عليه آخر وقال:

- والروس؟؟ ألم يكونوا بدورهم يحاربون فى هذا الزمهرير؟
- لكن هذه بلادهم يا صديقى، وقد تعودوا على جوها.. أضف إلى ذلك أن بلاد الروس واسعة جداً.. وبدلاً من أن يقيموا المتاريس من الحجر والحديد، كانوا يقيمونها من الأجساد البشرية... إن الأمة الروسية عدد الحصى والرمل.. كان الله فى عون هتلر.. إنهم لا يحاربون فى روسيا آدميين، بل يحاربون وحوشاً لا تهتم بالموت أو الحياة..
- لكن أعتقد أن يعود هتلر لغزو ستالينجراد؟
- ولم لا؟ أن هتلر رجل حديدى العزم، ولن يتراجع أو يتوانى عما يسميه «العالم الاستعماري» إذ لا بد من القضاء عليه..
- إنى أشك فى ذلك يا شيخ حافظ..
- لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. لم الشك؟ لقد ابتدأ الحلفاء فى التقدم بعد أن ابتلوا بالهزائم النكراء فى السنوات الماضية، ويعثت فرنسا من جديد بعد أن سحقته سحقاً، فهل تستكثر على ألمانيا العظيمة أن تفقد بعض المواقع؟؟ أنسيت أن هذه البقاع كانت ألمانيا قد احتلتها فى فترة صغيرة بعد أن اجتاحتها كالعاصفة؟؟
- أمريكا وروسيا قد تركتا أثراً كبيراً فى خط سير الحرب، وموارد

أمريكا كثيرة بينما ألمانيا أصبح واضحاً أنها تقاسى الأهوال فى الحصول على المواد الأولية.

- يا ناس... يا عالم...!!! ألا تفكرون قليلاً بعقولكم؟.. كل هذه دعاية إنجليزية قذرة، وهتلر عنده ما يكفية سنوات طويلة... ألم تسمعوا عن مخزن ١٣؟ إن هتلر رجل رحيم شفوق لا يريد أن يسحق أوروبا بل يمهلهم لعلهم يعودون إلى رشدهم، فإذا ما تمادوا وأصروا على حماقتهم فسيضع مخزن ١٣ النهاية المفجعة لهذه الحرب... إن هتلر يريد أن يحكم شعوباً ودولاً بعد الحرب لا أنقاضاً وخرابات... أليس كذلك؟؟

فرد زميل آخر وقال:

- كلنا يتمنى انتصار هتلر يا شيخ حافظ فلا تثر، لكننا قلقون من جراء هذا التفهقر.

- حسناً! هناك شىء آخر، فهل سمعتم عنه؟

- ما هو؟

- القنبلة الذرية.. هذه القنبلة لو قذفت على لندن لمحتها من الوجود محوياً، وما تركت إنساناً أو حيواناً أو نباتاً، فلو ضاقت السبل بهتلر لأطلقها وأراح نفسه، وأنهى الحرب...

- ولم لا يطلقها ويخلصنا؟

- لأنه رجل رحيم .

- وهل فى الحرب رحمة يا شيخ حافظ؟؟ إن المذابح لا تجف دماؤها مساء صباح ، والمجازر البشرية فى كل مكان ، فكيف تتحدث عن الرحمة؟

وضاق الشيخ حافظ ذرعاً بمناقشاتهم هذه المرة ، والحقيقة أنهم كانوا يتمنون من صميم قلوبهم انتصار هتلر ، لكنهم كانوا مشفقين من هذا الاندحار ، كان حديثهم ينبئ عن قلق زائد ، غير أن الشيخ حافظ لم يكن يريد لهم أن يحملوا أدنى شك فى انتصار هتلر ، بل يجعلوا هذا النصر أمراً مؤكداً لا يحتمل ريباً ولا شبهة رغم أنه فى قرارة نفسه كان يشعر بالتوجس نفسه والخوف على مصير هتلر ، لذلك تنحنح وهز رأسه ، شأن الحكيم العالم بمجريات الحوادث وقال :

- فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد .

ولكن خضرة تقف دائماً للشيخ حافظ بالمرصاد ، وتقطع عليه لذته كلما حمى وطيس المناقشة السياسية ، وصال فيه وجال ، ويبدو أن الشيخ حافظ كان يظن أن خضرة لا تناصبه العداء إلا لأنها تكره هتلر ، وما دامت تكرهه فلا بد أنها تحب أعداءه - أى الحلفاء - والحكمة الأمريكية تقول : «ومن ليس معنا فهو علينا» . ولذلك كان

الشيخ حافظ ينظر لزوجته وكأنها متهمة بالخيانة العظمى لهتلر
ولكفاحه العظيم، وما إن برزت خضرة على مجلس الشيخ حافظ
حتى صاحت قائلة :

- ألف ألف مصيبة تأخذ هتلر ومن معه . . . قم يا رجل الزباين
واقفين من ساعة . . . قم اعمل لك عمل تأكل منه لقمة عيش .

- كفى عن هذا الكلام الفارغ وإلا قمت وأعطيتك درساً في
الأدب . للخلف در، وهيا إلى المنزل، ما شأنك أنت وهتلر؟ .

فوضعت خضرة يدها على خدها، وأمالت وجهها وهي تنظر
نظرات ساخرة مغيظة وقالت :

- أليس هتلر هو الذى أسقط القنابل على السيد البدوى؟ ولولا
سره البائع وكراماته لكان المسجد والمقام العالى خرابة يعيش فيها
اليوم . ومع ذلك تقول هتلر فى قلبه رحمة . . . هتلر يحب
الإسلام . . . هتلر رجل والرجال قليل؟؟ قم يا شيخ وبع
منديلين . . .

فقهقه الجالسون وعلا تصفيقهم وضجيجهم لكلام خضرة
المفحم، وقال واحد منهم :

- يظهر يا شيخ حافظ أن زوجتك لا تقل عنك قوة حجة، وسلامة
منطق، إن لم تفقك فى ذلك .

- لا تعجب من طول لسانها، إن آخر شيء يكف عن الحركة فى الرجل قلبه، وفى المرأة لسانها، أليس كذلك؟؟
- لا، بل إن ابن الأوزة عوام.
- أجل، ابنها وليس زوجها.

فتضاحكوا من جديد، بينما هم الشيخ حافظ بمغادرة المكان، ولم ينس أن يجمع أوراق الجريدة بعناية، ويطويها ويمسكها بيده، ثم يمشى فى الشارع ويطوح بها أمامًا وخلفًا قاصدًا منزله، حتى يقدم للزبائن ما يحتاجون إليه من بضائع.



قلت لأمى ونحن نتحدث أثناء الطعام عن الشيخ حافظ وعراكه مع زوجته :

- ألم يأت خبر عن «بسيمة»؟

- «الحوالة» الشهيرة هى التى كانت الصلة الوحيدة بينها وبين أبيها، لكنها انقطعت هذا الشهر لسبب لا يعلمه أحد، وهذا هو السبب فى الخلاف الذى وقع أمس بين حافظ وزوجته.

- ولم لا يستفسرون عنها بخطاب مستعجل؟

- أرسل أبوها خطابًا لكن لم يأت بتيجة.

- ما معنى ذلك؟

- لا أحد يعلم، ومن أجل هذا فأمها المسكينة تبكى دائماً، وجعلت حياة الشيخ حافظ نكدًا في نكد.

- شيء يحير.

- على كل حال الشيخ حافظ يبدو أنه مستعد للسفر بنفسه إلى الإسكندرية، وفي نيته أن يحضر بسيمة إلى هنا.

وكان كلام أمي مفهوماً لدى، فقد لاحظت أن حالة الشيخ حافظ أخذت في الانتعاش، واتسع محيط تجارته لحد ما، فكثرت زبائنه ولم يعد يكثر من التغيب عن محل عمله، والظاهر أن فراقه لابنته قد آله، لدرجة أن عمد إلى زيادة البذل من مجهودة، ومضاعفة نشاطه، حتى يشتري راحة باله، ويحافظ على كرامة بيته برجوع ابنته إليه، وخصوصاً أن غيبة بسيمة قد تركت ظلاً كثيفاً في نفس الأسرة كلها، وجعلتها تشعر بالضعة والهوان.

انعكس هذا الانتعاش المالي على صديقي سعيد حافظ فقد أصبح في استطاعته أن يأتي للمدرسة كل يوم ومعه نصف قرش - خمسة مليعات كاملة يستطيع أن يشتري بها الترمس والخروب أو بعض الكتب التاريخية القديمة. لهذا اعتزم الشيخ حافظ أن يتوجه إلى حيث توجد ابنته ويعود بها سريعاً، لكنه أثر أن يرسل خطاباً

ثانياً إلى تلك المرأة التي كانت هي الصلة بين الشيخ حافظ وثرى الحزب الذى تخدم بسيمة فى بيته ، وأخبرها فيه أنه سيصل إليها قريباً ، لكن مما أدهش الشيخ حافظ أنها هي الأخرى لم تبعث إليه برد ، وعلمت من أمى أن آخر خطاب من بسيمة كان مرفقاً به صورة لها ، وهي تحمل طفلاً صغيراً لزوجة مخدومها ، وتبتسم له وهي تقدم له أصبع موز ، لكن الشيخ حافظ رأى ألا تبيع زوجته رؤية هذه الصورة لأحد ، وكأنها وثيقة للمذلة والعار يجب أن تدفن إلى آخر العمر فى قرار سحيق ، ولكنى قررت أن أرى هذه الصورة بأية وسيلة ، وأخذت أعمل فكرى وأقلب الأمر ، لكنى تبينت أن أم بسيمة لن ترينها ، وليس من المعقول أن أطلبها أنا من سعيد ففى ذلك جرح لكرامته ، وعدم لياقة وكياسة منى . . .

وكدت أياس لولا أن عمه بسيمة - تلك العانس التى أشرت إليها سابقاً - طلبتنى فى أمر خاص ، ولم يكن هذا الأمر الخاص بالشئ الذى يخفى على ، فقد تعودت أن أحضر لها من القرية التى توجد فيها مدرستنا بعض المشتريات التى لا تيسر فى قريتنا ، كزجاجات العطر وأنواع الكحل الممتاز و . . . و . . . إلى مثل هذه الأشياء مما تحتاج إليه النساء ؛ نظراً لأن أخت الشيخ حافظ كانت حريصة دائماً أن تبدو فى أحسن زينة وأنق منظر ، لعل ذلك يسوق إليها ابن الحلال الذى يتشلها إلى بيت الزوجية . . .

ولم تكن تأتمن «سعيد حافظ» على شراء مثل هذه الأشياء؛ لأن سعيد فى نظرها متلاف ومماطل، ولأنها كانت تشتري هذه الأشياء خفية حتى لا تعرفها خضرة، إذ كثيراً ما كان ينشب بينهما العراك لأتفه الأسباب، قالت لى أخت الشيخ حافظ :

- اسمع يا سليمان . . . أنا محتاجة إلى علبة ورنيش أسمر لأن السوق بعد غد وسأذهب إليها، وأريد خيط حرير أخضر، وخرزاً بثلاثة قروش .

ووثبت إلى ذهنى فكرة أطلقها شيطانى، وأوعز إلى أن أحسن استغلال هذا الموضوع، فقلت لها :

- أنا لا أخرج من المدرسة إلا متأخراً، والوقت ضيق جداً فما العمل؟

- عجباً، ليست هذه طبيعتك يا سليمان . . . لقد عهدتك مطيعاً لى دائماً . . .

- ثم إن سعيد معى دائماً لا يفارقنى لحظة واحدة .

- أنت تعرف كيف تتصرف . وأنا أفخر دائماً بك وأقول إنك طيب الخلق مؤدب . . . أهكذا تخيب ظنى فيك . . . ؟ إننى لا أأتمن غيرك . . .

- كلفى سعيد هذه المرة .

- ماذا تقول؟ أتريد من خضرة أن تقيم لنا معركة مثل معارك هتلر هنا فى البيت؟ ... هذا سر بينى وبينك لا يعرفه أحد... اسأل والدتك، إن خضرة تغار منى دائماً، وتتمنى أن أذهب فى داهية حتى تستريح منى.

ثم ربت على كتفى تستعطفنى وقالت:

- وسأعطيك قرشاً... قرشاً كاملاً... مبسوط؟

- لا، لا أريد قرشاً.

- إذا فما هى طلباتك؟

- أريد أن أرى صورة بسيمة التى وصلت من الإسكندرية فى خطاب.

- يا غالى يا سليمان والطلب رخيص... سأحضرها لك على عيني ورأسى.

- إن الشيخ حافظ قد أوصى بعدم الاطلاع عليها.

- أترك هذا لى، سأجعلك تراها، فماذا بقى؟

- بقى أننى سأحضر لك كل ما تحتاجين إليه...

كانت يدي ترتعش وأنا أمسك بالصورة، ولم يكن بالدار غيرى وأخت الشيخ حافظ... إن بسيمة تبدو كعهدى بها بريئة وادعة،

وتبتسم ابتسامتها الفطرية التي تفيض كالشعاع الهادى الجميل ، ولم أستطع الإفلات من حزن مقبض أوحته إلى رؤية الصورة رغم تلك الابتسامة . قد يكون مصدر هذا الحزن فى داخلى أنا ، وليس فى الصورة ، فكثيراً ما نرى نحن البشر الدنيا من خلال أنفسنا وإحساساتنا الخاصة ، ولم تجد بسيمة شيئاً تمسكه فى يدها إلا أصبع الموز ، إنها ما زالت تحب الفاكهة وتحلم بها ، وإلا لماذا لم تمسك بزهرة مثلاً بدلاً من هذا؟ ولفت نظرى أن جلبابها أوسع من اللازم مما دفعنى أن أرجح أنه ليس لها ، أو أنها نالتة كإحسان من إحدى بنات الأسرة الصغيرات ، ووضح أنها تحمل طفلاً ابن ستين يفوقها نضارة وسمنة حتى لكان عودها الرفيع الرقيق يكاد يهتز ويفقد توازنه ، وأخذت أتأمل الصورة وأصبح فى جوها غير عابى بما حولى ، وذهبت أخت الشيخ حافظ لتقضى بعض حاجاتها وتركتنى فى حجرتها واقفاً أتأمل الصورة ، ورفعت عيني لأريحها من التأمل الطويل فوجدت «سعيد حافظ» أمامى بلحمه ودمه ، فأخذتنى المفاجأة ووقعت الصورة من يدى ، فاخطفها سعيد ، ورمقنى بنظرات غاضبة منطلقة كالسهام وقال :

- اخرج من هنا بسرعة .

ووقفت متردداً برهة من الزمن ، ثم تحركت خارجاً من البيت وأنا لا أقدر أن أرفع رأسى لأرى ما أمامى ، حتى إنى اصطدمت بخضرة عند الباب وهى تدخل بسرعة وتقول :

- أنت ماشٍ سكران يا سليمان؟؟

وانتابنى شعور موجه لا يعدو شعور اللص حينما يقبض عليه متلبساً بجريمته، أو الذى يقترف خيانة لا مفر من الاعتراف بها، والتسليم بوزرها...!! لكن كنت أعود لنفسى قائلاً: «وماذا جرى؟؟ أكل هذا لأنى رأيت صورة بسيمة وهى تزوال عملها الرسمى كخادمة؟ وماذا فى ذلك؟؟ إن الناس يعرفون كل شيء». وحينما تظن هذه الأسئلة فى رأسى أجد أن الموضوع لا غبار عليه لكن شعورى العميق يهزأ بى ويسخر من منطقى المعقول ويضعنى فى موضوع اللص أو الخائن، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أنى لجأت إلى طريقة ملتوية لرؤية الصورة...

ودارت معركة-كعشرات المعارك-بين خضرة وأخت زوجها من أجل الصورة، ومن أجل البحث عن أشياء فى حجرة خضرة وبدون إذنهما، واتهمتها بالتلصص والخروج على حدود الأدب، لكن الظروف قد اقتضت أن تكون هذه المعركة مكتومة وفى أضيق نطاق-لا تتعدى جدران البيت-حتى لا يتردد اسم «بسيمة الخادمة» على أفواه أهل الحارة، كانت أخت الشيخ حافظ أسبق إلى أمى وإخبارها بما حدث، وأنا بدورى وفيت التزاماتى وأحضرت لها ما طلبته منى من ورنيش وخرز وخيط...

ولم يكن هناك من نتيجة متوقعة إلا مقاطعة سعيد حافظ لى ومخاصمته إياى، بحيث أصبح من المألوف أن يذهب كل منا إلى المدرسة ويعود منفرداً، فكان جزاؤنا -أنا وسعيد- صفعتين من الشيخ حافظ شيخاً أرجعاً إلينا رشدنا وصفاءنا، وعادت المياه إلى مجاريها . .

وحدث فى هذه الأيام أن المولود الذى ولدته أمى نزل ميتاً لسبب لا نعلمه . .



الفصل السابع

وأخيراً نجحنا فى امتحان الشهادة الابتدائية بتقدم، وكان سعيد حافظ أول المدرسة، وكانت فرحة كبرى غرق بيتنا أثناءها فى أكواب الشرابات الحمراء، وتوالت وفود المهتين من أطفال ونساء ورجال فى حارتنا، وكانت أمى فرحة سعيدة، لم ألاحظ عليها أثر معاناة من آلام القلب . . لقد نسيت آلامها، وشقاءها، ومسح نجاحى كل أثر للألم والعنت، أما سعيد فلم يحتفل بنجاحه مثلما اختفلت أنا لسبيين: أولهما: غربة بريمة، وثانيهما: غياب الشيخ حافظ الذى ذهب إلى الإسكندرية ليحضر ابنته، لذلك تأجل احتفال سعيد .

وبعد أيام عاد الشيخ حافظ من الإسكندرية، ولم تكن بريمة معه .

وكان جبينه مقطباً ساخطاً، ونظراته تائهة زائغة . .
هل ماتت بريمة؟؟ .

هل رفضت الحضور مع أبيها؟

وساد الوجوم أسرة «الشيخ حافظ» ووقفوا مشدوهين محزونين، وارتسمت علامات الاستفهام على شفاهم وعيونهم، وقصد الشيخ حافظ إلى حجرة داخلية وباقي أفراد الأسرة مندفعين وراءه، والخوف والدهشة يعقدان ألتتهم، وجلس الشيخ، وتسالت الدموع الصامتة على خده، فطار الصواب والتأني من رأس خضرة وصرخت بأعلى صوتها:

- يا حبيتي يا بنتي...!! ماذا جرى يا شيخ حافظ؟.

واختلط النحيب بالبكاء، وكان صراخ، وكان ازدحام حتى اكتظت الدار بمن فيها من أهل الحارة.

وكلهم فى حيرة لا يدري ماذا يفعل، هل يقدمون العزاء؟ هم لا يعرفون هل ماتت أم لا... ولكنى شعرت بالطبع أن هناك مأساة تتعلق ببسيمة..

لقد ذهب الشيخ حافظ وفى قلبه عاطفة وأمل، وما إن وصل إلى الإسكندرية حتى قصد إلى حيث تسكن المرأة التى تعهدت برعاية بسيمة والسهر على راحتها، وما إن قرع الباب حتى صاحت به امرأة عجوز على بضع خطوات من المنزل، كانت تبيع الحلوى الرخيصة للأطفال:

- تعال هنا يا أستاذ... على من تسأل؟؟

وأخبرها الشيخ حافظ عن بغيته، فقالت المرأة في دهشة:

- تعيش أنت...!! لقد راحت هدرًا... مسكينة!! كنا لجمع أعضاءها عضواً عضواً من الشارع.

- ماذا تقولين؟؟

- ماتت على أبشع صورة في أثناء إحدى الغارات الألمانية.

فشحب وجه الشيخ حافظ وهتف قائلاً:

- وأين بسيمة...؟؟ بسيمة ابتى...!!..

- لا أعرفها ولا أعلم عنها شيئاً.

فقال في انكسار ومسكنة:

- طفلة في الثالثة عشرة من عمرها كانت تعمل خادمة في إحدى البيوتات الكبيرة هنا.

فقالت المرأة في ضيق: لا أعلم... اذهب واسأل عنها هناك..

وأخرج الشيخ حافظ العنوان في لهفة، وانطلق هائماً على وجهه، يبحث عن المكان الذي تعمل فيه «بسيمة»، لقد كان يمشى موزع النفس مرتعد الفرائض، لا يكاد يشعر بما حوله... ينظر إلى

البيوت والناس والعربات والترام فلا يلم منها إلا بصورها الخيال أمامه . . ولم يكن يعبأ ببائع الصحف وهو ينادى :

- انسحاب ألمانيا يا مصرى يا أهرام . . انتصار الحلفاء . .

كان الشيخ حافظ يقرأ أرقام البيوت، وكانت آثار الخراب والدمار تتجلى فى كل مكان، فكأنما انهارت المنازل لينبوا بدلاً منها هذه المخابى الكثيرة المنبثة هنا وهناك .

ووقف الشيخ حافظ فى مكان معين وقال : « هذا منزل رقم ٢١ وذاك رقم ٢٩ فأين إذا رقم ٢٣ ، والمفروض أنه يقع بينهما .

وسأل الشيخ حافظ أحد المارة فحملق فيه مندهشاً ، ولعله ظن بالشيخ حافظ شيئاً من الغباء وقال : « ألا ترى هذه الخرائب ؟ ! » فقال الشيخ : « بلى » فرد الرجل قائلاً : « ابحث عن أرقام ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ فيها ، أأست فى الدنيا يا أستاذ ؟ الغارات لم تبقى شيئاً على حالة . . هذه البيوت الثلاثة طواها العدم ، ومسحتها الغارات الألمانية مسحاً . . » .

- أحقاً ما تقول ؟ .

فهز الرجل كتفيه ساخراً ومشى دون أن يجيب ، بينما جرى الشيخ حافظ وراءه فى ضراعة وتوسل وقال :

- وأين بسمية إذا . . إنها كانت تعمل خادمة فى منزل ٢٢٣ ؟

فقال الرجل فى قسوة دون أن يبدو عليه شىء من التأثر :

- أما أن الله أراحها من شقاء الدنيا وهمها فاختارها لجواره فى إحدى الغارات ، وأما أنها هاجرت من هنا إلى مكان آخر مع الأسرة ، وأسرع فى مشيته تاركًا الشيخ حافظ وراءه حتى لا يلاحقه بكثرة الأسئلة التى لا طائل تحتها ، وكانت مأسى الحرب وأهوالها قد بذرت فى النفوس أخلاطًا من القسوة والملل والعجلة . . ألم يكن يدرى هذا الرجل أنه بكلامه هذا يمزق فؤاد الشيخ حافظ وأحشاءه بخناجر حادة؟؟

وأخذ الشيخ حافظ يقطع هذه الخرائب جيئة وذهابًا بلا غاية أو هدف . . هل كان يبحث عن بسيمة وسط تلك الأنقاض؟؟ هل كان يتشمم رائحتها فى هذا الحصن المتراكم ، أم كان يبكى الأطلال ، ويناجيها شأن الأقدمين؟؟

ولم يزد سؤال الجيران إلا حيرة فوق حيرته . . أما تبليغ الأمر للشرطة فقد أضاف إلى أحزانه حزنًا جديدًا .

وهكذا عاد الشيخ إلى قريتنا بخفى حنين ، عاد دون أن يعرف هل ماتت بسيمة فيها التراب على ذكراها الدامية ، أم ما زالت حية ترزق فيواصل البحث عنها حتى ولو قضى عمره فى الأسفار!! كانت حيرته أقسى من كل شىء . . أقسى من الموت نفسه .

وفى غمرة يأسه لعن الدنيا والناس ، ولعن المال الذى ألجأه إلى دفع ابنته للخدمة ، ولعن الحروب ومشعلاتها ، ولم يستثن فى هذه المرة هتلر ولا موسلينى . . ولم يفرق بين «محور» و «حلفاء» .

لقد تسببت الحرب فى فقره ، كما تسببت الغارات فى ضياع ابنته أو موتها ، وهذا هو مقياسه الجديد للحرب ، فقد أصبح ينظر إليها من زاوية كارثته الخاصة .

وآثر الشيخ حافظ بعد هذه الأزمة أن يلزم داره ، ويختفى عن أعين الناس لفترة طويلة ، لم يعد يراه أحد وهو واقف أمام المسجد يوم الجمعة قبل الصلاة بساعتين مع محبى هتلر ، يتكلمون فى السياسة ، بل غالى فى ذلك وترك محل الخردوات لزوجته ولابنه سعيد يديران حركته ، وكنت إذا ما دخلت البيت رأيته مطرقاً ساهماً لا تفارق لفافة التبغ فمه ، وبريق عينيه قد انطفأ منه الكثير ، هذا بالإضافة إلى نحوله وتجهمه الدائم ، وكلامه النادر . .

وهكذا اختفت مشاجرات خضرة ، وقلت خلافاتها مع أخت زوجها ، وفى الوقت نفسه كانت حالته المالية فى تقدم مطرد ، وأصبح دخول سعيد المدرسة الثانوية بالمجان معنى أمراً مؤكداً .

ولكننا فى أحد الأيام فوجئنا بأمر غريب .

دخلت أمى وقالت لأبى : الشيخ حافظ شيعها يعرض داره للبيع .

فاهتم أبى بالامر المفاجئ وقال : ماذا؟ الشيخ حافظ يبيع داره . . ؟

عجباً . . !! فقالت أمى : ومحل الخردوات أيضاً .

- هل وجد له داراً أجمل ، ومكاناً آخر أنسب لتجارته؟

- كلا ، لا هذا ولا ذاك؟

- إذن فما السر فى ذلك؟

- سيغادر القرية كلية مع أسرته .

وفغر أبى فاه من الدهشة وقال : إلى أين؟؟ ما هذا الذى تزعمين؟

- يقولون إنه ذاهب إلى بلدة «القرشية» حيث أصل أسرته وأسرة والده الضابط المطارِد .

- شىء غريب . . وتحول مفاجئ لم يكن يتصوره أحد . . أبعد هذه الإقامة الطويلة يتحول عن قريتنا . . ؟

وهمست أمى فى صوت خفيض :

- منذ أن فقد ابنته لم يحالفه التوفيق فى كثير من تصرفاته ، لقد ترك أمور الأسرة لزوجته تتصرف كيف تشاء فى المحل والبيت . . إنه شىء محير يا عبد الدائم . هل أصيب بخلل فى عقله؟؟

فهز أبى رأسه فى إشفاق وقال :

- أبدأ، لكن يبدو أنه يرى فى البعد عن هنا، والانتقال من هذا المكان شيئاً من السلوى والنسيان، ولكن هيهات . . !!

- ولم كل هذا . .؟؟ أمن أجل بسيمة؟؟ غداً يرزقه الله بغيرها .

- كان الله فى عون . . لكن، ألم تحاول زوجته أن تثنيه عن هذا العزم؟

إنه لا يقبل اعتراضاً ولا نقاشاً فى الموضوع على الإطلاق، بل قال لها: إذا لم تكف عن الحديث فى هذا الأمر، فسأخذ باقى أفراد الأسرة وأمضى بهم إلى القرشية وافعلى أنت ما تشائين . .

- وأخته؟؟ هل وافقت على الذهاب معه؟

- طبعاً، فمن أين تأكل إذا بقيت هنا . .؟؟ ثم إنها قد تجد لها زوجاً هناك، فالأمل يظل حياً دائماً فى قلبها .

- مسكين حافظ . . كأنما ورث هذا الشقاء والتشرد عن أبيه .

- من عاشر القوم ثلاثين يوماً أصبح منهم، فغداً يستقر به المقام هناك فى القرشية، ولعله ينسى . . ولا شك أن الله لن ينساه .

لقد حزنت لهذا الفراق المباغت حزناً لم يشابهنى فيه أحد غير سعيد حافظ، لكن مما خفف وقع الألم عنى أننا اتفقنا على أن نقدم أوراقنا إلى مدرسة طنطا الثانوية الجديدة حتى نكون معاً . .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سوى الشيخ حافظ كل مشاكله ،
فباع البيت ومحل التجارة ، ورتب مسألة انتقاله إلى «القرشية» ،
وفي فجر إحدى الليالي كان جمل أحد فلاحى القرية محملاً بكثير
من المتاع ، تتبعه قافلة الأسرة .

- أسرة الشيخ حافظ ميممون شطر مقرهم الجديد . . ولم يحاول
سعيد أن يوقظنى فى هذه الساعة المبكرة كى يودعنى ، ولعله
أشفق مما سيكون فى هذا الموقف الصعب من آلام وعواطف
ودموع ، ولكنى علمت أن أبى وأمى كانا فى توديعهم ، وأن أمى
قبلت سعيد من رأسه ، وقالت له : «مع السلامة» ، بينما قال
بصعوبة والدمع يغالبه :

- سلمى لى على سليمان . . وأرجو أن يزورنا قبل انتهاء العطلة .





الفصل الثامن

تطورت الأحداث العالمية تطوراً سريعاً . . . القوات المتحالفة تطبق على ألمانيا . . . سقوط كثير من المدن في أيديهم . . . ثم . . . حصار شديد حول برلين . . . المدينة تتحول إلى أكوام من النيران . . . قوات الفوهور تدافع دفاع المستميت . . . هتلر يناضل حتى الرمق الأخير . . . القوات الغربية والروسية تتسابق للاستيلاء على أكبر قدر من أراضي الأعداء . . . انتحار هتلر بعد سقوط برلين .

قلت لسعيد ونحن خارجان من المدرسة الثانوية :

- لقد انهار مجد هتلر . . . ووقعت ألمانيا في قبضة الأعداء ، وبعد أن كانت «فوق الجميع» أصبحت فريسة تنهشها الذئاب ، وهوت من حائق لتقبل أحذية الغزاة ، وما أظن أباك إلا في غاية الحزن والألم . . .

- فعلاً يا سليمان . . . إنه يجلس ويناقش نفسه بصوت مرتفع

ويحتج ويشور، ويظل فى انتظار مخزن رقم ١٣ المزعوم، لكن يبدو أن هذا المخزن كان وهمًا .

- هل اعترف أبوك بهذه الحقيقة أخيراً؟؟

- كلا، بل إنه يصبر على أن المعركة لم تنته بعد .

- أية معركة بعد دخول الجيش الأحمر والقوات الغربية وقبضتهم على زمام الأمور؟؟ ألم يقرأ عن محاكمة مجرمى الحرب؟؟

- إنه لا يفوته شيء من هذه الأخبار، غير أنه قد قرأ فى إحدى الصحف خبراً مؤداه أن هتلر ما زال حياً، وأنه هرب إلى مكان مجهول استعداداً للانقضاء مرة أخرى . . وأنه غير من شكله بعملية جراحية . . إلى آخر هذه الشائعات . . وأبى يحاول بشتى الطرق الفرار من الحقيقة القائلة بأن هتلر قد هزم وقضى عليه . . .

- لنفرض أن هتلر ما زال حياً، فماذا يعمل وليس معه جيش ولا شعب ولا قادة؟؟؟ إن علماء ألمانيا ومفكرىها أصبحوا هم أيضاً ضمن الغنائم والأسلاب، وقد سيقوا إلى موسكو ولندن ووشنجتون .

- الحق أنه شيء يذهل العقل . . . أهكذا يصعد هتلر إلى أوج المجد ثم يهوى مرة واحدة إلى الحضيض؟؟ لقد كنت أتمنى مثل والدى أن تدور الدائرة على الإنجليز .

- دعنا من هذا، لقد انتصر الحلفاء وانتهى الأمر... المهم عندنا هو هذا السؤال: هل ستضيع أصوات الأم الضعيفة في خضم أغاني النصر وأهازيج السلام؟ وهل ستنطفئ أضواء الأمل بين أقواس النصر الحمراء والخضراء؟؟

- إن أبى لا يثق في الإنجليز مطلقاً، ويؤكد أنهم ليسوا أهلاً للصداقة والصدق وتقدير إرادة الشعوب وحرياتها..

- أ تكون إذا تلك المؤتمرات والتصريحات البراقة لمجرد التخدير والتغدير؟؟

- هذا ما أعتقد أو يعتقد أبى.

- إذا سنظل أسرى لعنة الاستعمار الغربى حقبة أخرى.

- وسنبداً من جديد ثورات ومظاهرات وإراقة دماء..

- وستكون أنت مسروراً بذلك لأنك تعتبر يوم الإضراب عيداً.

- طريق الحرية طويل.. طويل جداً وممتلئ بالشوك والآلام والتضحيات.

- وهل يبلغ به الطول حتى يمتد منذ عام ١٨٨٢ - يوم الاحتلال البريطانى - حتى الآن؟؟

- هو أطول من ذلك.

- إن الحملة الفرنسية لم تتجاوز حقبة قصيرة . .
- كان لها ظروفها وملابساتها . . وبالإضافة إلى ذلك فالاستعمار الإنجليزي أثقل ظلاً، وأدهى خطة . . .

ووصلنا إلى «القهوة التجارية» في ميدان البلدية «طنطا» حيث كانت تقف العربى التى تقل سيعداً وزملاءه يوماً من «القرشية» إلى «طنطا» وبالعكس . ولقد اختار الشيخ حافظ لابنه هذه الوسيلة بدلاً من أن يتركه ليعيش غريباً وحيداً فى طنطا، وكان الشيخ حافظ عنده من المبررات ما يؤيد وجهة نظره هذه؛ لقد كان فقدان بسمية مدعاة لحرصه الزائد على سعيد، والعمل بكل الطرق والوسائل على إراحته والمحافظة عليه، وتهئية كل ما يريده . . . لقد بلغ هذا الحب لدرجة المغالاة والهوس، فكثيراً ما كان الشيخ حافظ يأتى مع ابنه إلى طنطا لا لشيء إلا للاطمئنان عليه، والبقاء بجواره أكبر مدة ممكنة، بل كان ينتظره أحياناً على باب المدرسة حتى إن الصلة بينه وبين بواب المدرسة - «عم فرج» - توثقت على مر الأيام، فكانا يتبادلان لفائف التبغ، والتحدث فى الخصوصيات والأسرار العائلية، وأكثر من مرة كان أبى يأتى لسائق العربى ويوصيه بأن يهتم بماكينه العربى وتجديد آلاتها وبالحرص الزائد فى أثناء القيادة . . .

أجل، لقد كانت مأساة بسمية ناقوساً دوى فى أذن الشيخ حافظ وترك جراحاً غائرة فى نفسه، فأصبح شديد الوله والحب

بوحيدة سعيد، وكان سعيد نفسه يجد الشيء الكثير من الجرح والخلجل إزاء تصرفات أبيه . . . لكن ماذا يفعل؟ لهذا لم أعجب حينما قال لى سعيد وهو يهم بركوب العربة أمام القهوة:

- إن أبى سيحضر إلى طنطا معى فى الغد لشراء بعض البضائع، وطبعاً غداً الخميس والدراسة نصف يوم، فهل ستكون معنا؟؟

- إن شاء الله . . . مع السلامة.

- الله يسلمك.

وانطلقت العربة به نحو «القرشية» كالمعتاد . . .

أما أنا فقد آثرت أن أعيش فى طنطا؛ لأن المسافة بينهما وبين قريتنا بعيدة، ولأن المواصلات صعبة ومتأخرة فى الوقت نفسه . . . وقت لاقيت فى حياة القرية ألواناً كثيرة من المتاعب . . . وجدت نفسى لأول مرة حراً أتصرف كيف أشاء، وفى جيبى المصروف الشهرى أنفقه على أى وجه أريد، واللعب أو الاجتهاد أمرهما متروك لى وحدى، لكننى ضقت ذرعاً بهذه الحرية وأبغضتها بغضاً لا مزيد عليه، كنت أريد أن أتخلص منها بأى شكل، لقد شعرت بهذه الحرية وكأنها شبح مخيف أمامى، وسهام تغرس فى جسدى، فهل كان هذا لأنى لم أكن كفواً بعد لأتحمل

هذه التبعة الملقاة على عاتقى؟؟ وهل ما أذكره فى هذه الفترة لمحات باهتة خاطفة لكنها ذات دلالات غير خافية . . .

أذكر أننى ذهبت مرة إلى دار الخيالة لمشاهدة قصة «طاقية الإخفاء» . . . ودخلت والأضواء مطفأة والناس ساكتون لا أكاد أتبين أشباحهم، وكان مرشدى أحد العمال المشرفين على نظام الدار، ويظهر أنه كان جافاً غليظاً، ولهذا السبب وضعوه فى أحط درجات الدار، ورغم أنه كان يشعل بعض عيدان الثقاب لينير لى الطريق إلا أننى كنت أصطدم بهذا أو بذاك، ولا أكاد أخلص من مقعد إلا ليصدمنى مقعد آخر، وفى النهاية لم أجد مكاناً فدفعنى الرجل إلى ركن قصى وقال لى: «قف هنا . . . سترى الشاشة من هنا؛ لأن كل الأماكن مشغولة».

لم يسبق لى دخول دار الخيالة من قبل، لهذا اعتبرت نفسى حسن الحظ نظراً لأنى أقف بجانب الشاشة تقريباً . .

وكانت الصور المتحركة والأصوات المسجلة، وصيحات بعض المهرجين من آن لآخر، جعلتنى لا أكاد أفهم شيئاً من الرواية لاختلاطها، ورويداً ورويداً استطعت أن أتبين الجالسين، وتركت الشاشة لأصعد بصرى فى الجالسين فوق وتحت وأمام وخلف، وكنت أعجب أشد العجب من هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم آثار النعمة والثراء، ومع ذلك فقد أثروا الجلوس فى الخلف عليه فكانت

منى التفاتة لأجد مكاناً شاغراً، فأثرت الجلوس عليه لأن طول الوقوف قد أتعب ساقى، وما إن هممت بالجلوس حتى وكزنى شاب عن يمينى وعن شمالى، وقبل أن أنطق بكلمة وجدت نفسى ملقى حيث كنت من قبل، وبصورة مزرية جرحت كبريائى وسمعت أحدهم يقول:

- أصل الحكاية فوضى...!!! إنت فاكر إنه مكان من غير أصحاب؟؟

ولم أكن أعلم أن من حق أحد أن يحجز مكاناً لزميل له قد يأتى أو قد لا يأتى، وخصوصاً بين رواد الدرجة الثالثة، لكنى أبقيت بعد ذلك...

وخرجت من «الرواية» وأنا فى غاية النكد الحزن والدمع يكاد يطفر من عيني وكأننى قد ارتكبت وزراً كبيراً. هل كنت أسفاً من أجل الخمسة والعشرين مليماً التى دفعتها؟؟ أم من أجل الوقت الذى أضعته فى المشاهدة ولم أذاكر فيه؟؟ أم من أجل المعاملة المزرية التى لقيتها من العامل الفظ والشايبين اللذين قذفا بى بعيداً...؟؟ أم من أجل وجودى فى دار الخيالة للمتعة والانبساط، بينما قد تكون أمتى تشكو مر الشكوى فى ذلك الوقت من آلام قلبها، أو أبى يقضى ليله فى الغيط ليزرع أو يسقى، أو ليلى ومحمود ينامان وفى أيديهما كسرة الخبز ويحلمان بالحلوى والفواكه؟؟

لعل أسفى وتأنيب ضميرى كان من جراء هذه الأسباب مجتمعة . . . ورغم الألم الشديد الذى كنت أقاسيه لا ألبث حتى أجد فى نفسى حيناً غامضاً وشوقاً جارفاً يرغمنى على معاودة الذهاب مرة ثانية لمشاهدة الروايات ، فقد كنت أجد فى دنياها عالماً مشوقاً يسلب لى ويسيطر على خيالى . وكنت فى الوقت نفسه أتغلب بها على مشاعر الغربة ، والترفيه عن النفس أمر مهم بعد المذاكرة ، وكنت ألقأ إليها فى بعض الأحيان هرباً من زميلى الأزهرى الذى يسكن معى ، فقد كان يتحلل الأسباب الواهية ، والخلافات البسيطة ، حتى يطلق لسانه وشتائم العنان ، فيعرقل بذلك مجهوداتى الدراسية ، ويتسبب لى فى انحراف المزاج ، وتسويد عشتى المتواضعة . . .

وفى أثناء ذلك عرفت الكثير عن الطلبة الغرباء ذوى السلوك المنحرف وعلاقاتهم الشائنة بيئات الهوى ، وعن سهراتهم الصاخبة حيث الحشيش ومختلف ألوان الخلاعة ، وكنت أجاول جاهداً أن أبتعد عن هذه الأوساط الموبوءة ، وكان الشعور بالإثم الموهوم الذى لازمى ذا فائدة مهمة فى هذه الناحية فكان أقل انحراف أو خطأ بسيط يعرضنى للنكد وسياط الضمير القاسية . . . ولا مناص من الاعتراف بأنى كنت أشعر بشيء من الكبت لكنه كان أخف فى مقدور أبى أن يتحمل نفقات أخرى عاماً بسبب

الرسوب، لذلك كان مجرد التفكير فى عدم النجاح يملؤنى بالفزع والرغبة، فأنكب على الاستذكار ولا أترك الكتاب إلا إلى ملعب كرة القدم التى كنت أعشقها قبل أن أنضم إلى فريق المدرسة، أو إلى بعض روايات الشاشة.

وكثيراً ما فكرت فى سعيد والراحة التى ينعم فى ظلها، فهو يبيت مع أسرته هائثاً ناعم البال، لا يتعرض لهذه الوسوس والآلام التى تشاطرنى حياتى، ولا يجد المشقة التى أجدها أنا فى إعداد طعامى الذى كثيراً ما كنت أتكاسل عنه وأكتفى «بالطعمية» أو الفول والطحينة والجبين..

لقد كان يحق لى أن أحسد سعيداً...

ولا أستطيع أن أنسى يوم أن كنت أذاكر فى مسجد السيد البدوى وفى غمرة الازدحام التى تلم بالمسجد من آن لآخر، تحسست جيئى فلم أجد حافظة نقودى...!!!

ولسوء الحظ كان هناك سوء تفاهم بينى وبين زميلى الأزهرى، لذا قضيت يومين كاملين أكل الخبز البلدى الجاف مغموساً بالملح دون أن يسمح لى كبريائى بالاقتراض منه، وفى الوقت نفسه لم يحاول هو بدوره -رغم علمه بما حدث- أن يعطينى شيئاً من المال.

وكان سعيد هو الذى أنجدنى من هذه الورطة . . لقد تذكرت التجربة القاسية التى مرت بعمى وقدرت ظروفه . .



بعد انتهاء الدراسة يوم الخميس ، كان الشيخ حافظ فى انتظارنا ، وكان كعادته يتجاذب أطراف الحديث مع «عم فرج» البواب ، فتعلقت يمينه وسعيد يساره ، بينما هو يتقل بنا من شارع «الخان» إلى شارع «البورصة» ، وينتهى من زيارة «البدوى» كيما تتجه لزيارة سيدى «عز الرجال» ، وفى أثناء ذلك يشتري الشيخ حافظ ما يلزم محله من البضائع ، ويبدو أن حركة الإتجار فى القرشية كانت أوسع مدى من قريننا ؛ لأن كمية البضاعة التى اشتراها كانت أكبر مما مضى ، والأوراق المالية الكثيرة أصبحت لافتة للأنظار فى حافظة نقوده ، وكان الشيخ حافظ عطوفاً لدرجة أنه أخذنا إلى مطعم فخم حيث قدم لنا وجبة شهية من اللحم والخضار ، ولم يكتف بذلك ، بل قادنا إلى القهوة «التجارية» حيث جاد علينا ببعض المشروبات الحلوة ، ومع ذلك فقد قال الشيخ حافظ :

- اسمعوا يا أولاد . . . إن الجلوس فى المقاهى مفسدة ، ومضیعة للنقود والوقت ، فلا تقربوها ما استطعتم . . .

وهزنا رءوسنا تأمينا على كلامه ، ولم أكن فى حاجة إلى

نصيحته هذه لأن ما معى من النقود القليلة لا يكاد يكفينى ،
واستطرد الشيخ :

- وأيضاً ابتعدوا عن السياسة . . . فأنتم ما زلتم فى سن مبكرة لا
تسمح بفهم مراميها ، وإدراك أساليبها الملتوية ، وسيكون لكم فى
مستقبل الأيام ما ينتظركم من الأعمال الكثيرة .

ولست أدرى هل زهد الشيخ حافظ فى السياسة بعد هزيمة هتلر
وانتحاره ، أم أن طول الخبرة والتجربة جعله يحمل فكرة سيئة عن
جدوى السياسة فى مصر وعن زعمائها الذين لا هم لهم غير
الخطب والتهريج الرخيص . . وألقيت نظرة على الشيخ حافظ
فرايت الجريدة فى جيبه وقد ظهر جزء منها ، ورد سعيد فى جراءة
مستحبة :

- كيف لا نهتم بالسياسة ونحن شباب الغد ، وأشبال الوطن ؟

فضحك الشيخ حافظ ، ولعله شعر بفيض من السعادة الداخلية
التي انعكست على ابتسامته العريضة وقال :

- هذا الكلام من أثر الإنشاء والخطب التي يلقنونكم إياها فى
المدارس ، لكن إذا ما كبرتم وأدركتم الحقائق ، صدمتكم أشياء
محزنة .

- إن حب الوطن من الإيمان يا أبى .

- أنا لا أمانع فى حبك لوطنك، فهذا واجب مفروض. لكن الطيش والتهور هما ما أخاف عليكم منهما... تذكر المعاملة التى كان الشرطة يعاملونكم بها فيفرقون مظاهراتكم بصورة قاسية...
- أتقصد أنهم كانوا يغلظون علينا، ويطلقون الرصاص نحونا أحياناً؟
- فتفرون كالخراف الصغيرة المذعورة...
- قالها الشيخ حافظ وهو يقهقه، لكن سعيداً اعتدل فى مكانه ويانت عليه سمات الرزانة والجد، وقال:
- قد يعتدون علينا، فيصيبون البعض أو يقتلونهم... لكن يكفيننا فخراً أننا ثموت شهداء من أجل الحرية...
- لا يأخذنك الحماس هكذا يا سعيد... ولا تنس أن رجال الشرطة مصريون مثلك، وقد يكونون أشد وطنية منك، ولعل لهم أبناء بينكم، ولكن الواجب قد يحتم عليهم بعض التصرفات القاسية يا ولدى.
- كل ما أعرفه أنهم أدوات للظلم، وأعوان للحكام المستبدين.
- الوزير الأكبر يا بنى يقع على عاتق الاستعمار فهو الذى أفسد حياتنا وأثار الشك بيننا، وبذر بذور الفتنة بين طوائف الشعب؛

كل ذلك لكى ينقل الصراع الذى بيننا وبينه إلى عراك شخصى وشجار محلى .

ويبدو أن هذا الكلام لم يكن على هوى سعيد، فأخذ يعبث بكتاب فى يده ويتصفحه دون أن يقرأ أو يعي شيئاً فيه، بينما التفت الشيخ حافظ إلى وقال :

- وأنت يا سليمان . . . ما رأيك فى هذا الكلام؟

فلم أجد ما أجيب به، لكنى قلت من باب المجاملة :

- سنستمع لنصائحك ونعمل بها إن شاء الله .

- إنك أهدأ من سعيد، وألين جانباً، وأعقل فى تصرفاتك . .

ونظر إلى الشيخ حافظ نظرة فاحصة وقال :

- ماذا بك يا سليمان . . أتشكو من ألم ما؟

فتحاملت على نفسى محاولاً إخفاء ما أحسه من ألم وقلت :

- لقد شعرت بمغص خفيف منذ الحصّة الثانية، وأهملته لعله يكون شيئاً عابراً وينتهى، لكن يظهر أنه قد ازداد قليلاً .

والحقيقة أنى كنت فى هذا الوقت بالذات أشعر كأن مديّة حادة تمزق فى جنبي اليمين، وكانت آثار الألم مرتسمة على محياى، مما دعانى للانطواء على نفسى وعدم الاشتراك فى الحديث الذى كان

يجرى بين سعيد وأبيه، ولقد حاولت مغالبة الآلام حتى يسافر سعيد وأبوه، إذ ليس من اللائق أن أتركهم وأمضى لمسكني وهم في حكم الضيوف، ولم يقم الشيخ حافظ قبل أن يحضر لى كوباً من القرفة زاعماً أنها ستقضى قضاء تاماً على كل ما أحس به من مغص.

وعند انصرافه همس في أذني قائلاً:

- اسمع يا سليمان . . . حافظوا على أنفسكم حتى لا تسببوا لأهليكم المتاعب والأحزان، وحتى يرضى الله عنكم ويكتب لكم النجاح . . . أخوك سعيد متحمس ومندفع ولا يقدر العواقب كثيراً، فكن بجانبه دائماً وحاول تهدئته . . . إنه صديقك ويسمع كلامك ولا يرد لك رجاء . .

كان الشيخ حافظ يتكلم في إشفاق ووجل، ويبدو أنه كان يستحضر آنذاك في ذهنه صورة «بسيمة» المسكينة، ومأساتها التي تنفطر لها القلوب والتي لا تفتأ تطالعه بأشباحها ليل نهار حتى بانث تجاعيد الشيخوخة في وجهه وجبهته، ولم يعد خافياً أنه قد تغير خلال العامين المنصرمين تغيراً يضارع عشرات السنوات . . . لقد كانت تجربة بسيمة شاقة أليمة، وهو يحاول جاهداً الإفلات من وطأتها، لكنها تطارده وتلح في مطاردته فيدفعه ذلك إلى المبالغة في حبه لسعيد، وتحذيره تحذيراً متصلاً من كل خطر متوهم . . .

وعدت إلى مسكنى والمغص على ما هو عليه من الحدة
والتمادى . .

لم أستطع أن أتناول أكلًا ولا شرابًا، ولم أتمكن من النوم لما
أقاسيه، وأخذت أتلوى وأنقلب فى فراشى، وأتأوه تأوهات
مكتومة، أما زميلى الأزهرى، فقد كان يجلس فى مقعده يقرأ
بصوت مرتفع يعلو على بعض الاستغاثات التى تفلت منى . . . ولما
ازدادت شكائتى واستغاثتى، التفت إلى فى تناقل وقال:

- هل أحضر لك شربة ملح إنجليزى؟

- إنها لا تنفع فى علاج المغص . وعاد الزميل -سامحه الله- إلى ما
كان فيه من مذاكرة بصوت مرتفع وكأن هذا الإنسان الذى
يصرخ -أنا- يوشك أن يلفظ أنفاسه فى وادٍ آخر، وليس معه فى
حجرة واحدة . . .

لقد ثارت مشاعرى إزاء هذا الموقف الجاف من زميلى لمجرد
بعض الخلافات الشخصية البسيطة، وشعرت بالآلام الوحدة والغربة
فى هذا الوقت بالذات أكثر من ذى قبل، ووجدت ميلًا جارفًا
للبكاء . . .

ترى لو كنت بين أبى وأمى وجدتى فى هذا الوقت أكنت أحس
ما أحس به من آلام نفسية فوق الآلام العضوية التى تكاد تدفعنى

لأن أقذف بنفسى من الشرفة؟ وبلغت أصوات استغاثتى مسامع الجيران، فتضايق زميلى وقال:

- ألا يكفى صراخاً؟؟ أتريد أن تفضحنا هنا؟؟ وغلى الدم فى عروقى وغامت عيناي بالدموع وأوشكت أن أمسك بإبريق المياه الفخارى الموضوع بجانبى فى النافذة وأقذفه به، لكننى تمالكت نفسى، وقلبى يضرع إلى الله أن يخفف ما بى من أوجاع...

يا للضبعة...!!! إذا من الممكن أن أظل أتلوى هكذا حتى يقضى على...

وكان يسكن الحجرة المجاورة لنا عسكري بوليس مع زوجته، وسارع الاثنان لزيارتى والاطمئنان على حالتى، قال الرجل:

- لا بد من عرضك على طبيب حالاً.

طبيب؟؟ من أين لى المبلغ الذى أدفعه للطبيب. إنها لم تحدث لى طول حياتى، بل إن أمى تشكو من آلام قلبها منذ سنوات ومع ذلك فلم نفكر فى إرسالها إلى الطبيب، ولعل الرجل أدرك ما أنا فيه من حيرة فقال:

- نستطيع أن نطلب لك عربة الإسعاف وننقلك إلى المستشفى الأميرى...

لكن زوجته بادرت قائلة:

- لا . . . المستشفيات المجانية كلها لا تخدم بذمة ولا إخلاص . إنى لأفضل الموت على الذهاب إليها . .

- لكنها موجودة لعلاج الناس والسهر على راحتهم .

- لست مجنونة حتى أفرط فى نفسى ، وألقى بها بين أيديهم .

ثم التفتت إلى وقالت :

- اسمع يا سليمان ، إذا كنت فى حاجة إلى نقود فنحن تحت تصرفك حتى تستدعى والدك . . . ما عليك إلا أن تأمر وسننقلك فوراً إلى أحد المستشفيات الخاصة لتوقيع الكشف عليك . .

كل ذلك وزميلي واقف ساكت فى بلادة وبرود عجيبين ، لكن عندما وجد أن المسألة دخلت فى طور جدى ترك بروده وبلادته وسارع بالاتصال بوالدى «تليفونيا» ، وأحضر عربة لنقل إلى الطبيب .

ثم حولنى الطبيب فوراً إلى المستشفى الأمريكانى لإجراء جراحة الزائدة الدودية .



أجريت العملية الجراحية بنجاح ، وأفقت من أثر التخدير لأرى بجانبى أسرتنا كلها وهم يكون . . أبى . . أمى . . ليلى ومحمود

الصغيران، حتى جدتى وجدتها تمرر يدها كالمعتاد فوق جبيني
بحنان، ولعلها كانت ترقيني وتخاف علىّ من الحسد نظراً لنجاح
العملية ..

وعشت أسبوعين غارقاً فى الزيارات، والدعوات والتمنيات
الطيبة بالشفاء العاجل . . . وكان سعيد فى غاية التأثير والاهتمام
فلم يكن يمر يوم دون أن يزورنى فيه .

وخرجت من المستشفى سليماً معافى لأرى خطاباً من عمى
يتظرنى فى المدرسة .

كتب عمى يقول :

ولدى سليمان :

شاءت الأقدار أن أقاسى الأهوال فى تلك الفترة الحرجة من
حياتى، فلقد تقلبت بين مختلف الأعمال منذ أن أتيت إلى
القاهرة، وأخذت أتقل بين المخابز ومقاولى العمارات كعامل
بسيط بأجر يومى لا يتعدى بضعة قروش، وكانت لقمتى مغبرة تماماً
مثل وجهى وملابسى وشعر رأسى من أثر التراب، فتعلمت المثابرة
على العمل ساعات طويلة فى حر الشمس اللافتح، ولم أكن أجد
من الاستقرار ما يضمن لى الحياة الهادئة المطمئنة، بل كنت معرضاً
للطرد من وقت لآخر . . كان الطريق شاقاً، والبداية قاسية منفرة،
لكنى كنت أبنى مستقبلى من جديد . . . أو بمعنى آخر كنت أبعثه

من العدم . . . ويبدو يا ولدى أن العمل الشاق قد أنساني الترف
والخلود للمتعة . . . فمن ناحية السهر لم أكن أجد في نفسي القوة
لكى أسهر ساعة أو ساعتين، بل كان الانهماك الذى أقاسيه يسلمنى
لنوم عذب جميل، فتذكرت ماضى حينما كنت لا أقرب النوم إلا
إذا أكلت هذا وشربت ذاك، وأظنك تدري مغزى ما أقول . . .

إن رغيظاً واحداً بداخله قليل من الفول والزيت والملح لكاف
جداً الآن أن يسد جوعى . . . واستحوذ الحصول على رزقى اليومى
كل تفكيرى، واعترضتني مشكلة الملابس والحذاء بعد أن أبلاههما
العمل ومرور الأيام.

وجاء رمضان يا سليمان، فتذكرت أمواج الرحمة والروحانية
التي كانت تغمر بلدنا الصغير كل عام . . . وتذكرت الأطفال وهم
يجرون فرحين عصر آخر يوم من شعبان وهم يرددون فى صوت
منغم حبيب «الصيام بكره يا عباد الله . . .» والمسجد الكبير وهو
مكتظ بالفلاحين، وأصوات الابتهالات والتكبير والتسبيح تشيع
فيه جواً عذباً أخاذاً والأضواء الغازية قد تضاعفت فيه، والمسحراتى
وهو يجوب أنحاء القرية بين تهليل الكبار والصغار، وتذكرتك أنت
وقد كنت صغيراً تخرج من البيت بعد أن تهب من نومك الذى ما
زال متعلقاً بأجفانك، وتحاول أن تفتح عينيك ببطء، حتى ترى
المسحراتى وطبلته فى ضوء لمبات الغاز ذات الشعاع الضئيل . . .

لقد حرمتنى المدينة بما فيها من ضوضاء وأضواء هذا الجمال الفطرى الساذج، وتلك الصور الحية البديعة التى عشت بين ظهرانيها طويلاً. . لذلك كنت آوى إلى أحد المساجد أقطع الوقت بالدعوات والصلوات مستمسكاً بالصبر، لكن أعصابى انهارت يوم العيد، انهارات لأنى شعرت يومذاك بأنى غريب فعلاً. . الناس فى تهنئات وعناق وتزاور. . أما أنا فكنت كالنبته الشائكة وسط حديقة جميلة لا تكاد تقترب منها يد، أو يدنو منها زائر. .

صحيح أنى استطعت الحصول على ملابس وحذاء جديدين من جراء التضيق والتقتير الشديدين اللذين أخذت بهما نفسى أخذاً لا هوادة فيه، لكن يبدو حقيقة أن العيد ليس لمن لبس الجديد وتعطر وترك العمل. . .

ومع ذلك فقد كنت أشعر ببعض الغبطة لأنى أعمل فأجد ما أقتاب به ولا أمد كفاً لأحد كى أستجديه. . كان هناك شىء اسمه الكرامة يرافقنى أينما رحلت. . . وكان هذا الشىء-أو الرمز- يمدنى بطاقات هائلة من الصبر والسعادة والأمل، وقد تظن يا سليمان أن الكرامة بالنسبة لإنسان مثلى يعيش بين التراب والأحجار، ويزاول الأعمال المنحطة، قد تظنها شيئاً من الوهم والخذاع، ولكن لا يا سليمان. . . إنى أوصيك بأن تستمسك بمثل هذا الرمز-أعنى الكرامة- فستجد منها عزاء أى عزاء، وعوناً على تحمل الشدائد أى عون. . .

وقد تعجب لم لا أبحث لنفسى عن عمل أحسن منزلة مستخدماً فى ذلك علمى المتواضع - كراسب كفاءة - ولكن أقول لك إن عدم اللياقة الطيبة عقبة كأداء أمامى ولم أستطع التغلب عليها بالوسائل غير المشروعة؛ لأننى لم أكن أحمل من النقود غير ثمن القوات اليومية، ولأننى أيضاً لم أكن أستسيع ذلك لأننى ناقد على مثل هذه الوسائل، بل حاقدها عليها حقداً شديداً، فلا يصح إذاً أن أشارك فيها، وألغ فى إنائها القدر.

وفى هذا الشهر كتب الله لى بعض الهدوء والاستقرار إذ استطعت الحصول على عمل بسيط فى وزارة الدفاع الوطنى قسم المخازن، فعينت خفيراً لبعض المهمات بأجر يومية يبلغ اثنى عشر قرشاً، وأقوم بحراسة نصف يوم، أسبوع مساءً، وأسبوع نهاراً - وأعتقد أن هذا نهاية المطاف بالنسبة لى، والحمد لله على هذا، وكل ما أمله هو أن يرزقنى الله بزوجة صالحة، تتناسب مع سنى التى تزحف نحو الشيخوخة، لعلها تؤنس غربتى ووحدتى، فلن أستطيع يا سليمان أن أعيش مترهباً أكثر من ذلك... وتستطيع منذ الآن أن تراسلنى على هذا العنوان: قلعة الكباش شارع الطولونى رقم «...» ودعواتى الصادقة لك بالتوفيق والنجاح...



الفصل التاسع



كانت العطلة الصيفية فى هذا العام جميلة . . لم تكن تستمد جمالها من استمتاعى بقضائها فى إحدى المدن الشاطئية ، فإن ذلك أمر محال بالنسبة لى ، بل كان سر جمالها ناتجاً عن نجاحى وسرورى بذلك ، فلقد تكلمل جهودى - مثل سعيد حافظ - بالتوفيق ، ورغم المضايقات ورغم المرض الذى عانيت منه فى طنطا ، ورغم تفكيرى فى مشاكل أسرتنا التى لا تبرح ذهنى أبداً ، وكأنها جزء من دروسى فى المدرسة .

وكنت أقرأ ذات يوم عن مشكلة الفراغ عند الشباب ، وكيف يتغلبون عليها فى بعض البلاد الأجنبية ، فيلجئون إلى العمل المفيد الشريف ، وأخذت أدقق النظر فى صور بيع بعض الشباب الجامعيين وهم يقومون بالخدمة بعض ساعات فى دور الحضانة أو فى المقاهى أو إلقاء بعض الدروس الخصوصية . . . فكرت جدياً فى الأمر ، وذهبت إلى والدى وكانت أمى معه ، فقلت :

- أنا فى حاجة هذا العام إلى ملابس جديدة ، وأعنى أن أودع عهد السراويل القصيرة وأبدأ عهد السراويل الصوفية الطويلة ؛ لأنى صرت رجلاً . . . أليس كذلك يا أبى؟؟

- سيفرجها الله يا سليمان . . . لم يزل أمامنا ثلاثة شهور على افتتاح الدراسة . . .

- وهل عندك مانع من أن تفكر فى الموضوع الآن حتى آخذ منك عهداً على ذلك؟

- فتدخلت أمى وقالت فى عصبية طارئة لما فاجأها داء القلب اللعين :

- دع الأمر لله ولا تحمل نفسك الهموم من الآن وسنهيى لك كل ما تحتاجه .

وأكمل أبى حديثها كأنه يساعدها حتى تزول عنها نوبة الألم :

- طبعاً . . . سنجهز لك كل ما تحتاجه ولو جعنا وعرينا . . . إن طلباتك مقدسة . . .

- يا أبى اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . . . وأنا أعلم أن الحالة المالية ليست على ما يرام ، فلماذا لا نجد حلاً لهذا الموضوع منذ الآن؟؟

- ماذا تريد أن تقول؟؟

- ماذا لو التحقت بالمحلة الكبرى لأزاول أى عمل حتى تنقضى هذه الشهور الثلاثة الباقية على استئناف الدراسة؟

فرد فى دهشة:

- المحلة؟؟ لا.. لا. يا سليمان أبعدنا الله عنها.. فقلت من فورى:

- وهل حرام أن أستغل وقتى وأكسب بعض الجنيهات لأشتري بها كتبى وملابسى فأخفف عنكم بعض الضغط، فضلاً عن أن نصف الديون ما زلنا فى حيرة من أمرنا ولا ندرى كيف نقوم بتسديدها، ومرسى أبو عفريلح علينا ويهدد برفع الأمر للقضاء...

فتململ أبى فى مكانه دون أن يجيب، بينما صاحت به أمى وهى تغالب المرض والآلام.

- كيف تسكت على سماع هذا الكلام يا عبد الدايم؟ هل تترك ابنك للآلات والماكينات التى لا ترحم كى تصدمه واحدة منها فتقضى عليه، أو ترجعه إلينا بعاهة مستديمة وتضيع كل تضحياتنا هدرًا فنفجع فى أملنا؟؟

فسارعت بالرد قائلاً:

- يا أمى لا يغنى حذر، ثم إن أولاد بلدنا الذين يشتغلون فى المحلة الكبرى ليس فيهم فرد واحد حدث له ما تتخوفين منه..

- اسمع كلام أمك يا سليمان تنجح فى حياتك . . . اعمل معروفًا
يا ولدى واترك هذه المسألة، ولنا ولك رزق على الله .

وسكتت أمى قليلاً كى تسترد أنفاسها اللاهثة، وقالت :

- هل نسيت حكاية بسيمة؟؟ كان الله فى عون أبيها وأمها .

وأخذت ألح طيلة أسبوع كامل على أمى لعلها تقبل، لكن دون
جدوى، إذ كانت مأساة بسيمة هى الدليل الذى يلوحون به فى
وجهى دائماً . . وأدركت أن أبى يميل إلى الحصول على ما أشاء من
ملابس لكنه لا يستسيغ الوسيلة التى أتوسل بها إلى ذلك . . .
ووجدتنى مدفوعاً لأن أقرر أمراً . . .

إن أبى ينعنى من الذهاب إلى المحلة حفظاً لكبريائه، ومراعاة
للتقاليد التى لا تبيح الذهاب إلى المحلة إلا لمن فقدوا مصدر
الرزق . وأمى لا تريدنى أن أفعل ما أشاء لخوفها على حياتى . أما
من ناحية والدى فأنا لا أسمح أن أنطوى تحت كبريائه المزعوم الذى
لا يستند فى نظرى على أساس سليم . هل أذهب إلى المدرسة فى
العام الجديد بملابسى الرثة التى لا تشرف؟؟ إنه من الجور أن أثقل
ميزانية والدى الواهية وأرغمه على شراء ما يلزمنى . . أما من ناحية
والدتى فإنها تكون مخلصه ومصممة على المحافظة على من خطر
الآلات والماكينات ، فلها التقدير على ذلك، وحياتى ملك لى،
وسأعيشها بحذر واهتمام، فى الحدود التى تحقق لى أطماعى

المتواضعة فى هذه العطلة، لهذا عولت تعويلاً لا رجعة فيه على السفر إلى المحلة الكبرى . .

ولم يكن من الصعب أن أتخايل وأبحث عن بعض القروش القليلة التى توصلنى إلى هناك، وتقوم بأودى لفترة قصيرة. وقصدت من فورى إلى أحد معارفنا ممن يتسمنون مركزاً مرموقاً فى الشركة، فلم يدخر وسعاً فى إلحاقى بعمل مريح، ولم يدم هنائى فى العمل يومين أو ثلاثة على ما أذكره، إذ فوجئت بأبى يدخل علىّ، والغضب يطل من عينيه، ولم أصح من المفاجأة إلا على صفة ترن على وجهى وأبى يقول :

- أهذا ما علموه لك فى المدرسة عن طاعة الوالدين؟؟ إذا لم تكن المدرسة قد أتمت تربيتك فإنى سأتكفل بها بنفسى . . . تكلم . . . انطق . . . من أذن لك بالمجئء إلى هنا يا مغفل .

كان أبى فى ثورة عارمة لا أستطيع الوقوف فى سبيلها، وكان له منطقته الخاص الذى لا يمكن أن يتزحزح عنه، بينما لى منطقى الذى اقتنعت به افتناعاً كاملاً، لهذا أثرت السكوت حتى تخف ثورته، ويعود إلى حالته الطبيعة. وتلفت حواليه ليرى رداءة الحجرة التى أسكن فيها، ويرى أثاثها البالى القذر الذى يتسابق عليه البق والبراغيث، ثم نظر أخيراً إلى زملائى الأربعة ولم يكونوا غريبين عنه لأنهم من فلاحى قريتنا، وقال فى حدة:

- صحيح . . . لم يكن ينفعلك غير الغيظ والجاموسة والحمار . . .
إننا نشقى من أجلك، ونحاول أن نخلق منك إنساناً موظفاً
محترماً، لكنك تصر إلا أن تقذف بنفسك فى الأقدار .

واقترب منى وهو ما زال فى ثورته، وجذبني من ذراعى وهو
يقول:

- هيا أمامى إلى البلد يا عديم الأدب . . .



أفهمت أبى بعد أن هدأت ثورته قليلاً عن قرييى الذى ساعدنى
فى التحاقى بالعمل، ورويت له ما حدث بالتفصيل وأخبرته عن
الكشف الطبى والاستعدادات التى بذلت فيها مجهوداً كبيراً،
وأخذت أضرع إليه وأقبل يديه وأهون له الأمر بكل ما أوتيت من
قوة حجة . . لكن دون جدوى .

وعندما ذهبنا إلى قرييى لكى يشكره على مجهوده، ويستأذنه
فى أخذى، تحولت الأمور إلى صفى . . كان قرييى هذا واسع الأفق
مدركاً لحقائق أمورنا، لم تغب عنه وجهة نظرى التى لا غبار
عليها، فابتسم لوالدى وقال:

- وماذا فى ذلك يا عبد الدائم؟

- إنها فضيحة يا سيادة البك .

- أبدأ . . . إن كسب المال عن طريق حلال ، ويعرق الجبين ، ليس من فضيحة فى شىء .
- إن سليمان لم يزل صغيراً على ملاقة مشاق العمل وتكاليفه .
- بل إنه رجل ذكى يفهم واجبه . .
- لكن . . .

فقاطعه قائلاً: أنا لا أستريح مطلقاً حياة التسكع والفراغ التى دأب عليها تلامذتنا فى عطلتهم . . .

- لقد وجدته اليوم فى مسكن مثل حظيرة البهائم تماماً . . فهل ترضى يا سيادة البك هذا الوضع وهذه الإقامة المزرية بين أوساط العمال الفاسدة؟

- الأمر بسيط . . . ساهىء له مسكناً طيباً مع أسرة كريمة أعرفها، وسيعيش سليمان معهم كأحد أبنائهم، أما من ناحية العمل فابنك يعتبر موظفاً لأنه يحمل الشهادة الابتدائية، ولهذا وكلت إليه عملاً كتابياً يمت إلى دائرة أعمالى بصلة وثيقة، فماذا بقى بعد ذلك؟

ويظهر أن عبارة «ابنك يعتبر موظفاً لأنه يحمل الشهادة الابتدائية» قد أثلجت صدر والدى، وأذهبت عنه بعض ما يحسه من ضعة وإذلال إزاء عملى هذا، فقال فى استسلام:

- البركة فيك يا سيادة «البك» أطال الله عمرك ونفعنا بك .

والتفت الرجل إلى وقال في طيبة ومودة :

- اسمع يا سليمان ، أنا هنا مثل أبيك تماماً ، فإذا شعرت بشيء من التكدير أو الضيق ، سواء في عملك أو في مسكنك ، فما عليك إلا الاتصال بي مباشرة ، وسأحاول أن أيسر لك كل ما تريد إن شاء الله ، لأنني أحب الطلبة النشطاء الواعين . . .

كانت هذه الشهور الثلاثة التي عشتها في شركة المحلة الكبرى ذات أثر بالغ في نفسي ، جربت أثناءها حلاوة الكسب ، وجمال التعب من أجل لقمة العيش ، وعاملت موظفين يكبرونني سنًا ومنزلة ، وتعرضت لكثير من المآزق التي كثيراً ما ينصبها زملاء العمل ، وخصوصاً لأمثالي من السذج الذين لم يمارسوا الحياة العملية ممارسة تضمن لهم النجاة من أحاييلهم . .

لكن قريبي ذاك كان بمثابة الدرع الواقى ، يحميني من مكائدهم والأعيبهم ، وما أكثرها في حياة الموظفين .

وخالطت عشرات العمال وأكلتهم وشاربتهم ، ولمست عن كذب مشاكلهم المعقدة ، ورأيت بعيني رأسى المعارك الفظيعة التي كانت تنشب بينهم عند «الكوبرى السفلى» بالذات ، إذ يختبئ كمين من أبناء «المنوفية» فى انتظار أبناء «الغربية» ، وتسل الخناجر والمدى من أجل أمر تافه . . .

لقد كانوا يتكدسون بالعشرات فى الأماكن الضيقة السيئة التهوية، ولعل ضيق هذه الأماكن قد انعكس على نفوسهم فجعلها هى الأخرى نافرة متمردة، أضف إلى ذلك ما هم فيه من جهل وإهمال صحى وسوء تغذية ..

قبل عودتى النهائية إلى قريتنا بما يقرب من أسبوعين، أخبرنى أحد زملائى أن والدى قد أرسل لى شيئاً من الطعام كالمعتاد، وبه دجاجتان، وهو فى حوزة العمل «...». وهو أحد أصدقائى، لكن ما إن ذهبت إليه لأستلم ما بطرفه لى، حتى قابلنى بشراسة وسوء خلق لم أعهدهما فيه من قبل، ثم قذف فى وجهى بالأوانى الفارغة، وبيضعة أرغفة، ولم يكن فى مقدورى إلا أن أنصرف دون أن أنطق بكلمة احتجاج واحدة.

وبعد بضع ساعات كنت أسير متزهاً فى شارع رئيسى من شوارع المحلة، فرأيت صاحبنا غارقاً فى دمه، مستنداً على بعض المارة لوضعه فى عربه الإسعاف تمهيداً لنقله إلى المستشفى... وخيل إلى أنذاك أن هذا نتيجة منطقية للجهل والحياة التعسة التى يحبونها.



عدت إلى قريتنا ومعى الملابس الجديدة لى ولكل أفراد الأسرة، ومعى بضعة جنيهاً أيضاً... والغريب أن النتيجة جاءت على

عكس ما توقع والدى، لقد أصبحت موضوعاً للاحترام والتبجيل من كل من أعرف فى القرية . . .

وكان زملائى يحسدوننى على فكرتى الجميلة التى نجحت، وكثيراً ما سمعت أم أحدهم، وهى تقول له:

- انظر إلىّ يا سليمان بن عبد الدائم . . . ألا تستحى من خيبتك وبطالتك؟

- وتشاء الظروف ألا تكون فرحتى خالصة لا يكدرها مكدر فقد قدم مرسى أبو عفر شكوى ضد والدى لتأخره فى سداد الديون، وكان الموقف واضحاً لا غموض فيه، فإما أن يسدد أبى ما عليه، وإما أن يعرض نفسه للإجراءات القانونية التى لا ترحم . .

وذهب أبى هذه المرة إلى مرسى الذى أصبح أملك لزاماً الموقف وأقدر على المساومة؛ لأن سيف القضاء وصلت على عنق أبى . . .
قال أبى:

- أنت تعلم يا مرسى أنى دفعت لك حتى الآن نصف ما علىّ، ولم يعد فى مقدورى أن أدفع لك أكثر من ذلك هذا العام . . .

- وما ذنبى يا عبد الدائم؟؟ كل إنسان أولى بحقه يا صاحبى . .

- أنا لا أعارض فى ذلك . . . كل ما أرجوه أن تنتظر فرصة أخرى على أساس أن أدفع لك ما تراه مناسباً من الربح . .

- لا أستطيع يا عبد الدائم . . . إنها أموال ناس لا أمتلك منها شيئاً . . . لا تؤخذاني إنى مضطر إلى ذلك اضطراراً . .

قال أبى متضايقاً:

- قلت لك ألف مرة لا يهمنى أكانت أموالك أم أموال ناس . . لكن يجب أن تفهم الوضع وتقدر الظروف . . . ألسنت إنساناً؟

- سامحك الله يا عبد الدائم . . . هل هذا جزاء من أعانك فى الشدة؟

- أية إعانة يا مرسى . . ؟؟ لقد امتصصت دمي، وكدرت عيشي، وأخذت من الربى ما يوازي ربع ما اقترضه منك . . . أنت مستغل ليس لك قلب . . .

هل جئت هنا للشجار أم لدفع المبلغ؟ لن نصل إلى نتيجة بهذه الطريقة يا عبد الدائم . . .

وشعر أبى أنه تمادى فى غضبه ولم يعتصم بالكياسة والهدوء اللازمين فى مثل هذا الموقف، بينما بقى مرسى ثابت الجأش، ساكن العواطف، فقال أبى مستدركاً:

- أستغفر الله العظيم . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . . لا تؤخذاني يا مرسى، حقا على . .

- حصل خير . . . لو عرفت الحقيقة لعذرتنى ألف مرة . .

- كن أنت فى مكانى يا مرسى ، فكيف تتصرف . . ؟؟

- أنا مثلك يا عبد الدائم ، وفى رقبتي عائلة كبيرة تريد أن تعيش ،
أتظن أنك وحدك الذى تأخذ الأزمات بخناقه . . ؟؟ علم الله أننى
أشد منك حيرة وارتاباً . .

وعلم الله أن مرسى كاذب فيما يزعم ، فقد خرج من الحرب
بأسلاب كثيرة ، فمخازنه ما زالت مملوءة بالبضائع ، وحافظته تكاد
تنفجر مما بها من جنیهات ، وأصبح يمتلك بضعة أفدنة من أجود
الأرض ، غير أن أبى لفت النظر عن مزاعم مرسى ، وعن حركاته
المسرحية ، وجعل همه فى الوصول إلى حل يصرفه عن التماذى
فى القضية التى وضعها بين یدى القضاء ، لكن للأسف لم يصل
معه إلى حل ، وفى النهاية قال أبى :

- والآن . . ماذا ترى أن أفعل؟؟ قل كلمة واحدة . . أشر على . .

- قد لا يعجبك كلامى . .

- كيف؟ قل ما بدا لك ، إنى سأشكرك من أعماق قلبى على
نصيحك .

- فتردد مرسى برهة ، وتفرس فى وجه أبى ثم قال :

- لن تستطيع سداد ديونك إلا إذا سلكت طريقاً واحداً . .

- ما هو؟

- أعندك استعداد لأن تبيع لى نصف فدان من أرضك؟

واختلطت كل عضلة فى جسد أبى عند سماعه لهذا الكلام، وصور له شيطانه أن ينقض على مرسى ليفصل رأسه عن جسده، وصاح:

- آه يا مرسى يا وقح...!!! أهذه هى مشورتك؟؟ لولا خوفى من الفضيحة لعلمتك كيف تكون المشورة... أشك إلى المحكمة... اذهب إلى جهنم يا عديم الأصل... يا نذل..

كان من السهل أن يتركها أبى تمر ببساطة إذا كان الأمر يبيع جاموسة أو بقرة أو البيت الإضافى الذى تترك فيه بهائمنا وأدواتنا الزراعية، أما أن يبيع أبى الأرض بعد أن تحمل فى سبيل شرائها من عمى ما تحمل، وتعرض للضنك والعوز، فهذا ما لم يكن يخطر له حتى فى الأحلام. وكيف يترك أرض أبيه وجده لمرسى يدنسها بأقدامه؟؟ لقد كان مثل هذا الكلام لأبى يحمل فى طياته كثيراً من الاستفزاز والتحدى لمشاعره... إن أبى يستطيع أن يضحى بكل شيء إلا الأرض...



الفصل العاشر

وسافرت إلى طنطا . .

لم أحاول هذه المرة أن أغامر بالسكن مع أحد، إذ يكفيني ما تلقتته من دروس وعبر في الماضي، وانتقلت معي جدتي كي تجهز لي طعامي، وتغسل لي ملابسي وتسهر على راحتي، وتستغيث بكل نبي وولي عندما أشعر بوعكة خفيفة، وكان من حسن حظي أنها لا تعرف في طنطا الجزار ابن الجزار الذي يمكنه إخراج الذئبة من زوري . . . وأمكنني بجانبها أن أوفر لنفسي الهدوء والاستقرار اللازم، فكان استيعابي للدروس أكثر، وترددى على مشاهدة الشاشة البيضاء أقل، لكن جدتي كانت تريد أن تجعل مني آلة لا تفتر عن العمل، إذ كانت تحاسبني على كل صغيرة وكبيرة من شئوني، فكان استجوابي شيئاً لا بد منه عقب كل عيبة أو تأخر عن البيت، ولا بد من البحث عن وجوه الإنفاق التي أبعر فيها نقودي كما تزعم، حتى لعبتي المفضلة-كرة القدم-كانت تعتبرها إهمالاً وضياًعاً للوقت لا يليق إلا بالأطفال-قلت لها ذات مرة:

- يا جدتى العقل السليم فى الجسم السليم . والرياضة البدنية تقوى الجسم ، وتنشط العقل . . .

- رياضة . . .؟؟ يا سليمان دع هذا الكلام الفارغ . . إذا أكلت لقمة نظيفة كقطعة من اللحم مثلاً ، أو طبق قشدة ، فستجلب لك كل صحة وعافية .

- صحيح الأكل مهم ، لكنه ليس كل شىء يا جدتى . .؟؟

- اسمع كلامى واترك هذه الثروة . . . أتحاول أن تخدعنى وتقنعنى بأن الرقص ، والتنطيط ، والجري تقوى الجسم؟؟ . . . يا ولدى إن شعرى قد شاب . . . إن هذه الأشياء تقصف الأجل ، وتضحك الناس عليك . .

فضحكى وقلت لها : أنت أفكارك قديمة جداً يا جدتى . . أنت رجعية .

ثم وثبت من فوق الكنبه إلى حيث فرش حصير جدتى وأخذت فى مزاوله بعض التمرينات الرياضية . بينما أخذت هى تمصمص بشفتيها وتنعى حظ هذا الجيل المتمرد «المهووس» الذى يبعثر قواه وطاقته هدرًا ، ويبدو أنها ضاقت ذرعًا بى وبإصرارى على اللعب ، فقالت وهى تزمع الخروج :

- ستظل هكذا نحيفًا كالسنارة ، ولن تبدو عليك علامات الصحة والنمو ، مادمت راكبًا رأسك ولا تكف عن هذا العبث . .

حاولت إرضاءها فقلت :

- سأكف عن الرياضة يا جدتى . . . تعالى إذاً ولا تخرجى .

- لا ، سأتركك كى تقرأ لك كلمة تنفحك ، عند الامتحان يكرم المرء أو يهان يا سليمان . . .

- لن أذاكر الليلة .

فقلت فى دهشة : وله ؟ اللهم اخز شيطانك . ماذا حدث ؟ .

فقلت فى جدية واهتمام : اسمعى يا جدتى ، سأطلب منك طلباً وأرجو ألا تحرمينى من تحقيقه . .

- قل يا حبيبى . . روحى لك . . .

- ألا تأتين معى لمشاهدة رواية جميلة؟؟

- السينما؟؟

- نعم ، إنها جميلة جداً يا جدتى .

فقلت فى انبهار : ماذا جرى لعقلك يا سليمان . . يا قليل الحياء . . . أتريد أن تفضحننا .؟؟ أتريد أن تذهب لترى البنات العاريات والطلبل والغناء والمزامير؟؟

- وماذا فى ذلك ، سنرفه عن أنفسنا قليلاً . . .

- إنها بداية الخيبة والخسران . . . حذار أن أسمع منك هذا الكلام مرة ثانية لا فى الهذر ولا فى الجد .

- أنا أتكلم بصدق يا جدتى .

- اسكت عمى فى عينك ، قليل الأدب ، فاجر .

- الله يسامحك يا جدتى . . أتشتمينى هكذا؟؟ لن أكل ولن أشرب ، ولن أذاكر ولن أكلمك منذ الآن . .

وبعد قليل من الوقت جاءت جدتى وجلست بالقرب منى وقالت :

- لقد أعددت لك عشاء جميلاً الليلة يا سليمان . . اللحم والأرز والبطاطس؟

وكانت جدتى تعلم مدى حبى الزائد للبطاطس ، لكننى لم أجب حتى أوهمها بأنى ما زلت متأثراً من كلامها ، ولهذا ربت على ظهري ورأسى وهى تقول :

- يا رب لا تخيب له تعباً ، ولا تحرمه من أمه ، سليمان ابن عبد الدائم ، واكتب له طول العمر ، والوظائف العالية يا رب . . .



عندما ذهبت إلى المدرسة فى اليوم التالى ، وجدت الطلبة منهمكين فى المناقشات السياسية ، وفى ركن قصير من فناء المدرسة

وقف بعض زملاء «التوجيهية» وقد احتدم الجدل بينهم، وقال أحدهم:

- كذبوا علينا وقالوا ستنالون استقلالكم بعد الحرب، وها هي الحال مثلما كانت عليه بل وأبأس من ذي قبل . .

فرد آخر:

- يا أستاذ، الإنجليز لم يظهرُوا لنا طول تاريخهم الطويل معنا إلا الكذب ونقض الوعود، ليست ألعينهم بالجديدة علينا!!

وقال ثالث:

- كان يجب أن نفهم منذ أن تولى «صدقي باشا» رغم أنف الجميع، ودون استفتاء الشعب استفتاء حقيقياً، كان يجب أن نفهم أن هناك سياسة مملأة، وأموراً مدبرة في خفية عن الشعب، وفي غفلة منه . . .

- صدقت لقد أصبحنا بين نارين، ضياع القضية الوطنية في الخارج، والظلم السياسي والاجتماعي في الداخل، ولسنا ندرى ماذا نعمل . . .!!

- العمل هو ما أراده «صدقي» و«السراي»، مفاوضات ومحادثات ومباحثات، ثم مفاوضات ومحادثات ومباحثات من جديد، وهكذا تدور الدائرة على رءوسنا .

- الشيء الذى يغيظنى هو أن «صدقى باشا» قد نصب نفسه وكيلًا للشعب، ومتحدثًا باسمه فى قضيته الكبرى، ولست أدرى من أعطاه هذه الثقة . . .

- الملك طبعاً . . . لكن المهم عندنا هل تترك الأمور تجرى على هذا النمط المخزى؟؟

- لن يكون ذلك إلا على أشلائنا . . . لا تحالف مع الإنجليز بعد اليوم ولا معاهدات، وسيكون ارتباطنا بهم مدعاة لتأخرنا وضيعتنا . . . فلن نترك صدقى يتمادى فى تصرفاته . . . ألا تقرأون كتب التاريخ؟ أنسيتم أن صدقى هذا هو الذى ألغى الدستور، وأذاق الشعب الويل والشبور، رغم أنه كان يسمى حزبه حزب الشعب، وجريدته جريدة الشعب؟؟ . . . لا . . . لن نسكت أبداً . . .

- إن صدقى معه من القوة ما يجعلنا نسكت رغم أنوفنا .

- إن الشعب كله فى ثورة عارمة ضده .

- الملك والإنجليز يحمونه . . .

- ليس هذا جديداً علينا . . . لن نجعلهم يشعرون بالراحة والاستقرار فى بلادنا، حتى يجدوا أنه لا مفر من التسليم . . .

- وماذا ستعمل الهتافات والخطب الرنانة والسير فى شوارع طنطا؟

- إنها أصواتنا نطلقها فى وجوه الحاكمين، ولا بد أن تطرق
أسماعهم أرادوا أم لم يريدوا . .

وعلى هذا النمط دار الجدال الصاخب، وكان كل منهم يحاول
مقاطعة الآخر . ولم يكن هذا إلا صورة لما يحدث فى كل
المجموعات المتناثرة فى الفناء، وما إن صلصل الجرس، حتى علا
التصفيف والهتاف، وتسابق الطلبة إلى الشرفة التى يقف فيها عادة
زعماء الإضراب . .

وصاح صائح : « اليوم حرام فيه العلم . . .

« الجلاء بالدماء . .

يسقط الاستعمار وأذنا به . . .

تسقط سياسة المفاوضات . . . » .

وعلا الضجيج والصخب، واختلطت الصيحات بالتصفيف
والضرب على الكتب والكراسات، وظهر أقوام قد ركبوا أقواماً
آخرين، وزعيم يخطب ويصرخ من أعماقه، حتى احتقن وجهه
وصار مثل قطعة الكبد، والعرق يتصبب من جبينه، وشعره متفش
متناثر، يلوح بيده تارة ذات اليمين وتارة أخرى ذات الشمال،
والكلمات الملهبة تنتزع الهتاف من الخناجر، وتقابل بالحماس
المشتعل . . . ثم ظهر الناظر بابتسامته التقليدية وعوده القصير،

فارتفعت حرارة المظاهرة وازداد الحماس والهتاف الداوى، ثم أخذت الأصوات تخف رويداً رويداً حتى ترك فرصة للناظر كي يتكلم... قال الناظر:

- أبنائي الطلبة... لست أقل منكم وطنية، ولا أقل بغضاً للإنجليز ولكن...

فصاح أحد الطلبة: «عاش الناظر، الرجل الوطنى». فردد الطلبة الهتاف، بينما رفع الناظر يده بالتحية وقال: «متشكر»، ثم استطرد: «لكن اعلّموا يا أبنائي أن واجبكم الآن، وفي هذا المكان، هو العلم.. العلم أولاً».

فرد أحد الطلبة هاتفاً: اليوم حرام فيه العلم.

فبان الضيق والغضب في وجه الناظر، لكنه تمالك نفسه وقال: من الذى حرم العلم فى هذا اليوم؟ إن هذا زعم باطل، بل إنه لما يثلج صدر المستعمر أن نبقى فى ظلام الجهل، ونتبع كل ناعق، ونفتح بالمظاهر والحركات الجوفاء التى لا مدلول لها غير جهلنا بقضيتنا وظروفنا السياسية... واطبوا على العلم، وانهلوا منه ما استطعتم، وبهذا تستطيعون أن تطردوا الدخيل من أرضكم وتنالوا حريتكم أما التهريج والفوضى التى لا طائل تحتها فهى التمكين للمستعمر، ومعاونته على بلوغ مراميه...

فهتف زعيم الطلبة فى إصرار وحماس:

- بالدماء تحرر الأوطان... أرواحنا فداء مصر... فقال الناظر
منهياً حديثه: ليس هذا من شأنكم أنتم.

بل هو من صميم عمل أولى الأمر، فإذا ما جد الجدد، ولزم
الأمر التضحيات فسيندبونكم لخوض المعارك، وإنى لأكرر لكم
النصح، وأرجو أن تستجيبوا لقولى، وتعودوا إلى فصولكم،
والسلام عليكم..

كنت أرقب هذه المشاهد كلها عن كثب دون أن أدفع بنفسى فى
غمارها، وكانت نصائح عمى تبرز إلى ذهنى بوضوح؛ لأنها كانت
تنطبق انطباقاً كاملاً على ما قاله ناظر المدرسة، لهذا فضلت أن
أذهب من فورى؟؟ إلى الفصل، مغالبًا شعوراً فطرياً يعتمل فى
نفسى، ويحرضنى على المشاركة فى التهريج، ويحبب لى التسكع
فى الشوارع، والتخفف من مسئولية الدروس إلى حين، لكنى
كظمت هذا الشعور. وعادت الحرارة والاشتعال إلى جموع الطلبة
من جديد، وكانوا مصرين على الخروج إلى الشارع، والتظاهر
العلنى رغم كل شيء، ودون التفكير فى أى عاقبة، لأن الحماس
يعمى، والثورة تدفع الإنسان دفعاً إلى السير فى الطريق. ولفت
نظرى أن «سعيد» من أوائل المتحمسين والثائرين، بل كان يسخر
من الطلبة الذين فضلوا الذهاب إلى الفصول، بل ويتهمهم بالخيانة
والجبن والطفولة، وبدا أن الطلبة قد انشطروا شطرين: أولهما:

يفضل مواصلة الدراسة، وهم أقلية، وثانيهما: مصمم على التظاهر مهما كان الأمر، لكن موقف الفريق الأول أضعف من موقف الفريق الثانى الذى جن جنون أصحابه، وأخذوا يحطمون فى أثاث المدرسة. ولمحت سعيد حافظ يهز «الدرابزين» الخشبى فى غيظ وحقد ثم يتنزع اللافات وينزع اللوحات المنبثة فى المدرسة هنا وهناك، فمشيت وراءه وحاولت الحديث معه، قلت له:

- هل جنت يا سعيد؟؟ ماذا يجدى هذا التحطيم والتكسير!! لا شيء غير الخسائر...

فالتفت إلى ورشقى بنظرات غاضبة، وضغط بأسنانه قائلاً:

- وما شأنك أنت؟؟ اذهب أنت إلى الدرس مع أمثالك من الأطفال واتركنا نفعل ما نشاء...

فعلمت أنه لا سبيل إلى التفاهم معه وهو فى ثورته، فابتعدت عنه قليلاً لأرقب ما يفعل من هذه التصرفات الرعناء...

ولقد حاول زميل آخر أن يثنيه عما يقترف، فرفع سعيد قطعة من الخشب وهوى بها على ظهرة، ولولا أن أفلت الزميل وجرى بعيداً عنه لتركت فيه جرحاً كبيراً...

وتطور الموقف تطوراً لم يكن فى الحسبان، لقد بيت المتظاهرون أمراً، إذ قرروا الاعتداء على «الجبناء» الذين تسللوا إلى الفصول

ليواصلوا الدراسة، ولم أسلم من بعض اللكمات والصفعات فى هذا اليوم، وكان سعيد فى مقدمة المتحمسين المعتدين - لا على أنا بالطبع - لكن على غيرى ممن لا تربطهم به صداقة ولا معرفة، وقرر الناظر تعطيل الدراسة فى هذا اليوم تفادياً للأخطار، وفتح الأبواب على مصاريعها ودعانا للخروج، فتدفق سيل الطلبة، والهتافات تدوى بعنف، ولم نكد نبرح المدرسة ونسير فى الشارع مسافة قصيرة حتى ظهرت عربات الشرطة، ونزل منها الجنود بقبعاتهم المعدنية، وعصيتهم الغليظة.

حاولوا التفاهم مع زعماء المظاهرة لكن دون جدوى، فقد ظن الطلبة أن هذا لم يحدث إلا لأن الموقف فى يدهم هم لا فى يد رجال الشرطة... وفى لحظات كنا نجري فى كل اتجاه، والعصي تنهال علينا، واستطاعوا أن يقبضوا على بعض منا، ويحشروهم حشراً فى عرباتهم لحجزهم فى الأقسام.

وكان سعيد حافظ ضمن من ساقوهم إلى «الحبس الاحتياطى». كنت أجري لاهث الأنفاس، متصبباً العرق نحو مسكنى... وأخذت أستعرض ما فات فى هذا اليوم العصيب. شىء واحد كان يحيرنى تماماً، وهو أمر «سعيد»، لقد كان ثائراً هداماً يحطم بلا شفقة ولا رحمة، وكان يزاول ما يعمل وهو مؤمن به، متحمس له غاية التحمس، بل كان يفنى فيه فناء تاماً، حتى لكأن القمطر

واللافتات، والنوافذ التي كان يكسرها ليست من خشب، وكأنها جنود إنجليز . . .

هل كان سعيد وهو يقترب هذه الأعمال يثار لجده أم يتقم لأخته المفقودة بسيمة؟؟

هل كان يصب لعته على الحرب أم على المآسى التي خاض أبوه غمارها؟

لقد كان سعيد حافظ تعبيراً صارخاً عن بيئة مظلومة، وأوضاع مقلوبة، واستبعاد طويل الأمد، وكنت أظنه قطعة من أبيه الذي عاش طول حياته-وما زال-يجعل السياسة مادة حديثة، وسلوته في دهره، وكنت أعتقد أنه امتداد لجده الضابط الشائر المطارد، ومعركة من معاركه الطويلة مع الإنجليز . .

والآن ما العمل؟؟ إني لا أستطيع أن أعمل لسعيد شيئاً . . .

كل ما أقدر عليه أن أرسل له شيئاً من الطعام والمال يكفيه هذا اليوم، ثم أقصد من فوري إلى «القرشية»، كي أروى لوالده ما حدث بالتفصيل . . .



وصلت إلى بيت الشيخ حافظ في «القرشية»، فنظر الرجل إلى مشدوهاً . . . لم يكن سعيد معي، لهذا طارت نفسه شعاعاً من الخوف والهلع . . !

- أين سعيد يا سليمان؟؟ هل حدث شيء...؟

قالها وهو يكاد يبكي من أثر الانفعال الشديد الذى ظهر جلياً على وجهه، فقلت له :

- اطمئن ... لم يحدث ما يستوجب الانزعاج .

ومع هذا لم يدخل الاطمئنان إلى نفسه، فأنساه ذلك أن يدعونى للدخول، بل انتظر منى أن أكمل حديثى، وأفسر له الأمر حتى يهدأ خاطره، ومن يدرى؟ لعل مأساة بسيمة أخذت تراوده من جديد، وتوحى إليه بالأفكار السوداء، وتصور له نكد الظالع الذى يلزمه... هل كان قلب الشيخ حافظ دليلاً كما يقولون؟؟ أظن ذلك. فقد بادرنى بالسؤال الآتى :

- لقد سمعت أن فى طنطا مظاهرات اليوم فى المدارس والجامع الأحمدي، فهل أصيب سعيد بسوء؟

شرحت للشيخ حافظ ما حدث، وبدا عليه فى أول الأمر ظلال من الوجوم، لكن الشيء الذى أدهشنى حقيقة، أن الشيخ حافظ قد انشرح صدره بعد ذلك، إذ لم يخف على شعور الفخر والفرح الذى غمره... لقد صار سعيد رجلاً وطنياً فى نظر أبيه، ومن الفخر أن يقبض عليه، ويودع فى الحبس الاحتياطى من أجل قضية بلاده، ومن أجل ثورته ضد نظام الحكم الفاسد وأعوانه من الإنجليز... لقد حرمت الأقدار الشيخ حافظ الشار من

الإنجليز . . . كما حرمت أباه ثمار النصر من قبل ، فلعل ما فاتة
يمكن تحقيقه على يد ابنه سعيد . . . ، وهتلر الذى كان الأمل معقوداً
عليه كى يؤدب هؤلاء الأوغاد جرفه التيار هو الآخر ، ولم يدع
وراءه غير الذكرى الباكية التى تنهافت على الانقراض والخرائب
المبتوثة فى شتى أنحاء ألمانيا . . .

قال الشيخ حافظ ونحن فى طريقنا فى اليوم نفسه إلى طنطا :

- الأمر بسيط . . . فلانى لى صلة ببعض الموظفين بالمديرية وهم
يعرفون المدير معرفة وثيقة ، وأعتقد أن سعيد سيطلق سراحه فى
أقرب وقت .

- إن شاء الله . .

لقد حسبت أن الشيخ حافظ سوف يثنى على موقفى لأنى تجنبنت
هذه الأزمة ولم أشارك الطلبة فى مظاهراتهم وعنفهم ، وخرجت
من ذلك سالماً . لكن يظهر أن موقفى هذا لم يلفت نظر الشيخ
حافظ ، ولم يحظ حتى بمجرد كلمة تقريظ واحدة منه ، مما جعلنى
أشك فى سلامة تصرفى ، وأتذكر ذلك الوصف المقوت الذى
وصمنا الطلبة به حينما قالوا «يسقط الجبناء» ، وشعرت بالتحجل
يضرج وجتى ويسيل عرقى ، فأحس بالتضاؤل المشين . . . لكن
كلام الناظر المنطقى السليم ، ونصائح عمى المنقوشة على صفحة
قلبى أمدتنى بالسلوى والعزاء ، وأرجعت إلى ثقتى فى سلامة

تصرفاتى ، وصحة سلوكى ، وحينما استقر بنا المقام فى مسكنى المتواضع قلت للشيخ حافظ :

- لقد حاولت جاهداً أن أصرف سعيداً عن التحطيم والتكسير لكنه غضب منى :

فانطلقت جدتى تقول : كلكم شياطين سواء أنت أو هو .

ثم اتجهت إلى الشيخ حافظ وقالت :

- لازم تحسن تربية ابنك وتقسو عليه . . . إن هؤلاء الأولاد الملاعين لا يعرفون النفع من الضرر ، فيورطون أهليهم فى المشاكل ، ويجلبون لهم المصائب .

فابتسم الشيخ حافظ مظهراً شكره لإخلاصها فى نصيححتها وقال :

- لا شك أن الله سيصلح الأحوال . .



عدت إلى المدرسة فى اليوم الثانى ، وصورة الأمس لا تفارق ذهنى ، وآثار المعركة من أخشاب وأوراق وطوب ما زالت متناثرة هنا وهناك . قلت لأحد أصدقائى :

- أعتقد أن الدراسة ستتظم اليوم؟؟

فقال فى دهشة :

- دراسة؟؟ كيف هذا وزملاؤنا مودعون فى الأقسام؟

- وماذا نعمل لهم؟؟

- من باب الرفاء أن نطالب بعودتهم إلى المدرسة فوراً، فهم لم يسرقوا ولم يقتلوا حتى يعاملوا هذه المعاملة ..

- ألم يمتنعوا عن الدروس ويحطموا الأدوات، ويعتدوا على زملائهم بالضرب؟ فهل هذه وطنية وزمالة، أم عبث وجنون؟

- دعنا من هذه الأمور، فهى كثيراً ما تحدث، ولا تخلو منها مظاهرة من المظاهرات، المهم عندنا الآن هم أولئك الطلبة الأبرياء المحجوزون لدى الشرطة ..

- لا تقل أبرياء لأنهم متهوسون ومجانين، أشوهون جلال اليوم ويقلبون المظاهرة إلى شجار بين أبناء المدرسة الواحدة؟؟ هل هذه تصرفات عاقلة؟؟

- لا تقسُ هكذا يا سليمان . . . إنهم إخوانك، وما ثاروا إلا من أجل حريتهم المسلوبة ، فإذا كان هناك شىء من التطرف أو الخطأ فيجب أن يغتفر لهم ..

- يا صديقى، لقد كانت دور الخيالة متكدسة بهم فى الأمس ..

- ومن أدراك؟

- لأنى شاهدتهم بعينى رأسى يتسابقون إلى الحفلات النهارية بعد
تفريق المظاهرة!!

وقطع حديثنا حدوث ضجة واضحة من مكان المظاهرة
الأمس...

- لا انتظام بدون الطلبة... أفرجوا عن الأحرار... الإضراب
حتى تجاب مطالبنا... يسقط عهد الظلم والاستبعاد...
وردد مئات الطلبة الهتاف...

وفى اليوم نفسه صدر قرار بإغلاق المدرسة لمدة أسبوع، وكتبت
قوائم بأسماء الطلبة بعد تقسيمهم إلى ثلاث فئات حسب
خطورتهم، وكان اسم سعيد بالطبع فى قائمة الخطيرين الذين لن
يدخلوا المدرسة قبل أسبوعين على الأقل، أما أنا فنظراً لسلوكى
الذى لا غبار عليه فقد كنت فى مقدمة الداخلين...

لقد فات سعيداً بعض الدروس، وضاعت منه بعض الفرص
العلمية، ومع هذا فقد كان سعيد كبيراً فى عيني، وأدعى إلى
الاحترام والتقدير عن ذى قبل، وكنت أسمعته وهو يردد نواذره
وهو محبوس فى القسم، فأشعر بشيء من الغيرة لأن الله حرمنى
مثل هذه الفرصة... وقلت لنفسى:

- ماذا؟؟ هل أريد أن أكون مشاعبًا هدامًا مثل سعيد؟؟ هل أعرض نفسي لهذا الأسلوب الفوضوى للتعبير عن وطنيتى...؟؟ ألم يكن الأجدر بى أن أقبل يدى ظهراً لبطن لموقفى الذى وفر على وعلى أسرتى بعض المتاعب؟

ولا غرابة فى أن يراودنى مثل هذه المشاعر المختلطة المتضاربة، فشعور الثورة والنقمة على الأوضاع الفاسدة قد ملأ النفوس، بالإضافة إلى حيويتنا وشبابنا الباكر، ورغبتنا فى حياة أفضل... لكننا لم نكن نعلم الطريق الصحيح، لأن طول الاستعباد، والأعيب السياسة فى الداخل والخارج، قد طمست المعالم، وبلبلت الأفكار، فاختلفنا وتباعدنا، وأن الذى حدث فى المدرسة وفى الشارع ما هو إلا ترجمة حية لهذه الفترة من تاريخنا...





الفصل الحادى عشر

هل صحيح أن الظلام والأرق يجسمان الأوهام، ويكبران الأحلام، فيحيا الإنسان فى جو من الأكاذيب والخدع ويتمادى فيه، فإذا ما صدمته الحقيقة شعر بالألم والخيبة وترك لدموعه العنان؟؟ وهل ما حدث فى تلك الليلة كان تطبيقاً لهذه النظرية...؟؟ لقد نمت كعادتى فى كل ليلة، ونمت لكى أرى «بسيمة» على غير ميعاد... يا لها من رؤيا... كل شىء فى بسيمة كان قد تغير، لقد طال عودها واكتنز، وانتفخ صدرها، وامتلاً عنقها، . كانت تمشى بلا غاية أو هدف، ذاهلة عن كل ما حولها حتى أنا.. حاولت أن أجاذبها الحديث فلم تلتفت إلىّ، كنت أكلّمها من صميم قلبى وروحى، معبراً عن مكنون مشاعرى، لكنها لم تعرنى التفاتاً. قلت لنفسى: «ماذا جرى لها؟؟» هل نسيتهنى لطول العهد أم أنها وهبت قلبها لغيرى؟؟ وشعرت لهذا السؤال الذى ترددت أصداؤه فى كيانى شعور الحسرة والهزيمة والإهانة لعواطفى، فانطلقت وراءها من جديد... كنت ألج..

وأطارده... وأبكى... وكانت توشك أن تلتفت إلى -أو لعللى خيل إلى ذلك- لكننى صحت من نومى... لم أتذكر شيئاً آخر من الرؤيا غير هذا.. كان هناك أشخاص وحوادث وأماكن، لكنها لم تعلق فى ذهنى لأنها كانت مشوهة غامضة.

تلفت بعد أن صحت فرأيت الظلام مطبقاً، والسكون شاملاً، وأخذت أستعيد ما رأيت فى نومى، وأقارنه بماضى مع بسيمة ونحن أطفال أغرار ودُعاء، وغمرنى سيل جارف من الحنين والشوق إليها.. «يا عجباً، أهكذا تستثيرنى ذكراها، فتلعب بى أضغاث الأحلام وتهاويل المنام؟؟ لقد انتهت بسيمة، وطويت صفحتها إلى الأبد، ومضى عليها ما يقرب من ثلاث سنوات. فقيم التزوع إليها والتمسك بهواها؟؟ يا لعقلى المسكين! ذلك الذى يتعلق بالمستحيل، ويجرى وراء السراب... إن شوارع طنطا وحاراتها ملأى بالعشرات ممن هن أجمل من بسيمة، وأتق منها بمراحل، أفلا يكون فيهن عزاء وسلوى حتى أنسى تلك الصورة التى اندثرت أو بهتت؟؟».

ولعب الظلام دوره مستعيناً بمراهقتى وحرمانى، فوجدتنى أعود لتذكرها ليلة سفرها إلى الإسكندرية، حينما كانت تحدثنى عن البحر الكبير ذى الضفة الواحدة، وعن النساء اللاتى يسبحن فيه عاريات بلا خجل أو حياء، وعن العمارات الكبيرة، والعربات

الكثيرة، والحلوى والفواكه المعروضة فى كل مكان ، ثم سارع شيطانى وقدم لى صورة أخرى . . . صورة لغارة عنيفة مدمرة من غارات تنسيق الألمان على الإسكندرية، والناس يجرون فى كل اتجاه خوفاً من الموت وطمعاً فى الحياة، ويسيمة الصغيرة هى الأخرى حائرة مرتجفة بلا أم تحنو عليها، ولا أب يأويها، تتلمس الطريق إلى أحد المخابى، والدموع تتسابق عن عينيها، ثم تفاجئها القنابل المتهاوية من السماء قبل أن تصل مأمنها، ولعلها كانت تصرخ وتستنجد، ولعلها تمسكت بأهداب أحد الهارين، وحاولت اللجوء إلى كنفه، فدفعها بعيداً عنه فى غلظة . . . ثم . . . ثم أصابتها شظية فصلت رأسها عن جسدها، وقذفت بكفها الجميلة إلى مكان، وقدمها الصغيرة الدقيقة إلى مكان آخر . . . ووصل خيالى إلى هذه الصورة البشعة، فجرت دموعى فوق خدى دون أن أشعر، وما إن أحسست بذلك حتى مددت يدي لأمسحها، وصدرى يبعث ببعض التهذبات، فسمعت جدتى تقول وهى واقفة عند رأسى محمقة فى وجهى :

- ألف سلامة تلبس بدنك يا حبيبى . . . أتبكى؟؟ قم يا سليمان . . . هل أنت مريض يا ولدى؟!

وارتعدت فرائضى من أثر المفاجأة، وقمت من سريرى وأنا

أقولها :

- لا شيء... أريد أن أشرب لأنى شديد العطش.

- فقيم بكاؤك إذا؟؟

- لا أعرف، لعلها رؤيا مفزعة..

- خير إن شاء الله يا حبيبي.. البكاء فرج قريب..

- كل خير إن شاء الله.

وبالطبع لم أتم بقية ليلتى تلك، ولم تغادر صورة بسيمة خيالى مطلقاً، أعنى بسيمة الجديدة بشابها الريان، ووجها النضر، وعينيها الذاهلتين الحاملتين. وحاولت أن أصرف عن نفسى صورة الغارات القاسية التى كانت تهز الإسكندرية هزاً، وترك عشرات الضحايا تحت الأنقاض وفى الشوارع...

وتضايقت من نفسى لاستطردى فى عرض هذه الصورة المؤلمة فقلت:

- وبعد؟؟ أليس لهذه الأفكار الحالكة من نهاية؟ وأخيراً وثبت من سريرى، وغادرت الحجرة قاصداً المياه، وجدتنى ما زالت تطاردنى بأسئلتها القلقة عما بى، وعن سبب الأرق الذى انتابنى، لكننى أؤكد لها أنى بخير، فتبادر من باب الاحتياط إلى، وتتمتم بتعاوذها المعهودة، وتستعيد بالله والأنبياء وتستنجد بهم ضد من «رأونى ولم يصلوا على الحبيب النبى»، وتمرر يدها

العجفاء على جسدى ، وتأسف أعمق الأسف لأنها لم تحتط
لمثل هذه الظروف ، وتحفظ بمقدار من «الشبة والفاسوخة» وهما
عماد كل علاج عندها ، والعامل المضاد لهواة الحسد ذوى العيون
الصفراء كما كانت تسميهم دائماً . . .

وفى الصباح تناولت إفطاري على عجل وبدون شهية ،
ومضيت إلى المدرسة ، وكان جو اليوم وجو المدرسة أيضاً شاحين
كثيين انعكاساً لما انتابنى من قلق ووحشة فى ليلتى الماضية . . .
لكن هذه الكأبة خفت حدثها قليلاً عند رؤيتى لسعيد . . .

لقد ازداد حبى لسعيد حافظ ، كانت هناك أوجه شبه بينه وبين
أخته بسيمة . . . ضحكته . . . نظراته . . . غضبه . . . إخلاصه ،
والإيحاء الغامض الذى يشيع منه إلى إذا ظهر أو تكلم أو ذكر فى
أية مناسبة . . .

لذلك لم أكن أفارقه ونحن فى المدرسة إلا أثناء الدرس ؛ لأنه
كان فى فصل غير فصلى ، حتى الدقائق الخمس التى بين كل
درسين كنت أنتهزها وأسارع للقاءه ، وكنت أوصله كل يوم حتى
سيارته ، وأشعر أن شيئاً ما ينقصنى إذا ما فارقت . . . وكنت أشعر
بالوحدة والضيق إذا ما تغيب يوماً عن المدرسة لعذر طارئ كمرض
أو خلافه ، وأحسست أننا أكثر من صديقين تجمعهما رابطة قديمة فى
السكن ، وعلاقة حديثة فى المدرسة . وكان شعوره ناحيتى يكاد

يشابهنى إن لم يزد، ورغم اختلافنا فى الوسائل السياسية، والاستجابة للمظاهرات، ورغم ما كان يحدث بيننا من تباين فى وجهات النظر، فقد كانت تلك الأخوة الوثيقة تجمعنا فى ظلها الوارف الواسع، وتغفر لنا التوافه والصغائر من الأمور التى لا بد أن تشوب الصداقات . .



قبل انتهاء العام الدراسى، وصلتني رسالة من عمى سررت لها كثيراً.

قال عمى فيها: « . . . إن الذى يعيش فى القاهرة يا سليمان، ويقضى أيامه فى العمل الشاق، يحس بأنه يفتقر إلى شيء ما، فالحياة المادية البحتة - رغم أن هناك ما قد يملأ فراغها - تبعث النفس الكثير من الملل والسآمة . . حقاً ستذهب إلى عمك . ثم تعود إلى مسكنك، وأنت فى ميسس الحاجة إلى الراحة، فتروح فى سبات عميق، وقد تزور زميلاً أو تجالس صديقاً أو تقرأ كتاباً، كل هذا لن يسد كل حاجاتك . . لهذا وجدتني فى حاجة إلى من أجد عنده شيئاً من الزاد الروحي والهدوء النفسى . . . إلى إنسان أشعر أنه أشد التصاقاً بي، وأكثر اهتماماً بأمري ومشاكلي، وأعمق مشاركة لآمالي وأفكاري . . . وفعلاً فكرت . . . وبحثت . . . ووجدت ما أريد . . فتزوجت . .

قد تعجب لأنى أصبحت رب أسرة وأنا أشرف على الأربعين من عمرى . . لقد أدركت حقيقة فراغ أيامى بعد فوات الآوان، لكن لا بأس من أن أسدد هذا الفراغ رغم أنى فى سن الأربعين

وقد تظن أنى جلبت لنفسى أثقالاً فوق أثنالى، وأضفت إلى متاعبى شيئاً جديداً؛ لأن مورد رزقى لا يكاد يفى بكل حاجاتى منفرداً فما بالك باثنين؟؟ لكن الله لم يتركنى وحدى فى خضم التبعات والآلام . . .

إن زوجتى أرملة تكاد تقرب منى سنًا، وهى تفهم أنها لم تأت للبذخ واللهو؛ لأن تجربتها وسنها وأصالة منبتها تحرسها من مثل هذه النزوات الطائشة . . . وعلى أى حال فهى لم تكلفنى كثيراً . . . لقد جاءت إلى بأثاثها وملابسها، ولم أكلف نفسى إلا بعض الهدايا البسيطة . . . وهى بجانب ذلك تستطيع أن تخطط الملابس، ولها بعض الزبائن الذين يتعاملون معها وإن كانوا قلة . . ولم أجد فى ذلك ما يشيننى أو يشينها، فليس الكسب عن طريق العمل الشريف مما يبعث على الغضاضة.

الآن لا أكاد أعود من عملى حتى أجد اللقمة الطيبة المتواضعة، واليد الحانية التى تمسح عن جبينى عرق النهار، أو مشقة الليل، وأجد جواربى مرتقة، وملابسى نظيفة، وفوق ذلك الراحة النفسية

التي تغمرنى بفيضها حين أجد من أبته خواطرى، وأقطع فترات الفراغ والراحة فى مسامرتة وألجأ إليه حين يدهمنى داهم، أو يلم بى شىء مزعج . . .

لقد كانت زيجتى هذه تجربة جميلة انشرح لها صدرى، وما أظننى إلا محظوظاً سعيداً رغم حياة الكفاف، والذكريات الماضية التى قد تطوف بذاكرتى أحياناً، لكنها لا تستطيع أن تستبد بى طويلاً لأن زوجتى تسلىنى، ولا تتركنى لمثل هذه الأوهام والذكريات وقتاً طويلاً . .

وبهذه المناسبة يسرنى أن أخبرك بأن «منيرة» -وهذا اسمها- تحبك حباً شديداً، وتتوسل إلى ليل نهار أن أطلب منك إرسال إحدى صورك «الفوتوغرافية»، وما أظنك إلا مجيباً طلبها، ولا عجب فى ذلك، فأنت كثيراً ما تكون مادة الحديث بيننا، بل وأكثر من ذلك أنها قد اقترحت اقتراحاً جميلاً، فوافقت عليه من فورى، ولكنى لن أخبرك به الآن، وموعدنا بعد نجاحك هذا العام إن شاء الله . .

بقى شىء . . .

إن جدتك لا شك ستتأثر وقد تغضب منى وتبكى لأنى لم أستشرها فى مسألة زواجى أولاً، ولأنى لم أدعها إلى حفلة الزفاف ثانياً، ولأنى تزوجت من «قاهرة» ثالثاً . . لكن أرجو أن

تطمئنهما يا سليمان، فإن اعتراضاتها الثلاثة ستذوب حينما تأتي -
أنا ومنيرة- لزيارتكم في العيد إن شاء الله .
وأخيراً أدعو لك بالتوفيق . . ولا تنسَ جانب الله في حياتك،
وابتعد عن المظاهرات واهتم بدروسك . . .



سارعت إلى جدتي وقلت لها:

- معى لك خبر جميل . . .

- خير إن شاء الله يا سليمان ما هو؟؟

- لا، لن أقول إلا بعد دفع الثمن . .

- عيناي لك .

- لن يخدعنى هذا الكلام، هذه هى كفى ممدودة إليك فضعى
فيها مبلغاً محترماً، وبهذا تسمعين النبأ السعيد . .

- وحياتك عندى، وحبى لك -وهو أعز قسم عندى- لأعطيك ما
تريد . .

- اسمعى يا جدتى . . . لقد تزوج عمى من مصر .

- تزوج عمك؟؟

- لا تمزح يا سليمان . .

- أقسم بالله أن هذا حدث . . .

- ومن مصر؟؟

- أجل من مصر وإليك الخطاب .

- كيف تم ذلك دون أن نعلم؟؟ هل تزوج بلا طبل وزمر وكعك وعزائم...؟؟

- هذه مسائل غير مهمة . . لقد تزوج وانتهى الأمر .

- لا بد أنه كان مأثماً ولم يكن عرساً . . وبان التأثير على جدتي وقالت :

- سامحه الله . . . أيتزوج فريد دون أن أعلم؟

ثم غلبها البكاء وقالت :

- مسكين يا ولدى . . . غريب طول عمرك . . . لم تجد من يفرح ولا من يزغرد لك . . .

- ولم لا تفرحين له هنا يا جدتي؟؟ ألا يكون الفرح إلا هناك فى القاهرة؟

- لكن يا ولدى أنت صغير ولا تعرف الواجب والأصول التى درج عليها كرام الناس يا سليمان . . .

- على كل حال حقق علىّ بدلاً من عمى ، ولتكونى مطمئنة فسيحضر إلى البلد بعد شهرين - فى العيد - وسن عقد الصلح بينكما ، واعملى له ما شئت من كعك وعزائم .

- ألم يقل لك عن صفاتها وأحوالها كلمة واحدة؟
- لقد قال الكثير، فاسمها «منيرة» وهى أرملة و... فقاطعتنى جدتى وقالت فى استنكار وأسف:
- أرملة؟؟ طبعاً، لأن عذارى مبصر لا يحمن حول الفقير الكادح مثل عمك...
- يا جدتى ليست العبرة بالعذارى أو الأرامل، يكفى أن تكون زوجة طيبة مؤدبة، ومحبة لزوجها مطيعة لأوامره.
- اسكت يا سليمان... أنت لا تدرك الفرق لأنك -كما قلت لك- طفل صغير، تأكل من أى طعام يقدم لك... زواج العذارى متعة وسعادة...
- لكنها استدركت قائلة: قم أنت لتذاكر دروسك...
- وأين الثمن الذى وعدتني به عند سماعك الخبر؟؟
- غداً سأجهز لك أكلة طيبة...
- لا دخل لى بالأكلات... إننى أريد نقوداً...
- لكى تذهب إلى الروايات الفارغة... طبعاً...
- أبداً يا جدتى...
- إذا، فلماذا تطلب النقود؟

- أليس هناك غير الروايات فى نظرك يستحق الإنفاق؟

ولم تجد محاولاتي أذنًا مصغية لدى جدتى كى أنتزع منها قرشين أو ثلاثة، بل تركتنى وأخذت تردد بعض الأغنيات الشعبية المتداولة فى الأفراح، بصوت خفيض ترعشه الشيخوخة، ويرويه الحب والحنان الأموى الفياض، لقد كانت تغنى لعمى «فريد»، لظالما ألت عليه أن يتزوج من زمن بعيد، أيام أن كان يملك فدانًا ونصف من الأرض الطيبة، لكنه كان يتكاسل ويتهرب منها ولا يعبأ بإلحاحها وتوسلاتها المتكررة، وكانت أغنيات جدتى رغم قدمها وبساطتها وأدائها المضحك تثير فى نفسى الكثير من الحنين والعواطف، وربما لأن هذه الألحان خفقات من قلبها، وذوب مشاعرها، وترنيمة روحها... قلت لها فى خبث: - يا جدتى إن صوتك جميل... جميل جدًا..

- يا ولدى لا تسخر من شيتى، ودعنى فى حالى..

- أتشكين فى كلامى يا جدتى؟؟ والله إن غناءك ليحرك نفسى...

فسرحت جدتى ببصرها تنظر إلى اللاشئ وهى تقول:

- رحم الله أيام زمان.. كان صوتى مثل الكروان..

وكان العرس الذى لا أغنى فيه يعتبر سئ الحظ، ناقص الأفراح... الله يرحم جدك.. كم تعب وشقى وتشفع إلى أبى حتى يتزوجنى..

- هل كان جدى يحبك لهذه الدرجة؟

- وأكثر من ذلك . . كان يقف الساعات الطوال حتى يرانى حينما أخرج إلى الترعة لإحضار الماء ، أما اليوم الذى لا أخرج فيه كان يحوم حول البيت ، ويظل يلف ويدور حتى يرانى فيرجع من حيث أتى ، وكأنه «أبو زيد الهلالي» .

وظلت جدتى سابحة فى خيالاتها وذكريات ماضيها ، ثم قالت حانقة :

- يا سليمان ، الحب فى هذه الأيام ما هو إلا ميوعة وخلاعة وقلة دين . ولا أنسى «العلاقة» التى تلقيتها من أبى حينما غما إلى سمعه أننى أثناء عودتى من الترعة تكلمت مع خطيبى - أى جدك الله يرحمه - أما اليوم فلا حياة ولا شرف ، والناس قد تغيروا يا ولدى . . ويظهر أن الدنيا فى آخر أيامها ، فالحديد أصبح يتكلم ، ويطير فى الجو ، ويمشى على قضبان ، والصور تجرى وتتحرك ، والنور يسرى فى الأسلاك ، إن رأسى يدور ، وأكاد لا أعى ما أمامى من هول ما أرى من العجائب . .

ولم أشأ أن أثير ثائرة جدتى ، أو أقطع عليها أحلامها ، أو أنتزعها من الجو الجميل الذى تسبح فيه ، كانت تتكلم عن الماضى وأحداثه وتقارنه بالحاضر وعجائبه ، فلا أملك إلا الاحترام والتوقير للجيل الماضى هو يتكلم . . . لقد كانت جدتى فى نظرى -

حينذاك . . تحفة فنية قديمة ، وأثراً خالداً جميلاً ، وأيقظتني جدتي من تفكيرى فى أمرها حين قالت :

- ما كان أجمل أيام زمان ولياليها الفريدة !!! كانت العروس تزف لدار خطيبها وهى فوق فرس جميل خفيف الحركة ، يتراقص فى مشيته على أنغام الطبول والمزامير ، وسط الزغاريد والموائد العامرة . أما الآن فإن العروس تذهب إلى بيت عريسها فى خمس دقائق فى عربة تنطلق كالصاروخ أو مشياً على الأقدام كما حدث لزوجة عمك . . فقلت : هذا زمان السرعة يا جدتى .

فقلت فى ثورة :

- بل زمن الحروب والشيطنة والفساد والخيبة التى حطت على الناس جميعاً . .

- سامحك الله يا جدتى .





الفصل الثانى عشر

حينما عدت إلى منزلنا فى القرية فى آخر العام الدراسى بعد نجاحى ، كان هناك فى انتظارى أشياء تؤلم النفس حقًا ، لقد باع أبى كل ما عنده من أبقار ونعاج ، حتى حمارنا لم أجده فى مكانه ، أما أمى فلم تبق على الطيور ؛ لهذا كان البيت فى صمت القبور ، وأدوات الزراعة من :

طنبور ونورج وزحافات قد اختفت بدورها . والأدهى من ذلك والأمر ، أن البيت الإضافى - حيث كانت توجد البهائم والأدوات الزراعية من قبل - هو الآخر لم يعد فى حوزتنا ، لم يكن من الصعب أن أدرك مظاهر العوز والفقر تظهر بوجهها الكالح فى كل ركن من الأركان . . .

أما أبى فجلبابه الأزرق هو هو لم يتغير اللهم إلا فى لونه الذى حال وأصبح باهتًا ، وبعض الرقعات التى أضحت جليلة واضحة ، وليلى ومحمود وجدت أمى قد حجزتهما فى إحدى الحجرات

وأغلقت عليهما الباب ، ولما تحرّيت عن الحقيقة علمت أنهما يرقدان هناك مجردين من الثياب تماماً حتى تنتهى أمى من تنظيف الثوب الوحيد لكل منهما وغسله . . . والطمبة التى كانت أمام البيت قد اجتثوها من أصولها وباعوها . . . قالت لى أمى :

- ألف ألف مبروك يا سليمان . . . إننى أدعو الله أن يكتب لك النجاح الدائم حتى تنال الشهادة الكبيرة . . فقلت وأنا أشير بيدي إلى بيتنا الخاوى ساخراً :

- الحمد لله على الفقر والنجاح . .

- وماذا نعمل يا ولدى . . ؟؟ ثم اتجهت ببصرها إلى السماء وقالت :

- اللهم انتقم منه . . . مرسى أبو عفر .

- ماذا حدث يا أمى ؟

- هو السبب فى كل ما تراه . . . تسبب فى حرماننا من بهائنا ومن سمنها ولبنها ، وأرغمنا على بيع ما عندنا ، لأنه لم يتنازل عن شكواه رغم رجائنا وتوسلاتنا . . لقد كان يظن أن أباك سيبيع له قطعة الأرض مقابل الديون ، لأن هواية مرسى المفضلة فى هذه الأيام أصبحت شراء الأراض حتى يصير من ذوى الضياع الواسعة .

- وبعد ذلك؟

- لم نترك شيئاً فى البيت إلا ويعناه، لكن لم نستطع أن نستوفى سداد كل ما علينا من الديون، فلجأ أبوك إلى بعض الأخيار واقترض منهم مبلغاً ضئيلاً ثم قذف بالمبلغ فى وجه مرسى الملعون..

وابتسمت أُمى ابتسامة مشرقة وقالت:

- ولا تظن أن هذا الدين الجديد شىء يهتم بأمره لأنه بسيط، وسنسدده قريباً.

وتنهدت من الأعماق وهى تقول:

- الحمد لله... الديون يا ولدى عبء ثقيل جداً...

حاول ألا تقع تحت سلطانها طول حياتك تعيش سعيداً..

وهنا تذكرت الدعاء المأثور عن محمد ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». ورغم أن البيت قد أصبح مجرداً من كل شىء إلا الجدران والسقوف وبعض الأحطاب، فإنى كنت أشعر بأنه ملىء وغنى بالشىء الكثير. كانت الملابس ممزقة، لكننا كنا نشعر بالستر، وكان الطعام قليلاً وفقيراً، لكن شعرنا بالشبع والرى... إن الخلاص من أعباء الديون شىء يبعث على السعادة والمتعة، ويشعر بالحرية التى لا يشوه جلالها قيود، واسترحنا إلى

الأبد من وجه مرسى واستذلاله لنا ، واستنزافه لمواردنا بإضافة الأرباح المركبة بعضها إلى بعض ، والعجيب أن أمى قد خفت عنها حدة الآلام القلبية لدرجة كبيرة . . .

وانفجرت أسارير أبى ، وأصبح وجهه ضحوكاً باشاً يداعب ليلى ، ويتسم لمحمود ، ويقبل على عمله فى الحقل أو المنزل بروح طيبة قوية ، وشغف زائد . . . لقد خرج من المعركة ظافراً على ما يبدو ، لأنه لم يفقد قيراطاً واحداً من أرض أبيه التى تركها إرثاً حلالاً ، وأمانة فى عنقه لا يفرط فيها ، ولا ينزل عنها لأحد . . . وبالنسبة لى كانت أسعد عطلة فى حياتى ، وخاصة أن محصول القطن كان ينبنى عن خير كثير ، فأملنا فيه أن يسمح ذبول الشقاء ، ويبدد هذا التقشف الإجبارى الشديد . .

سامح الله عمى والمخدرات والحرب والقطن الزهيد الثمن ومرسى أبو عفر ، فقد كانوا معولاً لهدم أنسنا ورخائنا . .

قلت لأبى :

- إن العيد أوشك أن يحل ، وعمى وزوجته «منيرة» من المنتظر أن يصلا إلينا فى هذه المناسبة المباركة ، فلم لا تشتري لك جلباباً جديداً؟؟؟

قال وهو يتسم :

- صحيح أنى مهلهل الثياب، لكننى أمشى بين الناس منتصب القامة مرفوع الهامة... أما الملابس الجديدة الخضراء أو الزرقاء فهى مما يستهوى الأغرار والسذج من الأطفال والرجال على السواء.

- لكن الملبس الحسن أمر محبوب يا والدى.

- حسنًا، أتوافق على أن تستدين من أجل شراء ثوب؟ وهل هذا من الأمور الحسنة المحبوبة أيها الذكى النبيه...؟؟

فلم أجد ما أجيب به فسكت وأطرقت برأى، فبادرنى قائلاً:

- أظن أن ملابس العام الماضى ما زالت متماسكة ومناسبة، وتستطيع أن تذهب بها إلى المدرسة فى العام الجديد إن شاء الله. فتمتت: أجل... أجل إنها مناسبة جداً..

فربت على ظهرى قائلاً:

- بارك الله فيك... إنى ليعجبنى منك أنك تقدر ظروفى، وتشعر بالتبعية الكبيرة الملقاة على عاتقى... إنى لأفخر برجولتك المبكرة أكثر من فخرى بنجاحك كل عام... فأحسست بالحنج يغمرنى لهذا الإطراء من والدى الذى قلما كان يحدثنى بمثل هذه اللجة، فقال أبى مستطرداً:

- تأكد يا سليمان أن سر نجاحك هو رضائى عنك ودعواتى لك فى الليل والنهار.

فقلت فى تخاىث وتضاحك :

- ومذاكرتى الطويلة المضنية . . . أليس لها هى الأخرى نصيب فى هذا؟؟

- صحيح أن المذاكرة من الأهمية بمكان ، لكن توفيق الله لا يقل عنها أهمية . . .

- وجدتى التى كانت تجلس لى بالمرصاد ، تهدد وتوعد وتنذر وتجرعنى المذاكرة تجريباً ، أليس لها هى الأخرى نصيب؟؟

وفى هذه اللحظة ظهرت جدتى بانحناءتها المزمنة ، وخطواتها البطيئة المبعثرة وقالت :

- ومقام سيدى عيسى العراقى يا عبد الدايم ، لولا وجودى معه لما خرج من هذا العام بما يساوى بصلة . . .

- طبعاً طبعاً يا أمى . . . أنت الخير والبركة . أنت كل شىء . . . أطل الله عمرك .

وقبل أن أنتقل من مكانى أصر أبى على أن أسطر خطاباً للشيخ حافظ شيخا ، وأبعث إليه فيه بتحياته وتسليماته وتهنئاته بنجاح سعيد .



لم يأت عمى فى العيد حسبما توقعنا . . . والحقيقة أننا فرحنا جداً لأن هذه الزيارة لم تتم . . .

فقد كنا على غير استعداد للقاء زوجة عمى التى تزورنا لأول مرة، إذ ليس مما يشرف أن تأتى إلى بيتنا فتراه مجرداً من ال والإضافة، ولعل عمى أدرك هذا أو علمه بطريقة ما، وخاصة أننا لم نرسل إليه بخطاب واحد ندعوه إلى مثل هذه الزيارة، أو أن فى نيتنا إرجائها إلى وقت آخر حتى تتحسن الأحوال، فنستطيع أن نستقبلها بما هى أهل له من الكرم والضيافة التى هى من صميم تقاليدنا وواجباتنا . . . فلا شك أن عمى حدثها عن خيرات الريف ونعمه، وحدثها عن أرض أخيه الخصبة التى تجود بكل شهى وطيب . . . فكيف يكون موقفه حينما تأتى فلا تجد شيئاً مما أطال فيه وأظنب . . ؟؟

وبعد العيد بأيام، وصل خطاب من عمى يعتذر فيه بلباقة وحذق عن عدم تمكنه من الزيارة ويرجئها لوقت آخر وفى هذا الخطاب أخبرنى بالاقترح الذى أشار إليه فى خطابه السابق والذى اقترحته زوجته، فقال: « . . . وإنه ليسرنى يا سليمان أن تحول أوراقك إلى إحدى مدارس القاهرة القرية من السيدة زينب، وتتقل إلينا فور انتهاء العطلة مباشرة . . وأعتقد أن والدك لن يرضع علينا بتحقيق هذه الرغبة البسيطة، ولا شك أنك ستكون

مصدر سعادة لنا، وفي الوقت نفسه ستجد من يسهر عليك في غربتك. وخصوصاً أن منيرة أم من الطراز الأول، رغم أن الأقدار قد حرمتها من إنجاب الأطفال.

وستجد في القاهرة عالماً جديداً عليك... قد تزور الأهرام... ودار الآثار، والمباني القديمة، وسيكون قربك منى مدعاة لطمأنيتي عليك، لعلني أستطيع أن أجنيبك كثيراً من العثرات التي أودت بمستقبلي في سالف الأيام، أم أنك لست معي في هذا القول وتؤمن بالرأى القائل: إن كل جيل يتعلم ويأخذ العبرة من خلال تجاربه الخاصة؟ وسواء أكنت مع هذا الرأى أم ذاك، فإني أعتقد أن في تحويلك إلى القاهرة فائدة... بل فوائد كثيرة...

«وسيكون في انتظارك مفاجأة جميلة أعدتها لك زوجتي... ولماذا تجعلها مفاجأة؟؟ سأخبرك بها الآن وليكن بعد الحوادث ما يكون (!!!) لقد اشترت لك منيرة قطعة من الصوف لا بأس بها كهدية لك في مقدمك العزيز، إذ لا بد أن تدخل المدرسة بشياب جديدة أسوة بباقي الطلبة كما تزعم هي... وإني لأشعر بالسرور العميق نيابة عنك نحو عملها النبيل، لأنني أعلم أن منيرة كانت تجمع المليم على المليم، وتدخر جاهدة في كل مناسبة حتى وفرت لك ثمن الحلة... كنت إذا عزمت على شراء رطلين من اللحم قالت:

- ولم كل هذا؟ يكفى رطل ونصف وتوفر الباقي من أجل سليمان، ثم تشب معركة كلامية لطيفة محببة إلى قلبي، وتنتهى بفوزها على أخيراً، لا لأنى ضعيف ومتسامح، بل لأنى أفضل تلك الهزيمة ..

لأنى لأحسدك على هذا الحب من جانبها يا سليمان، فأنت محظوظ لأن منيرة طيبة القلب مخلصه لحد كبير، فمن حظى برضاها كان موفقاً سعيداً ..

«عمك»

كانت هناك نقطة مهمة لم يحاول عمى «فريد» أن يكشف عنها فى خطابه .. لا شك إنه كان يحبني ويريد أن أكون بجانبه . لكنه كان فى الوقت نفسه يود أن يكفر عن بعض ما سببه لأبى من متاعب، فأنا أعلم أن أجره اليومى لا يستطيع أن يسد كل حاجاته، فما بالك بى إذا انضمت إلى أسرته المتواضعة كفرد ثالث ...؟؟

صحيح أنى سأحمل معى بعض المال لمصروفاتى الخاصة، لكنها لن تقاس بما أنا فى حاجة إليه ... ويظهر أن عمى استعذب التضحيات والكفاح، وأصبح التماذى فى التقشف - ما دام من أجلى - نوعاً من أنواع التقرب والعبادة .. قال أبى يوم وصول هذا الخطاب:

- يا ولدى لا يمكن .. ففى ذلك إرهاق لعمك لا مبرر له ..

- لكنى مشتاق فعلاً لإتمام دراساتي فى القاهرة ..

- ليكن ذلك، لكن لا يجب أن يكون هذا على حساب سعادة عمك ..

- إنك تهول فى الموضوع كثيراً، إنى سأذهب ومعى كل ما أحتاج إليه ..

- إنى أعلم أن عمك يجعلك كثيراً، وسيحاول أن يدخل على قلبك السعادة، ويهيئ لك وسائل الترف والراحة، مما سيؤثر فى مجرى حياته ..

- لا، لن أقبل مثل هذه التضحيات التى لا ضرورة لها ..

- هذا مجرد كلام تنطق به فحسب يا سليمان ..

- إنى أعدك بتنفيذه ..

- لا أصدق ..

- بل أقسم لك على ذلك .

ولم يكن أبى قى حاجة إلى كثير من الإلحاح كى يقبل هذا المشروع لأنه لن يكلفه كثيراً، ولم تكن هناك من عقبة سوى الإشتاق على عمى «فريد» من التكاليف والتبعات ..

وغت ليلتى أحلم بالأهرام الثلاثة التى تشمخ فى تحدٍّ سافر نحو

الأفق، وأحلم برؤية الأحياء القديمة والحديثة وأضرحة الأولياء
والمآذن والقباب، والمسارح العديدة، ودور الخيالة المنبثة فى كل
مكان، وقصور الملك وعرباته الحمراء، والأمراء والوزراء
والباشاوات، ورجال الفكر والفن، وكل ما خطر على قلب بشر
مثلى . . .

هل صحيح أن مصر أم الدنيا، وأن هذا الاسم على مسمى؟
هذا ما سنراه فى الغد القريب . . .

لكن شيئاً واحداً كان يشوب لذتى الطارئة، وهو أنى سأفارق
سعيد حافظ . . .





الفصل الثالث عشر

فى عام ١٩٤٨ نفذت المؤامرة العالمية للقضاء على فلسطين، فكان هذا بداية الانطلاق للشعوب العربية التى ضاقت ذرعاً بالاعيب الاستعمار . .

ثورات فى العراق . . ومصر . . . والأردن وسوريا . .
والحجاز . . فى كل بلد يؤمن بالحرية والعدالة .

وكانت مدرسة «الحديوى إسماعيل الثانوية»

-وهى المدرسة التى حولت إليها أوراقى - شعلة من المظاهرات
والاحتجاجات الضاخبة، لأننا كنا نريد دخول الجيوش العربية
أرض فلسطين لتطهيرها من اليهود . . .

ولم نكن نعرف الكثير عن جيوش البلاد، كل ما أدخلوه فى
روعنا أن الجيش قد غما عدداً وعدة، وأن صفقات الأسلحة تتدفق
عليه من كل مكان، وأنه فى موقف يستطيع معه أن يحو إسرائيل
الوليدة من الوجود . .

فكان من العار ألا يدخل جيشنا أرض الميعاد ما دمنا نملك السلاح والكفاءات، ولا تنقصنا الروح المعنوية، إذ إننا ندافع عن حق العرب، ونستجيب لنداء الدين الذي يحرضنا على الجهاد فى سبيل الله . . .

أيام لا تنسى تلك التى تدفقت فيها أفواج المتطوعين، وكتائب الجيش المصرى، والشعوب العربية تتابع هذه الخطوات بخفقات قلوبها، وحرار دعواتها. إن قضية فلسطين - وما زالت - قضية أمة، وليست قضية شعب صغير، وهذا ما فهمه الناس، وهذا ما أبعد عن قلوبنا كثيراً من الشكوك والأوهام التى كانت تلازم كل عمل رسمى آنذاك . . فلم يستطع أحد أن يحذر من اللصوص والمستغلين والخنونة من أعوان الاستعمار، لأن الأمر ليس مجيء وزارة وضياع أخرى، بل القضاء على مؤامرة واسعة النطاق توشك أن تضع لنا سرطاناً خبيثاً فى جسد أمتنا العربية . . .

عدت إلى عمى ذات مساء، فقلت له بعد أن فرغ من صلاته :

- كان اليوم رائعاً حقاً، وسيسجل بأحرف من نور فى تاريخنا القومى . .

- وأنهى عمى أدعية الصلاة والتفت إلى قائلاً :

- احك لنا ما حدث يا سيد سليمان .

- لست أدري يا عمى ماذا أحكى . . . أحدثك عن الهتافات المدوية أم الخطب النارية، أم أصف لك ذلك الإصرار العنيد الذى ارتسم فى وجوه الجميع شيئاً وشباناً وشعباً وقادة؟؟
فضحك عمى فى وقار وقال :

- يظهر أن الحماس قد جرفك أنت الآخر، فلم تعد سليمان الهادئ الذى يقابل تلك المظاهر المألوفة المتكررة برزائنه المعهودة . . .
- يا عمى ليست كل المظاهر بالتى يقف الإنسان إزاءها هادئاً . . . إنها مسألة حياة أو موت، وليس هناك توسط فى الأمر.
- لتقصص علينا ما حدث .

- كان مؤتمر «الكونتنتال» اليوم مؤتمراً شعبياً ضخماً، جمع شتى الهيئات المعنية بأمور السياسة العربية، والحركات التحريرية، وتعاهدوا على تخليص فلسطين مهما كان الثمن . . .
وانتظرت من عمى أن يعلق على ما سمع لكنه هز رأسه وسكت، فاستطردت :

- وكانت ألوف الطلبة قد احتشدت وأتت من شتى أنحاء البلاد، وكلهم يطلب التطوع، ويريد السلاح والتمرين على استعماله .
فارتسم الجد على وجه عمى وقال :
- خداع ودجل رخيص .

فقلت في دهشة: وكيف؟؟

قال: أنهم يستغلون عواطف الجماهير، ويسخروهم أبشع

تسخير...

- إن كلامك يحيرني يا عمى... أتفضل أن يسكتوا ويدعوا قرار

التقسيم يمر بسلام ويخضعوا للأمر الواقع؟

- إن المؤامرة تدبر ضد فلسطين من زمن بعيد تحت سمع وبصر

زعماء العرب، كانت فلسطين تموت عضواً عضواً حسب خطة

خبيثة مرسومة، فقد أرادوا القضاء عليها بالتسمم البطيء...

فماذا فعل زعماء العرب حينذاك؟

تصريحات... تهديدات وعدم اكتراث باليهود حتى بعد وعد

بلفور المشهور...

- لنفرض معك أن هذه أخطاء حدثت فعلاً، فهل تتداركها

الآن أم نسكت على فلسطين فتضيع؟؟

- أنسيت يا سليمان أن الجيش الأردني قائده إنجليزى، وأن

القوات البريطانية تعسكر هي الأخرى فى أماكن كثيرة

إستراتيجية؟؟ وهل نسيت القواعد الإنجليزية فى العراق والقتال؟؟

وهذه القوات الإنجليزية المسيطرة، هي بنفسها التى سلمت مواقعها

وأسلحتها فى فلسطين لليهود، وهي بنفسها التى ثبتت

إسرائيل وهى أيضاً المحركة لحكومتنا العربية «المتحمسة» فماذا
بقى بعد ذلك؟؟

- ليكن سنرغمهم على التراجع بقوة مقاومتنا . .

- الإنجليز هم الذين أرادوا التقسيم، وهم يعرفون مدى
استعداداتك، ويفهمون نوايا زعمائك الحاكمين لكثرة التعامل
معهم . . فهل تظن سيتركونا نفعل كما نشاء؟؟ فسكت عمو
ليرى ما أقول، لكنى لذت بالصمت، فقال:
- هذا ما لا أظنه مطلقاً .

- شىء محير حقاً . .

- بقيت نقطة مهمة وما أظنها فاتتك . . .

- ماذا؟؟

- من أين يجرى السلاح لجيشنا وللجيوش العربية يا سليمان؟؟

- من إنجلترا طبعاً .

- وهل تعتقد أن إنجلترا ستعطينا ما نريد من السلاح؟

- ولم لا ما دمنا سنعطيهما ثمنه؟؟

- إنجلترا ليست مجنونة لدرجة أنها تسلحك تسليحاً كاملاً، ففى
ذلك كارثة عليها وعلى وضعها هنا، فلا بد أنك ستوجه هذا

السلاح يوماً إلى صدرها إذا ما رفضت الجلاء عن بلادنا، ولأنك ستضرب اليهود بهذا السلاح، وهم أصدقاء الإنجليز وعملاؤهم.

- فلنشتري السلاح من أى دولة أخرى.

- يوم أن يحدث هذا فثق أنك قد أصبحت حراً فعلاً..

- عجباً، ما الذى يمنع الحكومة من ذلك؟

- لأن فى ذلك مقامرة ببقائها فى الحكم، وخطراً على سيد البلاد ومولانا صاحب الجلالة يا سليمان.

وأخذت أفكر فيما يقوله عمى فبدألى منطقياً معقولاً، وسمعتة يقول:

- فعلاً سيتحرك الجيش المصرى نحو فلسطين... هذا ما شهادته فى المعسكرات التى أقوم فيها، لكن النتيجة ماذا ستكون؟؟ سيذهبون بسلاح لا يصلح لأن يحمله خفراء القرى، فلا استعدادات تذكر، ولا قوة يعتمد عليها، إن الذهاب إلى فلسطين فى نظرى مغامرة انتحارية ليس إلا...

وتذكرت حينذاك أفواج الشباب وهم يشتعلون ثورة وحماسة، وتذكرت سعيد حافظ زعيم مدرسة طنطا الثانوية الجديدة وقد أتى من طنطا على رأس مدرسته فى المؤتمر:

«ما مصير هذه الطاقة القوية التي في صدور الشباب حين تنكشف لهم هذه الحقائق المخزية التي يرويها عمى؟؟ وهل هم يؤمنون حقاً بأن الزعماء والملك والاستعمار جبهة واحدة ضد إرادة الشعب:

ثم صحت قائلاً:

- ما دام الأمر كذلك يا عمى فيجب أن نشور... نشور بكل قوة من أجل فلسطين، ومن أجل مصر والعراق... فكلنا ضحايا، ونشور ضد الإنجليز وضد من يتمون إليهم بيننا.

- هذه مسألة كبيرة... وطريق طويل... طريق وعر، وهيهات أن يتم بين يوم وليلة..

- إذا فستضيع فلسطين يا عمى، وسيحمل جيلنا هذه التبعة.. أو قل الخزي والعار أمام الأجيال المقبلة.

- من يدري؟؟ لعل الأقدار ترسم طريقاً آخر، وعلى كل حال لا بد من هذا الحماس الشعبي، ولا بد من دخول الجيش أرض فلسطين، ولا بد من هذه الحركة وهذا الوعي رغم ما فيه من مخاطر، فهذه كلها تجارب، ومعارك لا بد من خوضها، وبغيرها لن يصفو معدننا من الكدر، وتنتقى صفوفنا من المستغلين.

ودخل الجيش فلسطين، وتواترت الأنباء، وصدرت البلاغات الحربية، وامتلات أعمدة الصحف والمجلات بقصص البطولة وآيات الفداء، وأخذت أشك في كلام عمى وتحليله للموقف... فكيف أعلل هذه الانتصارات الداوية؟؟ ولم لا يقف الإنجليز في طريقنا أو يضعوننا من الخلف؟؟

شيء واحد كان يؤلنى ويغىظنى فى الوقت نفسه... لم تكن حالة القاهرة ومظاهرها تدل على أننا نخوض معركة جبارة، اللهم إلا أولئك المتجمهرين من أفراد الشعب الكادح وهم يتجمعون حول أجهزة الراديو وقت النشرات الإخبارية، فيستمعون إلى البلاغات الموجزة، وغالبًا تكون هذه البلاغات مشرفة طبقًا لما ترى القيادة، فيمضى المستمعون وهم شاكرون لله، حامدون هذا النصر...

كانت المعركة تدور فى فلسطين، لكن القاهرة كانت هادئة وداعة جميلة... مسارحها مضاءة، ودور اللهو والسمير مكتظة بالرواد، والحفلات الخيرية وسيدات المجتمع الراقى، ومآدب الأمراء والوزراء، أخبارها لا تخلو منها جريدة أو مجلة...

ومع ذلك فقد كانت أخبار الحرب تقرر عيني، وترضى الكثير من طموحى وكبريائى... قلت لعمى وفى صورتى رنة الفرع والنصر:

- ألا ترى هذا النصر المتلاحق؟؟ ماذا تقول فيه؟؟ هاهم الإنجليز لا يتكلمون ولا يحركون ساكنًا، بل ينظرون إلى كفاحنا المجيد نظرة المتوجس الخائف، ولا يسعهم إلا أن يحنوا رءوسهم لانتصاراتنا..

- وهل أنا أكره النصر لجيوشنا يا سليمان؟؟ سامحك الله..

- كلا يا عمي.. ما قصدت ذلك، وإنما أردت أن أقول لك أن الاستعمار كثيرًا ما يطأطئ رأسه أمام إرادة الشعوب.. فماذا يعمل الإنجليز الآن؟؟ إن الشعوب نائرة متمردة، والجيش في تقدم. ومتطوعي الدول العربية يعملون جنبًا لجنب مع الجيوش..

- أنت لا تعلم شيئًا يا سليمان عن القطارات المحملة بالمشات من القتل والجرحى والتي تغد إلى القاهرة تحت ستار الظلام، وليست المسألة أمرًا هينًا سهلاً، ولقمة سائغة نبتلعها، ولكنها حرب... حرب.. أأست معي؟؟

- بلى لكن لا بد للحرب من ضحايا كثيرين، وهذا شيء لا يدعو إلى القلق واليأس، فلن نتحقق أطماعنا ونحن ننعم بالنوم العميق..

- على كل حال، القضية أمام هيئة الأمم، وأحاديث الهدنة يتردد صداها في أنحاء العالم، ومن هذه الثغرة - أعني الهدنة -

ستتسرب الأعياب الاستعمار ، ويقوم الإنجليز بدورهم على أكمل وجه . .

- كيف ذلك؟؟

- ستكون الهدنة -إن حدثت- فترة لتسليح إسرائيل ولم شعثها ، وقد تكون فرصة أيضاً لبذر بذور الخلاف بين بعض الدول العربية ، وهذا كثيراً ما يحدث منذ أن دهمنا الاستعمار .

- خذها صريحة يا عمى . . إن كلامك يؤسفنى ويملاً نفسى بالنقمة والحسرة الأليمة . . .

- خير لك أن تعرف الحقائق ، وتفهم الموقف كما هو ، من أن تخدعك الأباطيل وتسير مغمض العينين حتى تصدمك الحقيقة المرة فتتهار على إثرها .

- سرفض الهدنة حتى لا يتحقق ما تخافه من الألاعيب . .

- لا بد أن تقبلها لأن ساستك سيقبلونها . .

- إن الشعب سيقف لهم بالمرصاد .

- أنت خيالى ، أظن أن الشعب هو الذى يحكم الآن ويوجه؟؟

- طبعاً ، وإلا لما تحرك الجيش تحت الضغط الشعبى إلى فلسطين؟؟

- مهلاً يا سليمان فإن الشعب لا يحكم . . . ألا تعلم أن الحكومة

التي تراها اليوم تحكم رغم أنفى وأنفك، إذ لم تسندها أغلبية ولم يأت بها الشعب، وإنما الملك ورضاء الإنجليز هما سندها؟؟ دع أسطورة الحكم للشعب، وإن كنت أنا شخصياً أعتبر أحزاب الأقلية والأغلبية على السواء نسخة واحدة لا يختلفون إلا فى القليل، وما دام الإنجليز بين ظهرانيها . .

- يا عمى لا بد أن هناك شيئاً من الكرامة والحياء يمنعهم من قبول الهدنة هذه المرة، ثم أنهم فى وضع المتصر، والمتصر يكون عادة فى يد المصير .

- باسم السلام سيقبلون الهدنة . . وباسم الهدوء والاستقرار فى الشرق الأوسط سيضعون السلاح، ولن يمر وقت طويل حتى تصبح إسرائيل فى حكم الدولة المظلومة المعتدى عليها والتي تستغيث بالضمير العالمى، وسيصير العرب مجموعة من المتعصين الغاضبين الذين يهددون الأمن والسلام، ولا يكثرثون لقرارات المنظمات الدولية .

- مصيبة . . !!!

- بل مصيبة كبرى . .



الفصل الرابع عشر



كانت تلبس سترتها الحمراء الأنيقة حينما دخلت إلى منزلنا، ثم تلفت يميناً ويسرة فلم تجد أحداً غيري، وهممت أن أدلف إلى حجرتي لكنها أشارت إلى وقالت :

- اسمع يا . . . أنت اسمك أ . . . أ . . .

- اسمي سليمان .

- وأنا اسمي «ثريا» . . . وفي أي مدرسة أنت؟

- مدرسة الخديوي إسماعيل الثانوية السنة الرابعة .

- أما أنا ففي السنية الثانوية ثانية فصل ثالث . .

- أهلاً وسهلاً . .

بدا لي أنها صريحة جريئة، وكانت صراحتها وجرأتها مصدراً لقلقي وتفكيري أياماً طويلة، وكانت تجيب عن أسئلة لم ألقها إليها . .

هذه هي بدايتي مع «ثريا».

لقد كان منزلها مقابلاً لمنزلنا، وكثيراً ما رأيتها وأنا في حجرتي المطلة على الشارع وهي تلوح ثم تختفي خلف نافذتها. . .

لم أحاول أن أعمل على إيجاد أى علاقة بيني وبينها، فها هو عمى الدليل الحى، والذى قاسى ما قاسى من جراء الحب وغرور الشباب وأوهام المخدرات.

وكانت صورة فتيات المدن مقترنة فى ذهني بالتحلل والخلاعة والخيانة. .

كنت أقول لنفسى: «إنهن يمشين فى الشوارع، ويذهبن إلى المسارح ودور الخيالة، ويتراسلن ويتعزلن بصورة فاضحة، وهذا عندي هو الضياع والموت. . .»

ورغم أنى كنت مسيطراً على نفسى تمام السيطرة، إلا أنى كنت كثيراً ما فكرت فيها وفى عينيها الخضراوين الضاحكتين دائماً، وفى ثيابها الخفيفة الرشيقة، وفى مشيتها وحديثها وحركاتها، وإنى أعترف أنى كنت أتسلل بنظراتى كى أراها خفية. . والمعروف أن الطريق إلى مدرستها ومدرستى واحد، لذلك كثيراً ما كنت أراها فى الطريق مصادفة وهى ذاهبة إلى المدرسة أو راجعة إلى البيت، فألقي عليها نظرة سريعة خاطفة كأنها غير متعمدة، ثم أنطلق فى طريقى حتى لكانها لا تعينى فى كثير أو قليل وبالرغم من ذلك

كنت- وأنا منطلق- أحس كأنى مشدود إليها بخيوط سحرية لا ترى، فأفكر وأفكر . .

وهكذا مرت شهور دون أن أتعدى هذه الدائرة التى رسمتها لنفسى، وكانت «ثريا» فى هذه الأثناء تتردد على مسكننا كى تستعين بخبرة زوجة عمى فى بعض أعمال الحياكة والتطريز التى تتطلبها أعمالها المدرسية . فإذا ما دخلت ثريا عندنا تركت أنا حجرة عمى، وتسلمت إلى حجرتى كما كان يحدث دائماً حينما يأتى ضيوف من السيدات . . لكن هذه المرة التى لقيتني فيها ثريا ولم تكن زوجة عمى بالمنزل- هذا المرة ضاعفت تفكيرى فيها، وشغلت حيزاً أكبر من وقتى .

لقد سألت عن اسمى ومدرستى، وهى بال تأكيد كانت تعلم سلفاً بالإجابة عن سؤالها، كما كنت أنا بدورى أعلم عنها ما أخبرتنى به فإن دخولها وخروجها عندنا لم يكن لدرجة التجاهل التام من ناحيتى أو من ناحيتها . . . ويظهر أنها انتظرت الخطوة الأولى منى، فطال انتظارها، ولعلها سخطت على، ولعنت جبنى وغبائى وجمودى الزائد وهى التى لا تكاد تمشى خطوة واحد فى الشارع حتى تسمع صفيراً ذا معنى، أو كلمة غزل رقيقة، أو نظرة متطفلة ولعلها قالت: يا له من فلاح متغطرس لا يحب غير الدروس والطعام والشراب !!!

فى اليوم التالى دخلت زوجة عمى إلى حجرتى وقالت :

- خذ يا سليمان هذه الورقة . .

- ماذا فيها؟؟

- مسألة حساب وأرجو أن تكتب الحل على ظهر الورقة . .

فقلت فى دهشة : مسألة حساب؟؟ لمن هذه الورقة؟؟

- أرسلتها ثريا ، لأنها خجلى من مقابلتك رغم أننى قلت لها يا
ابنتى إن سليمان مثل أخيك تماماً . لكنها أصرت . . .

وضعت الورقة أمامى وأخذت أرمقها بعيون زائغة :

ترى ماذا تقصد ثريا بذلك؟؟ أتخجل منى فعلاً وهى التى
كلمتنى بالأمس فى صراحة وجراحة؟ أتريد أن تختبر ذكائى؟؟ إن
هذه المسألة الحسابية سهلة جداً لا تحتاج لأكثر من نظرة بسيطة من
ثريا ، ولا يعقل أنها تجهل حلها . . . لا بأس من كتابة الحل على
ظهر الورقة وإرسالها لها حسبما تريد لكى أنتهى من التفكير فى هذا
الأمر . . .

وكنْتُ أَسْتَعِدُّ لصلاة العشاء حينما سمعت زوجة عمى تقول :

- ادخلى يا بنتى . . أخوك سليمان ليس غريباً عنك . . ادخلى يا
ثريا . . وفتحت زوجة عمى الباب ، وقالت :

- ثريا لم تفهم الحل على ما يرام، فلو سمحت تشرح لها الحل مرة ثانية ..

ودخلت ثريا تتعثر في حياتها وخجلها الذي لا يشبه في قليل لا وكثير موقفها بالأمس وهي تستفسر عن اسمى وعن مدرستى ..

وأمسكت بالقلم والورقة، وأخذت أشرح المسألة بحماس وثرى تظهر اهتمامها بما أقول، وتقضم ظفر أصبعها الخنصر في حركة لا إرادية كأنما تتشاغل بذلك عن خجلها ..

وتطورت المسألة بعد ذلك من مسألة حساب إلى سؤال فرنساوى إلى شرح قاعدة فى اللغة الإنجليزية أو حل تمرين هندسة ..

وأصبح جميلاً فى نظرى أن أرى ثريا تودعنى بابتسامة وهي خارجة من عندنا عقب كل زيارة عاجلة، بعد أن تستفسر منى عن شىء يتصل بدروسها، وغمرتنى السعادة عقب كل زيارة أيضاً لأنها كانت تلوح لى بيدها من النافذة، وأصبح من المعتاد أن أذهب إلى المدرسة وأنا على بعد خطوات منها، وقد تدفعنى شجاعتى إلى تصنع الإسراع حتى أمر بها وأحييها تحية الصباح وأمضى فى طريقى فرحاً طروباً ..

لا بد أننى إنسان مهم .. إن ثريا الجميلة تبتسم لى وتتودد إلى ، وأن ملامحها لتتطق بالسرور حين ترانى ... لم تعد المسائل

الحسابية هي كل ما بيننا . . . أجل . . . لا بد أنني مهم في نظرها ،
وأن هناك شيئاً فيّ يجذبها إليّ . . . قد يكون أولئك الذين يعترضون
طريقها وهي ذاهبة إلى المدرسة ويسمعونها عبارات الشناء
والإطراء ، قد يكونون أفرع مني عوداً ، وأقوى جسمًا ، وأبهى
منظرًا . . . لكن ليس هذا كل شيء . . . ثم تحسست أنفى في شيء من
الحسرة وقلت : صحيح إن الكمال لله وحده . . . يا حبذا لو كان
أنفى أصغر من ذلك بقليل . . . وعيناي هما أيضاً ضيقتان أكثر من
اللازم . . . لكن أستطيع أن أحجب هذا الضيق بلبس منظار أسود ،
وسيضفى على بالطبع شيئاً من الأناقة التى أفقدها . . . والخذاء . .
لا لا . . . إنه غير لامع ، يجب ألا أتركه هكذا مغبراً أجرب . . . قد
يكون هذا الإهمال فى بلدنا ، أما فى القاهرة وفى شارع الطولونى
حيث ثريا فهذا أمر لا يليق بى ، ثم إن النظافة من الإيمان . . . وإلى
متى أظل أحمل كتبى وكراساتى فى يدي؟؟ يجب أن يكون لى
حقيبة أنيقة من الجلد مثل التى يحملها طلبة الجامعة لأنى لم أعد
صغيراً . . . ورباط العنق يجب تجديده والسروال يجب أن يكوى
مرة كل أسبوع بدلاً من كل أسبوعين . . .

وهكذا بدأ أسلوب حياتى يتغير شيئاً فشيئاً . . .

كنت فى شبه عزلة فى مدرسة الخديوى إسماعيل ، نظراً لأنى
جديد على هذا الوسط ، ولطبيعتى التى لازمتنى منذ الصغر وهي

الهدوء والانعزالية، أما الآن فقد اتصلت بفريق كرة القدم وانضمت إليه، فكثير معارفى. ولقد كان هؤلاء الأصدقاء يتكلمون عن مغامراتهم الغرامية، وعن صيغة الخطابات التى يكتبونها. وذات مرة وقعت فى حرج شديد... كان لا بد أن أشاركهم فى حديثهم، وأقول شيئاً عن خصوصياتى حتى لا يظنوا أنى فلاح ساذج لا يعرف شيئاً عن القاهرة ولا حياتها المتحضرة، فاستجمعت قواى، وخفقت قلبى، وارتعشت أناملى وأنا أقول لهم:

- لقد تبعتها اليوم وهى فى طريقها إلى المدرسة - وكنت قد رسمت خطة مجبوكة لذلك طول الليل - ثم اندفعت إليها وقلت لها:

- صباح الخير... وفركت يدى مزهواً بما قلت.

فقال «فخرى» زميلى:

- وبعد ذلك ماذا حدث؟؟

- لا شيء...

فقهقه الزملاء، وضحكوا طويلاً، وقال أحدهم ساخراً:

- أنت شهم يا سليمان...

وقال آخر:

- يا دون جوان يا عجيب.

أما الأخير فقال:

- أنت طيب القلب جداً يا سليمان . . . أترسم خطة محبوبة،
وتفكر طول الليل، وتندفع نحوها بشجاعة لكي تقول لها فقط:
صباح الخير؟ لقد حسبتك قد طوقتها بذراعيك القويتين أيها
البطل، وأشبعتهاً لثماً وتقبيلاً كما كان يفعل الفرسان .

فقلت في دهشة : لثماً وتقبيلاً؟؟ هل جنت؟؟ فعادوا جميعاً
للقهقهة والسخرية، ومد «فخرى» كفه بحركة مسرحية، ومر بها
على وجهي ثم على وجهه وهو يقول :

- اللهم اجعلنا من بركاتك يا شيخ سليمان يا عبد الدائم . . ثم
واصل قوله : أنت درويش يا أبا داود .

فرد الزميل الثاني :

- يا سليمان الحب فن عميق وجميل في الوقت نفسه، ولا يعترف
بهذه الطرق العذرية وذلك الخيال الأجوف . . . فلا حب بلا
تقبيل يا سيدنا الشيخ . . . أما الحب على طريقة «صباح الخير»
المجردة فهذا عبث وضياح وقت . . أنت في القرن العشرين . .

وشعرت بالعرق البارد يتصبب على جبينى، والخيرة تطبق على
من كل سبيل، وكنت أسأل نفسى : هل الحب على هذه الصورة
التي يزعمونها من مستلزمات القرن العشرين، وعلامة من علامات
التحضر والمدنية؟ . .



كان والد ثريا موظفًا صغيراً فى قسم تموين الخليفة قد علا رأسه الشيب، لا يحمل من المؤهلات غير الابتدائية وكانت أمها من أسرة رقيقة الحال مثل زوجها، ولم ينجب غير ثريا. . لهذا كانت ثريا مدللة لا يرد لها طلب، ولا تمنع عنها حاجة منذ طفولتها حتى الآن-أى السادسة عشر من عمرها. . .

وكان مسكننا من حجرتين واحدة لى والثانية لعمى وزوجته. . وفى حجرتى الخاصة قد تمدد سرير متواضع، وكرسى خشبى خلف منضدة غير متماسكة تماماً، ودولاب صغير للملابس والكتب، وفى النافذة طبق معدنى وضعت فيه قلة من الفخار. . .

ورغم أن حى «قلعة الكباش» من أول الأحياء القديمة الشعبية، ومبانية من الحجر الجيرى الكبير الأحجام ورغم الضجة والضوضاء التى لا تخمد ليل نهار، والتى ضايقتنى كثيراً بادئ ذى بدء، رغم كل هذا فقد شعرت بكثير من الراحة والاستقلال، وكنت أكتفى طوال العام بمراسلة والدى، ورفيق الشباب والطفولة سعيد حافظ. . .

وفى تلك الليلة نفسها جلست أفكر فيما قاله فخرى وزملائى فى تعليقاتهم الساخرة على قصة حبى، وخيل إلى أنى ضئيل تافه. . .

صحيح أنى أحسن الفهم لدروسى ، مواظب على دراستى ،
دمت الأخلاق كما يقولون ، لكن يظهر أن تمام الرجولة أن أحب . .
أحب بالمعنى أو المفهوم الذى يريده فخرى . . .

ورميت الكتاب من يدى ، وأخذت أردد النظر بين المنضدة
العارية والسرير والدولاب المفتوح ، ثم ضربت بىدى على المنضدة
وقلت :

- الأمر بسيط . . . ماذا علىّ لو زعمت لفخرى وزملائه أننى
قبلتها تسعاً وتسعين قبلة ، وأنا تناجيننا وتساقينا كئوس الهوى
و . . . و . . . لكن هذا كذب صريح ، قد أستطيع أن أخدعهم ،
غير أنى لن أستطيع خداع نفسى ، بل سأزداد تضاعفاً وتفاهة . . .
ماذا أعمل؟؟ إنهم يخرجوننى ويعتقدون أنى ناقص الرجولة لا
أعرف شيئاً عن الحب ، ومغامراته ، فلاخلص نفسى بأكذوبة . . .
أكذوبة واحدة . . . وأضع حداً لهذا الأمر . .

وصمت قليلاً ثم استطردت ! . . ما هذا الانقلاب الذى
يشملنى؟؟ لم لا أسير على النهج الذى كنت أسير عليه فى طنطا .
وأناى بنفسى عن هذه الأجواء ، أجواء الحب والمغامرات التى لن
أجنى من ورائها إلا اختلاف الأكاذيب ، وضياح الوقت ، ووجع
الرأس؟؟ . .

ثم برقت فى رأسى فكرة شيطانية . . .

- إنى شاب ولى عواطف وقلب وغرائز . وكتبها مدعاة للعقد النفسية والأمراض الخطيرة، كما قرأت فى المجلات . . فلم لا أتوسع فى علاقتى «مع ثريا» على أساس سليم لا ينافى الضمير، من يدري لعلى أنزوجها، هذا خير من نكوصى على عقبى، وأشرف من اختلاف الأكاذيب، وأرضى لغرورى ومطامعى . . . لكن هذا حرام . . . والنساء شياطين، وكلمة «علاقات على أساس سليم» مطاطة جداً، وقد تقودنى إلى الهاوية، أو تعرقل نشاطى الدراسى فأصبح مثل عمى الذى كان يحمل على ظهره مواد البناء، وعلى رأسه الخبز للبيع؟؟ لكن . . لكن أنا مبالغ فيما أزعم، فالحب لن يعطل دراستى أو يضيع من وقتى كثيراً، فأنا أؤدى بذلك وظيفة طبيعية ولدت معى، وقام عليها الكون، واستقامت بها الحياة، وكم من رجل ناجح وراءه امرأة . . . ۱۱۱

ودار رأسى من كثرة التفكير، وشعرت بصداع شديد، فانتصبت واقفاً وقلت :

- أستغفر الله العظيم . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . يظهر أنى نسيت أبى الكادح تحت حرارة الشمس الحارقة، ونسيت أمى المريضة، ونسيت بيتنا الذى فقد كل مقومات حياته الزراعية، حتى

الطنبور والبقرة والأفراخ . . أتكلم عن الحب والغرام؟؟ لعنة الله على شيطاني . . وعلى خيبتى التى لم يضار عنى فيها أحد .

ولم أستطع ليلتئذ أن أذاكر كلمة واحدة؛ لأن طيف ثريا كان يتراقص بين سطور الكتاب، ويتهادى فى خيالى مرحاً جذاباً، وسخریات فخرى ترن فى أذنى وتقلق بالى، وتجرح كبريائى جرحاً عميقاً، وتذكرت أن أحد الأعياد القومية بعد أيام، فجرت أمام خيالى صور متلاحقة زاهية طالما حلمت بها . . . فتى وفتاة يسيران فى ظلال أشجار حديقة «الأورمان» أو يستمتعان بالعيد فى طرقات حديقة الأندلس، أو يتنسمان هواء النيل عند الأصيل فوق كوبرى قصر النيل والناس ينظرون إليهما فى غبطة ممتزجة بالחסد، فلماذا لا أكون أنا وثرىا على هذه الصورة؟؟ ويا حبذا لو رآنى فخرى وزملاؤه فهم لا شك سيكونون لى أكبر قدر من الاحترام، وسيعلمون من أنا، وسيعلمون أنى لست درويشاً ساذجاً أو فلاحاً غيباً جباناً . .

وراقتنى الفكرة، وبدت لى سهلة ممكنة، فهى أقل خطورة مما يتحدث عنه فخرى من قبلات ومصائب كبرى، وثرىا لن تمنع فى ذلك لأنها ترتاح إلى إن لم تكن تحببى، ولا بد أنه يسرها الخروج فى هذا العيد لتستمتع به على صورة طيبة، فلا يعقل أن أباه الشيخ أو أمها التى لا تغادر البيت إلا لماماً، لا يعقل أن يذهب أحد منهما معها إلى «الأورمان» أو حديقة الأندلس فى هذا اليوم . .

أجل فكرة جميلة!!! لكنى لم أجرب مثل هذا العمل فى حياتى قط، ولا شك أنى سأرتبك أمامها، وقطعاً سأتلعثم وأضطرب، وهى: أما أن تشفق على وتلتمس لى المعاذير، أو تفجع فى، وتنهار. آمالها بالنسبة لى...

مهما كان لا بد أن أجرب، والحياة تجارب، وسيكون عندى فرصة طيبة لإعداد الموضوعات التى ستتكم فىها، والأماكن التى سنزورها، والمطعم الذى ستتناول فيه غداءنا الشهى، وربما تسنح الفرصة فנסجل لهذا الذكرى صورة شمسية جميلة تجمعنى وإياها، وتكون هذه الصورة بمثابة الوثيقة الكبرى، الوثيقة المهمة التى تجعلنى محباً من الطراز الأول، ولن يستطيع فخرى وزملاؤه أن يسخروا بى، بل سأنظر إليهم نظرة فيها الزراية والشماتة بهم، وفيها النصر المؤزر لمجهوداتى المتصلة، وفى هذه المرة لن يكون الأمر مجرد خطة لكى أستجمع شجاعتى وأقول: «صباح الخير» لا بل سيكون الأمر أكبر وأخطر من ذلك... لا داعى للتأخير، فلأبدأ فى تسطير خطاب لها منذ الآن... أين الورقة والقلم؟؟ لا... إن القلم الرصاص لا ينفع، بل إن هذه الورقة من الكراس وهذا لا يصح، لا بد أن أكون سليم الذوق حسن الاختيار... ورقة خضراء معطرة، وقلم حبر أنيق، ثم أبدأ فى الكتابة، هذا هو الواجب...

والآن ماذا أكتب . . . ؟؟؟

وأخذت فى تقليب صفحات كتب الإنشاء والأدب العربى لعلنى أجد شاعراً أو كاتباً كان فى موقف مثل موقفى ، وهتفت قائلاً :

- جميل . . . إن قصيدة «ابن زيدون» فى «ولادة بنت المستكفى» رائعة حقاً . . . لكن معانيها قد تكون صعبة على «ثريا» ، فلا بد إذاً من شرح الأبيات لها حتى تفهمها حق الفهم . .

وأخذت أقرأ القصيدة مراراً ، لكننى تبينت أنها خليط من الشكوى والعتاب والاستعطاف وذكرىات الماضى ، وليست فيها كلمة واحدة عن الأورمان أو حديقة الأندلس أو اليوم الذى سادعوها فيه . . إن حالة ابن زيدون لا تنطبق على حالتى ، فلنجرب قصيدة شوقى وهى أحدث وأسهل من قصيدة ابن زيدون .

الله أكبر يا شوقى . . . !!! إنك أمير الشعراء حقاً . . . نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء . . . أجل أجل . . . لقد تبادلنا النظرات والابتسامات وأيضاً السلام وقليلاً من الكلام ، ولم يبق إلا الموعد ثم اللقاء من بعده . . . لكأن شوقى كان يصور حالتى تصويراً صادقاً ، ويرسم لى الطريق الذى دلتنى عليه الفطرة ، وساقتنى إليه الأقدار ، لكن هذه القصيدة أيضاً لم تشر إلى المناسبة التى سنلتقى فيها . . .

لا بأس من أن أكتب مقدمة الخطاب شعراً ثم أتبعه بقليل من
النثر، وفي الإيجاز ما يغنى عن الإطناب.

لكن قبل هذا وذاك إعطاؤها الخطاب، وهذه مسألة عويصة
فعلاً. . هل أعطيها إياه في كتاب الحساب أو الإنجليزى مثلاً إذا ما
أرسلت للاستفسار عن شيء؟؟ لكن قد لا تأتى ثريا في هذه الأيام
القلائل المقبلة فتضيع الفرصة، وقد يقع الخطاب في يد زوجة عمى
منيرة أو في يد والد ثريا فتحل الكارثة. . . أعطيه لها يداً بيد؟؟
هذا لن يحدث مطلقاً لأنى لا أملك الشجاعة الكافية لذلك، فأنا ما
زلت أهتمز وأرتبك أمامها، رغم ترددنا علينا، وهذه ناحية نقص
تؤرقنى وتؤلمنى. . . أسير أمامها فى الطريق وأتركه يسقط فتلتقطه
وينتهى الأمر؟؟ كلا، فقد يرانا أحد فلا نجنى سوى الفضيحة. . إذا
ليس أمامى سوى وسيلة واحدة. . . وهى إرسال الخطاب عن
طريق المدرسة.





الفصل الخامس عشر

كنت أقرأ فى خطاب وصلنى من سعيد حافظ ، وكان سعيد يتحدث فيه عن أشواقه وعواطفه نحوى ، ويصف المظاهرات التى يقودها فى المدرسة ، وأخبرنى أنه عازم على التطوع فى صفوف المجاهدين فى فلسطين . .

دخل عمى وأنا أقرأ فى الخطاب فقال :

- خير إن شاء الله . . . ماذا عندك من أخبار ؟

- إنه خطاب من سعيد حافظ . .

- أما زال زعيماً فى المدرسة وقائد المظاهرات ؟؟؟

- ليس هذا فحسب ، بل إنه عازم على التطوع فى حرب فلسطين . .

فابتسم عمى ابتسامة شاحبة وقال :

- قل له يوفر على نفسه هذا المجهود .

- كيف؟ إنه يريد أن يجاهد في سبيل الله فلا مانع في نظري من ذلك . .

- لقد قبلت حكومات الدول العربية الهدنة اليوم، وسيقف إطلاق النار خلال هذا الأسبوع، ومعنى ذلك انتهاء فلسطين.

- أصحيح ما تقول . .؟؟

- طبعاً، أتستغرب ذلك؟؟

- لقد انتصر اليهود أخيراً، بعد أن نقضوا الهدنة السابقة مرات ومرات . . .

- بل انتصرت السياسة البريطانية والأمريكية . .

- يا للعار . . . !!!

- وأى عار يا سليمان!! إنها سبع حكومات عربية مقابل دولة صغيرة.

- لشد ما آلتى هذا الخبر وحطم آمالى . .

- ثق أننا-كشعوب-لسنا ضعفاء، وإنما نحن فى حاجة إلى قادة مخلصين يرسمون لنا الطريق السليم، ويؤمنون بحق الشعوب، ويعفون عما فى أيدي المستعمرين من إغراءات.

- إنها جريمة أيضاً يا عمى أن نلقى بقيادنا لمن يبيعون ويشترون فينا،

دون نظر إلى شرف أو قومية عريقة يجب أن يصونوها من العبث .

- هذه فترة كثيراً ما تمر بحياة الشعوب ، فتخرج منها وقد تعلمت الكثير ورأت وقاست ما لا يستهان به ، لكن بعد ذلك تأتي الحرية . . . الحرية التي نعص عليها بالنواجذ ، ولا نفرط فيها . . . وماذا تظن الاستعمار يفعل بنا . . ؟

- أليس له سياسة غير التخطيم والتمزيق والتمكين لنفسه؟

- هذه هي الحقيقة . .

- لكن على أي أساس قبلوا الهدنة يا عمى؟؟

- على أساس الأسلحة الفاسدة التي لا تقدم في المعارك ، بل تؤخر ، وعلى أساس أوامر السراى التي تأبى إلا أن تكون قيادة الحزب من القاهرة لا من فوق أرض فلسطين . وعلى أساس الفساد الذي عم كل الأنحاء . . هذا هو الأساس الحقيقي ، لكنهم للأسف لا يعترفون بذلك بل زعموا أنهم قبلوا الهدنة الأخيرة باسم السلام ، وانصياعاً للقوانين الدولية . .

صدمنى الواقع المر ، وأخذت أتساءل : أهكذا تذهب أرواح المخلصين من أبناء هذه الأمة بلا طائل؟؟ إن قادتنا قتلة سفاكون ، فهم سبب هذه المجازر ، وهم الذين أجرموا فى حق هؤلاء

الضحايا . . إما أن سياستهم كانت تنبنى على الدجل والشعوذة، وإما أنهم يحظون بجانب كبير من الغباء والبله!! كلتا الحالتين لا تشرف بل تثير الغيظ وتدفع إلى الألم المحض . .

صدقت يا عمى أن الوطنية كثيراً ما تشوه معانيها، وتستغل استغلالاً فاحشاً فتصبح تجارة رخيصة فى أقذر الأسواق، والسياسة لم تعد إلا مدلولاً على الكذب والرياء والاستبداد.

قلت لعمى: لم لا يتركون عرب فلسطين ومن معهم من المتطوعين يواصلون كفاحهم، ويمدونهم بالمال والسلاح الكافى؟؟ ستكون الهدنة حينئذ حبراً على ورق، وفى الوقت نفسه تكون الحكومات قد قامت-ظاهرياً- بالتزاماتها الدولية الجائرة . .

قال عمى:

- لن يجرؤ رئيس وزراء مصر ولا من هو أعلى منه على ذلك.

- لماذا؟؟

- لأن الأمر لن يخفى على الإنجليز، وبذلك يصبح مصير الوزارة فى كف القدر . .



زارنا والد ثريا، وأثلجت قلبى هذه الزيارة، فبادرت إلى الترحيب به، والاهتمام بمقدمه، وبالغت فى ذلك مبالغة واضحة،

وبعد دقائق قال الرجل لعمى: «أريدك على انفراد...» وبعد نصف ساعة خرج الرجل من عندنا وعلى وجهه شيء من القلق وعدم الارتياح، وجلست إلى مكتبي لأذكر بعض الدروس، وخطر لي أن أفتح النافذة نظراً للحرج الخائق، فوقع بصرى على ثريا فى نافذتها، وما إن لمحتنى حتى أنزلت الستارة فى غلظة، ولم يفتنى أن الحظ فى عملها هذا شيئاً من الاحتقار والغیظ...

ولعبت بفكرى الهواجس- ترى ماذا حدث؟؟ وما العلاقة بين ما تفعله ثريا الآن وبين زيارة أبيها؟؟ إنى أحس كأن كارثة قد أوشكت أن تهوى على رأسى، لأننى سئى الحظ، منكود الطالع فى كثير من أيام حياتى، وتلاشت من مخى صورة النزهة المرتقبة وحلت محلها خواطر سوداء، وقلق مضمّن متعب. ونمت ليلتى متزعجاً منحرف المزاج، تساورني شتى الأحاسيس، وفى الصباح بكرت بالذهاب إلى المدرسة، ووقفت فى «ميدان السيدة زينب» أترقب مجيء ثريا، فقد أجد عندى الشجاعة الكافية لتحيتها، لأن هذه الجفوة الجديدة التى بانّت أماراتها بالأمس، بعثت الحزن فى نفسى، وكثيراً ما يكون هذا الحزن مدعاة إلى اليأس، واليأس قد يكون سبباً من أسباب الشجاعة الطارئة... وطال انتظارى فى «ميدان السيدة» عبثاً، وشعرت بالصداع من كثرة ما تطلعت إلى الذاهبات إلى المدرسة السنية، ومن طول ما تفرست فى وجوههن، لكنها لم تأت... وهذا يزيد من قلقى... وأخذت أفكر بجذ واهتمام...

لكن هيهات...!! لم يكن من السهل أن أجمع شتات نفسي، فقلت: «إن كان قد حدث ما يغضبها فمعنى ذلك أنني قد حرمت من ذات الابتسامة العذبة، والتحية الحلوة، ولن أجد بعد الآن من أحل لها مسائل الحساب وأجيب لها عن أسئلة الإنجليزى والفرنساوى». فخيّل إلى أنى سأفتقد شيئاً مهماً من مقومات حياتى، ومصدراً من مصادر سرورى وسعادتى. وشعرت بأنى فى حاجة لأن أضرع إلى الله عله يتداركنى برحمته، فلم يفتنى أن أقرأ الفاتحة للسيدة زينب...

ومر على «فخرى» زميل الدراسة وأنا فى موقفى هذا فأقبل نحوى قائلاً:

- إلى متى تظل هكذا واقفاً يا روميو السيدة؟؟ لكن، صباح الخير أولاً...

- صباح النور... كيف حالك يا فخرى؟؟

- دعنا من حالى الآن.. نحن هنا...!! أنت متكدر، أليس كذلك؟؟ اسمع.. لقد فهمت أنها لم تأت اليوم، وهذا ما يقلقك... طبعاً طبعاً.

فرددت عليه بفتور:

- ماذا تقصد...؟؟ أنا لا أنتظر أحداً..

- أتخدعنى؟؟ لا داعى للمواربة . لكن اسمع . . إذا كانت قد سببت لك بعض النكد، فهناك عشرات غيرها . . انظر إلى «السنية» . . من الظلم أن تربط نفسك بواحدة تقسو عليك . .

وفى هذه المرة لم أجد ميلاً لاختلاق المغامرات، وابتداع القصص الغرامية، بل كنت عازقاً تمام العزوف عن كل هذا، زاهداً فيه أيما زهد، لقد كنت بالأمس أحسب أن فى اختلاف الأكاذيب إرضاء لكبريائى، وسداً لنقص فى، لكنى الآن أرى العكس تماماً، بل أرى من الكبرياء والرجولة أن أسكت وأضم شفتى على ما يعتمل فى قلبى الحائر الموزع . . . وفى طريقنا إلى المدرسة قال فخرى:

- أتعلم أن هذا اليوم يستحق مظاهرة ضخمة تجوب الشوارع، وتقلب الترام، ونعطى فيها الشرطة «علقة محترمة» . .؟؟

- لماذا؟؟

قلتها وأنا متشوق لمثل هذا العمل شوقاً جارفاً لأول مرة، فقد كنت أتمنى فى هذا اليوم أن أغيب عن المدرسة وأعود إلى نفسى أجمع شتاتها، وأعيد إليها هدوءها . فقال فخرى على الفور: ألا تعلم لماذا؟؟ لقد وقعت الحكومة الهدنة مع اليهود بصفة نهائية . . الهدنة التى نقضت عشرات المرات، وكما سمعنا أن هذا معناه ضياع فلسطين .

- وما قيمة العمل على قلب الترام وإحراق عرباته وقذف الشرطة بالطوب والأحجار؟؟

- وكيف نعبر عن شعورنا وسخطنا؟؟

- كن فى حالك يا فخرى . . اكتب خطاب غرام لإحداهن ، أو اتبعها إلى أحد الشوارع الجانبية ، ودع قضية فلسطين لأنك لا تفكر فيها إلا من زاوية تعطيل الدراسة والذهاب إلى روايات الشاشة وتدير اللقاءات الغرامية . .

- صدقنى يا سليمان ، فبالرغم من غرامياتى إلا أنى وطنى أكثر منك ، وأقرأ الجريدة كل صباح لعلى أجد فيها ما يستحق التظاهر والإضراب عن العمل ، وفى الوقت نفسه يهمنى جداً حوادث الانتحار من أجل الحب ، أو قصص الهرب مع الحبيب ، وهذا يبين أنى أجمع بين الاثنين . .

ولم أكن راغباً فى مجازاة فخرى فى مناقشاته ، بل كنت أتشوق لفترة هدوء وصمت أريح فيها أعصابى وأفكارى المكدودة .

وكان قيام المظاهرات فى هذا اليوم أمراً مستبعداً ، إذ إنه من المحتمل أن يطرب الجميع للسلام الذى سيسود ، واختفاء شبح الحرب ، لكن الشعب كثيراً ما لا تنطلى عليه مثل هذه الدعاوات والمزاعم ، فللشعب حاسة عجيبة يدرك بها خافية الأمر ، ولا تفلح حينذاك الطنطنات والأبواق المأجورة التى تدوى فى كل مكان ، ولم

يكن هناك دليل على صدق ما أقول غير المظاهرة الكبرى التى حدثت فى مدرستنا وفى غيرها فى شتى أنحاء البلاد . .

وعند عودتي من المدرسة حوالى العاشرة صباحاً-لمحت ثريا وهى تحمل فى ذراعها سلة مملوءة بالخضراوات متخذة سمتها ناحية شارع «الدحديرة» ، ووجدت نفسى أندفع وراءها مسلوب الإرادة، وهتفت بها فى ارتجاف:

- ثريا . . . أسمحين؟؟ دقيقة واحدة فقط . .

فأدارت وجهها إلى الخلف، وما إن لمحتنى حتى تجهمت وبان الغضب فى عينيها ورمتنى بنظرة شزراء، ثم مضت لحال سبيلها، وأنا أتبعها حتى حاذيتها فقلت لها:

- ماذا حدث؟ أرجو أن تردى بكلمة واحدة . .

- ألا تعلم ما قد حدث؟؟

- أقسم بالله العظيم أنى لا أعلم شيئاً على الإطلاق .

- ألم يزورك والدى بالأمس؟؟

- بلى، ولكن ما صلة ذلك بموضوعنا؟؟

فالتفتت إلى فى ضيق وغضب وقالت:

- كيف تبيع لنفسك أن ترسل لي خطاباً على المدرسة؟؟ بأى

حق؟؟ أهكذا تفضحنى أمام الناظرة وأمام زميلاتى؟؟

ثم احتدم غضبها وأوشكت الدموع أن تنفرط من عينيها وهي تقول:

- ألا تعلم أن خطابات الطالبات لا بد من فتحها وقراءتها بمعرفة الناظرة؟

وما إن سمعت هذا الكلام حتى أحسست بقلبي يكاد يسقط من مكانه وأنى أوشك أن أقع إعياء، وتلعثمت خطواتي، فأجبت في حيرة وبصوت خافت:

- أقسم إنى لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك.

فنظرت إلى دهشة ممزوجة بالألم وقالت:

- هذا أمر بديهي لا يحتاج إلى مواهب خاصة، فالرقابة على خطابات الطالبات أمر مفروغ منه.

- آسف، لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك بالمرّة.. فقالت غاضبة: اذهب بعيداً عني.. كفى ما سببته لى وللأسرة من منغصات ومتاعب.

وانطلقت مسرعة وهي تقول:

- ماذا لو كلمتني بنفسك عما تريد؟؟ أليس هناك من وسيلة سوى الخطابات؟؟

فلحقت بها وأنا لا أكاد أصدق أذنى وهمست فى لهفة:

- ألم يكن هذا ليضايقك؟؟

فقلت نافرة:

- لم يضايقنى سوى غبائك الذى دفعك لإرسال الخطاب على المدرسة.

فسارعت قائلاً: أكنت توافقين لو خاطبتك وجهاً لوجه؟

فحثت خطاها وهى تقول: لا داعى لهذا السؤال، ويكفى أن تعلم أنهم فصلونى من المدرسة لمدة أسبوعين، لسوء سلوكى بسبب خطابك!!!

ولمحت دمعة تندحرج على خدها، فتشاقلت فى مشيتى حتى أدعها تمضى وحدها إذ لا يصح أن يظهر معاً بعد الآن، أو يجب تأجيل ذلك على الأقل حتى أفهم ما ترتب على ذلك الحادث من آثار، ومن يدري؟؟ لعل هذا الحادث هو فصل الخطاب الذى سيضع النهاية لعلاقتى الوليدة مع ثريا...

وتوقفت عن المسير... كنت شديد الخجل من نفسى لدرجة فظيعة... كيف أقابل عمى؟؟ وبأى وجه ألقى زوجته؟؟ وماذا قال والد ثريا لهما؟

وهل انهارت آمال عمى بالنسبة لى عندما سمع بهذا الحادث

الذى سيترك أثره ولا شك، وتصيح مسألة دماثة خلقى موضع النظر من جديد؟؟ وهل سيفآخر عمى بعد ذلك بأخلاقى واجتهادى فى دروسى أمام زواره وأصدقائه؟؟

وبقيت واقفاً أمام «صيدلية الخضري» الواقعة فى آخر شارع قدرى باشا، وسيط الندم تلهب ضميرى بلا رحمة فأقول: ليتنى لم أقدم على مثل هذا العمل المخزى... والآن ما العمل؟؟ من الصعب أن أذهب الآن للقاء عمى... هذه مصيبة كبرى حطت على رأسى، لكم أود أن أترك القاهرة بمن فيها وأذهب إلى قريتنا... لكن هل هناك مانع من قضاء هذه الليلة عند أحد الزملاء حتى أثوب إلى رشدى وأتدبر أمرى فى روية ورزانة؟؟ هذا غير معقول، فلو حدث ذلك لظل عمى وزوجته طول الليل سهرانين جوابين يبحشان عنى، فأزيد بذلك متاعبها وإحراجهما... يا إلهى... إنه لشئ مقلق حقاً... وظهرت ثرياً..

أجل ظهرت مرة أخرى وفى يدها سلتها، ولعلها جاءت لشراء شئ آخر، وكان الغضب ما زال مرتسماً على وجهها، وخيل إلى أنها كلما رأتنى توشك أن تنهال على ركلاً وصفعاً لولا ما يستتبع ذلك من نتائج، فكانت تنفس عن نفسها بالكلمات القاسية التى توجهها إلى، فقد قالت لى وهى تمرى فى تلك اللحظة: كنت أظن

أن تحت القبة شيخاً . . . لقد خدعنى هدوؤك ورزانتك، فحسبتك أكبر من جسمك وسنك، لكن للأسف لم أجد غير تصرفات أطفال . . .

فغلى الدم فى عروقى، وغامت عيناي فلم أر أمامى، وصحت فى حلق زائد:

- اسكتى وإلا قطعت لسانك . . . اغربى عن وجهى . ولاحظت ثريا أنى قد أتصرف تصرفات غير لائقة فيتورط كلانا فيما نحن فى غنى عنه، لهذا لم أكد أتنبه لما حدث حتى وجدتها على مسافة بعيدة منى . . واندفعت على الأثر إلى مسكنى غير عابى بما سيحدث، فقد ملأنى شعور بعدم اللامبالاة، وهتف صاخباً: «ماذا سيعمل عمى؟؟ هل سيعلقنى على المشائق؟ لقد فعلتها، وأرسلت لها خطاباً وليكن ما يكون . . ». وكان هذا نتيجة للتفكير الطويل والحيرة المؤلمة التى أملت بى، ولما لم أجد حلاً سريعاً لهذا الورطة أثرت أن أدع المقادير تجرى فى أعتتها، وأتقبل النتائج مهما كانت محرجة . . .

لم تتغير معاملة عمى معى على الإطلاق، بل سارت على النهج نفسه السابق . . إن بعض الظن إثم . . كيف صور لى وهمى أن عمى سيغضب ويشور ويفور حتى يكدر عيشى؟؟ إنها الغلطة الأولى، وعمى «فريد» رجل مجرب قاسى الأحوال ومر بفترة الشباب والمراهقة، ولا بد أن كثيراً من الأحلام طافت بذهنه أو

وربطته عشرات المرات فيما هو أفسى من ورطتى ، فكيف غاب عنى هذا فأشفقت لدرجة الهلع والجبن؟؟ وكيف فكرت فى الفرار من البيت واللجوء إلى أحد أصدقائى ، أو مغادرة القاهرة كلية؟؟

أما زوجة عمى فقد كانت صريحة معى لدرجة كبيرة . ولم تكن كعمى الذى لم يخاطبنى فى الموضوع على الإطلاق ، بل روت لى ما حدث بالتفصيل ، وفهمت منها أن الناظرة عندما قرأت الخطاب استدعت ثريا وقالت لها :

- المدرسة معهد علم وليست عشا للغرام يا ثريا . .

- وماذا حدث يا حضرة الناظرة؟؟

- خذى هذا الخطاب واقرئيه . .

فأمسكت ثريا الخطاب بيد مرتعشة ، وجرت فوق سطوة بنظراتها العجلى ، ولم تصدق عينيها ، فأعادت قراءته مرة ثانية ، بينما قالت الناظرة :

- من هذا الـ «سليمان» المتيم؟؟

- لا أعرف عنه شيئاً . . . لعلها مكيدة دبرها أحد الموتورين .

- لست غبية لهذا الدرجة ، فالأسلوب ينبى عن متانة الصلة بينكما وقدمها ، فليس الأمر مكيدة كما تزعمين ، وإنما حقيقة مرة أوقعها سوء طالعك بين يدى حتى ينكشف أمرك .

- أقسم لك يا حضرة الناظرة أن ليس بينى وبين هذا الإنسان ما يدعو لهذا الشك .
- أنت وباء بين الطالبات ، ولن يكون هنا فى المدرسة مكان لمثيلاتك بعد اليوم .
- فانخرطت ثريا باكية أمام الناظرة ، وهى تقول :
- أنا مظلومة . . . والله العظيم مظلومة . . . وما ذنبى أنا إذا كان أحد المجانين قد أرسل لى خطاباً على المدرسة؟؟
- هل الملولم هو أم أنا؟؟ .
- أنت الملولمة طبعاً ، فلولا الثقة المتبادلة ، والحب المتمكن ، لما كتب ما كتب .
- وماذا كتب يا حضرة الناظرة؟؟ إنه يطلب منى الخروج للتزهر فى الأندلس .
- وماذابقى ذلك . . ؟؟ نزهره ، وبعد التزهره أشياء وأشياء . . يخيل إلى أنك ابتدأت فى الوقاحة . . أليس فى التزهره ما يشين؟؟
- ما قصدت ذلك أبداً ، وإنى أؤكد لك يا حضرة الناظرة أن الموضوع لا يتعدى إنساناً مهووساً أقدم على هذا العمل الأخرق ، ولو كان عاقلاً لفهم أن خطابات الطالبات تحت المراقبة ، ولو كنت أنا على صلة به لأخبرته على الأقل بذلك . . فلم تلتفت إليها

الناظرة بل قالت فى غلظة :

- تفضلى بالخروج .

وهمت ثريا بالانحراف ناحية الفصل ، لكن الناظرة صاحت

بها : إلى أين ؟

- إلى الفصل .

فضحكت الناظرة فى سخرية وقالت : يستحسن أن تذهبي إلى البيت الآن وتطلبى من ولى أمرك أن يحضر إلى هنا غداً وسأحرر له بدورى خطاباً رسمياً بذلك ، واعلمى أنى لن أسمح لك بالدخول حتى يأتى . . .

وخرجت ثريا كالتائهة ، تسير على غير هدى لا تدري ماذا تفعل . غاض الابتسام والبشر من عينيها ، بينما كانت تعليقات زميلاتها تطرق سمعها ؛ فمنهن الشامطة التى لا تعرف مجاملة ، والمواسية الرقيقة القلب . . .

وتألم والد ثريا لهذا الخبر حتى إنه فكر فى عدم الذهاب إلى المدرسة ويكفى ابنته ما نالته من العلم ، وما عليها إلا أن تنتظر فى البيت حتى يرزقها الله بمن يصلح لها زوجاً . لكن بكاء ثريا وتوسلات والدتها ، وتفاهة الموضوع دفعه دفعاً لأن يذهب فيقابل الناظرة ، ويتفق معها على فصل ثريا لمدة أسبوعين . . .

وهكذا عاد والد ثريا إلى عمى ليروى له ما حدث، ويشكو له
أمرى، ويوضح له أن سمعة البنت من كرامتها، وأن الشائعات
كثيراً ما تؤول وتخور ويستغلها الأشرار فيما يضر...

قال الرجل لعمى:

- أسمعت عنا شيئاً يشيننا منذ أن نزلت على هذا الحى؟؟

- كلا ما سمعت إلا كل خير، وأنت يا أبا ثريا جدير بما هو أكثر من
ذلك!!

- وماذا تعرف عن ثريا؟؟

- مؤدبة وبنت حلال لا شك فى ذلك.. ما السرفى هذه
الأسئلة؟؟

- إذا فخذ هذا الخطاب وقرأه..

وضحك عمى، وحاول الترفيه عن الرجل، والتهوين من شأن
الخطاب وقال:

- سليمان طيب ومؤدب جداً. وثرىا مثل أخته تماماً، فلا مانع من
أن يطلب منها ما طلب، وكل الغريب فى الموضوع هو إرسال
هذا الخطاب، فكان من الواجب أن يقصلك أنت، أو يقصد أمها
ويخرجها معاً بسلام..

- لكن هذا الخطاب أثار شتى المتاعب لها في المدرسة، ولنا أيضاً،
وهي لا تفتأ تبكى ليل نهار، وأنت تعلم أن لكل بنت أعداء
وحساداً . .

- على كل حال أنا آسف بدلاً من سليمان، وسأجعله يعتذر ويكفر
عن كل ما بدر منه، هذه أول مرة يقدم فيها على مثل هذا العمل،
وأنا متأكد أنه سيكون في غاية الندم عندما يدرك ما حدث . .





الفصل السادس عشر

قضيت عطلة صيفية طيبة فى هذا العام ، وما ضاعف سرورى أن ثريا هي التى أرسلت إلى نبأ نجاحى ، ثم أتبعته بخطاب رقيق تعتذر فيه عما حدث فى أواخر هذا العام ، وخاصة أن القطيعة ظلت سائدة بيننا حتى سافرت من القاهرة إلى قريتنا . . . بل إنها قالت إنها تشوقت إلىَّ جداً ، وترجو أن أحضر قبل بدء الدراسة بأسبوعين أو ثلاثة . . والحقيقة أنى كنت فى غاية السعادة بهذه الخطابات ، أقرأها ، وما إن أتى عليها حتى أبدأ فى قراءتها من جديد دون أن أمل ، ثم نسختها فى كراسة خاصة بعيدة عن الأنظار ، وبدأت فعلاً فى كتابة مذكرات خاصة لى ، معظمها يتعلق بشريا . وكانت هذه الفترة من الفترات الجميلة فى حياتى . . ولطالما حلمت باللقاء بعد هذه الغيبة الطويلة ، ورسمت له كثيراً من الخطط ، لكنى لم أفكر مطلقاً فى الكتابة إليها ، لأنى لم أرد أن ألدغ من جحر مرتين . . .

وأتيحت لى زيارة صديقى «سعيد حافظ» فى القرشية، لقد تغير شكل سعيد كثيراً، فأصبح ذا شارب أسود منسق، وذقن حليقة، ورعرع عوده عن ذى قبل، وغدا منظره منظر رجل مكتمل النمو. ولاحظت أن المشاجرات التى كثيراً ما كانت تنشب بين خضرة والشيخ حافظ أصبحت فى حكم المنعدمة، وأخت الشيخ حافظ هى الأخرى لم تعد تتشاجر مع خضرة كثيراً، وما زالت كعادتها فى انتظار العريس المرتقب، تزين له بأبهى زينة، وتلبس له أفخر الثياب، وتبحث عنه فى كل المظان، لكن يظهر أنها كلما ألحت فى طلبه، ازدادت الأقدار عناداً لها. . قلت لها:

- ما هذا الهدوء الذى تنعم فيه الأسرة؟؟

فقلت:

- لا بد أن نستتر أنفسنا فى «القرشية» فنحن غرباء عنها. .

- أظن أن حالة الشيخ حافظ التجارية تحسنت كثيراً، وهذا طبعاً من أسباب الرضا والهدوء.

- صحيح، لكن خضرة تبلع كل شىء فى بطنها، ولا أحد يعلم أين تخفى كل ما يصل ليد الشيخ حافظ من مكاسب.

- أعودين للشجار والغيرة من خضرة؟

- غيرة؟ صل على النبى. ولماذا أغار منها؟ أمن أجل وجهها

الشاحب ذى البروز، أم عيونها التى لا تستطيع فتحها فى الشمس؟؟ أنا أحسن منها ستين مرة، لكى حظى مائل...

أما الشيخ حافظ فقد أصبح من رواد المقهى البلدى هناك، وسرعان ما وجد له أصدقاء جددًا يحبذون آراءه السياسية، وتعليقاته على الماضي، والوقائع الزاهرة التى كان صداها يرن فى أرجاء العالم فينحني إعجابا لهلتر ولألمانيا...

قلت للشيخ حافظ: إن ألمانيا سيئة الحظ، لم تصب بالهزيمة فحسب، بل قسموها إلى شرقية وغربية. حتى برلين نفسها سيطر الروس على جزء منها والحلفاء على الآخر، إن مثل هذا التقسيم سيقصم ظهر ألمانيا، ولن يتركها لتقوم من كبوتها هذه المرة.

فأبدى الشيخ حافظ شيئًا من الألم والتأثر وقال:

- سبحانه من يحيى العظام وهى رميم.

- إن التقسيم وسيلة استعمارية دنيئة.

- لكن تأكد أن كل فريق سيحاول أن يقوى منطقته ويسلحها بأفتك الأسلحة، وهكذا سيخلقون قوتين متضاربتين، ولن يسكت الصراع الدائر بينها إلا إذا التهمت إحداهما الأخرى، وبهذه الوسيلة تعود إلى ألمانيا وحدتها...

- بعد عمر طويل...

- ليكن . . . ، ثم تبدأ دوراً جديداً فى التاريخ لا يقل أهمية عن دورها فى عام ١٩١٤ ، وعام ١٩٣٩ ، فهذا الشعب لم يخلق ليموت ما دام يعتز بقوميته وأمجاده . . .

- لكن ألا تظن أن مثل هذا الصراع قد يجر إلى حرب عالمية ثالثة ، لا تشمل ألمانيا وحدها بل العالم من أقصاه إلى أقصاه؟؟

- هناك حقيقة مهمة يا سليمان . . . إن العالم ييغض الحروب بغضاً شديداً ، والشعوب تريد أن تعيش فى سلام ، والزعماء الذين سيحاولون إشعال نار الحرب سيقامرون بمستقبلهم ومستقبل أمتهم . . .

- لن يعيش الناس بغير حروب أبداً . .

- تستطيع أن تسمى هذا مناقشات فى حدود ضيقة كما يحدث بين مصر وإسرائيل مثلاً ، أو بين كوريا الشمالية والجنوبية ، لكن اتساع المجال حتى يشمل العالم كله ، فهذا أمر قد يكون شبيهاً بالمستحيل ، إلا إذا أصيب العالم ببلوثة جنون .

كنت أستمع إلى الشيخ حافظ وهو يروى هذه الحقائق ، فأزداد عجباً ، لقد كان فى الماضى يبدى من ضروب التحمس للحرب والاهتمام بها مبلغاً كبيراً ، بل كان يطرب طرباً للمعارك الدامية فى الحرب العالمية الثانية ، أما الآن فقد أصبحت نظرته أبعد ، وأمانيه

أسلم، وأصبح يؤمن بالسلام كعقيدة لا بد أن يعتنقها الجميع، وينفر من الحرب وأهوالها. ويبدو أن تقدم العمر به قد أسبغ عليه هذه الصورة الجديدة من الأمل والحب للسلام. . .

قلت للشيخ حافظ :

- وما الحل بالنسبة لهؤلاء الإنجليز الذين يرفضون الجلاء عن ديارنا؟؟

- إن رأى معروف من زمن بعيد، فهم لن يخرجوا إلا إذا رأوا شعباً مُصرّاً على ذلك، وحكومة لا تستمد بقاءها منهم، وكتائب للتحرير تحرّمهم لذة الراحة.

- عدنا لحديث الحرب من جديد.

قلت لها وأنا أغمز بعيني، فرد قائلاً:

- ليست حرب عدوان ومطامع، وإنما هي الدفاع عن حق، ورغبة فى الحرية، ولن يستطيع إنسان أن يلومنا على ذلك، بل ستحنى الدول رءوسها احتراماً وتوقيراً لنا.

- صدقت، هذا عين الحقيقة. . .

- فشلنا فى نهضتنا الصناعية، أتدرى لماذا؟؟

- لماذا؟؟

- بسبب الإنجليز . . . وهزمنا في فلسطين، وعلة ذلك هم الإنجليز، ثم اختلفنا في وجهات النظر مع بعض الدول العربية والإسلامية، وليس بيننا في الواقع ما يدعو إلى ذلك، لكن السبب هم الإنجليز .

- أجل، فهم أصل كل بلاء، ومنع كل رذيلة وانحطاط .

ثم انحنى الشيخ حافظ نحوى، وهمس في أذنى قائلاً:

- في الحقيقة أن الملك هو الآخر عقبة كشود في سبيل استقلالنا وحريتنا، مثل الخديوى توفيق الذى طعن عرابى من الخلف، وبدلاً من إعطائه حقوق الشعب الدستورية استعان بالإنجليز عليه، وصار ورقة رابحة في أيديهم . .

- كفاية يا عم الشيخ حافظ . . الحيطان لها آذان . . وأولاد الحرام كثير، وأنت بذلك تطعن في نظام الحكم الحاضر، وتسب في الذات الملكية، وتعلم طبعاً العقوبة المنصوص عليها في القانون .

فضحك الشيخ حافظ وضحكت معه، ودخلت خضرة في هذا الوقت، ثم التفتت إلى الشيخ حافظ وقالت مداعبة:

- أمرك عجيب يا شيخ حافظ . . الكلام في السياسة هو حشيشك وأفيونك . . يا رجل استرح قليلاً من وجع الدماغ، والنبى السياسة ليس وراءها غير الفقر وخراب البيوت والصداع . .

- اخرسى يا خضرة وإلا سددت فمك بطريقتى الخاصة . .
- طول النهار لا يسكت لسانك عن الكلام فى اليهود والإنجليز . . . حتى أفسدت عقل سعيد، ومن أن لآخر يقبضون عليه فيتعطل عن دروسه، والمصيبة أنه كان عازماً على الذهاب إلى فلسطين ليحارب اليهود، وكل هذا بسببك أنت . .
- اسكتى يا عبيطة . . لك الشرف أن يكون ابنك من الوطنيين والمجاهدين فى سبيل الله . . . الدنيا فانية يا خضرة .
- غداً ترى، سيكون مصيره مثل جده تماماً، وسيمشي هائماً على وجهه من بلاد الله لخلق الله، وسأفكر يا حافظ إن كان لى عمر .
- اخرجى من هنا يا امرأة، اذهبى وجهزى «الملوخية» أو اطبخى اللحم أو قشرى البصل . . . أنت لا تفهمين شيئاً . .
- كفانا أنت بعقلك النظيف وأفكارك النيرة يا شيخ «حافظ هتلر» .
وتبسم الشيخ حافظ لهذه التسمية القديمة التى كنا نطلقها عليه فى حارتنا، ولم تخرج خضرة حسبما أراد لها بل قالت :
- ما رأيك يا شيخ حافظ، سليمان أصبح عريساً محترماً، وأنا أخاف أن توقعه بنات مصر فى شباكهن، فيقع فى ورطة لا يفلت منها أبداً . .

- وماذا تريدین له؟؟

- إنى أتمنى أن نخطب له من القرشية هو وسعيد كل واحد منهم عروسة حلوة وینت ناس كرام . . أحب أن نفرح بهم قبل أن تموت .

- یا خضرة لا داعى لهذا الكلام الفارغ . . سعيد وسليمان لهما مستقبل أهم من الزواج، ثم إن زواجهما مسألة تخصهما وحدهما، فهما صاحبا الشأن، وما زال أمامهما فرص كثيرة جداً . .

فشردت بأفكارها حول «ثريا»، وحول نافذة بيتها فى شارع الطولونى، وتبدى لخيالى ألوان وسيمة جميلة استراح لها قلبى، وهفت إليها روحى، لكنى صحت منها على صوت خضرة وهى تقول:

- أه يا سليمان . . . لو عاشت بسيمة لزوجتها لك . . كانت تحبك وكنت تحبها، وهل كنت تجد لك صهراً أحسن من سعيد ومن عمك الشيخ حافظ .

ثم تنهدت قائلة: أه يا حبيبى يا بتى .

وسرعان ما سادنا وجوم، وحزن أجم الشيخ حافظ فلم ينطق بكلمة، واغرورقت عيننا خضرة بالدموع، بينما شعرت أنا بشيء

من تأنيب الضمير وقلت لنفسى : لقد تنكرت لذكرى بسيمة ،
وأحببت غيرها ، أصبحت ثريا حلم شبابى ، بعد أن كانت بسيمة
جنة طفولتى وصباى . . . إن الناس قد طبعوا على عدم الوفاء . .
لكن كيف أعيش راهباً بعد أن اختفت بسيمة من الوجود على ما
يبدو؟؟ هذا عمل خيالى لا يعقل . . لقد كانت طفلة وكنت طفلاً ،
وأحببتها فعلاً ، بل ولن أستطيع نسيانها ، غير أن التعلق بها رغم ما
حدث ، والشعور بالجريمة لأنى أحببت غيرها عمل لا يليق ولا
يصح . . وعادت إلى صورتها الوداعة الباسمة ، وسذاجتها
اللطيفة ، وغضبها منى حينما عدت إليها من «ميت غمر» بلا حلوى
ولا فواكه ، ففاضت مشاعرى ، وأحسنت بميل للبكاء . . .



فى المساء خرجت مع سعيد قاصدين المقهى القريب من شريط
السكة الحديد ، وبينما كنا نخرج زجاجات «الببسى كولا» قال
سعيد :

- أين أيامك الحلوة يا أبا داود؟

- لقد تشوقت إليك كثيراً يا سعيد ، ويعلم الله مدى تلهفى على
خطاباتك فى القاهرة . .

- لا . . لا يا سليمان . . لقد اتضح لى أنك مهمل جداً . . ألم تنفق
على أن ترسل لى خطاباً أسبوعياً وأنا كذلك؟؟ وحافظنا على هذا

الاتفاق لمدة شهر، وبعد ذلك أصبح الخطاب لمدة أسبوعين، ثم كل ثلاثة أسابيع ثم شهرياً، وفي آخر العام لم ترسل خطاباً إلا بعد مرور شهرين ونصف . . . يظهر أن القاهرة قد صرفتك عنا بجمالها . . . إن من يلتقى بأحبابه ينسى أصحابه .

- لا يا سعيد، أنت الصاحب والحبيب وكل شيء، ولن تتساوى معزة أي إنسان بمعزتك عندي مهما كان .

فقال سعيد بدهاء :

- إذا فلا بد أن هناك إنساناً ما تعتز به، وينافسني في منزلتي لديك . .

فابتسمت وأنا أجرح ما بقى من المشروب الغازي . . لقد كنت أشعر بميل عجيب إلى الإدلاء بكل تفاصيل قصتي مع ثريا . . . كنت سعيداً فخوراً وأنا أروى لسعيد كل شيء، وكنت أشعر أن هذا مما يزيد من سعادتي ومركزى، أما هو فقد استمع إلى فى شيء من الدهشة، ثم هز رأسه وقال :

- الله يجازى شيطانك يا سليمان . . . لقد كنت أظنك ولياً من أولياء الله الصالحين، فإذا بك غارق فى الغرام حتى قمة رأسك .

- ما أنا إلا بشر يترجم عن مكنون مشاعره وعواطفه .

- طبعاً، لا بد أنك ستفلسفها، وتقنعنى بما أقنعت به نفسك .

- أؤكد لك أنه ليس فى علاقتى مع ثريا ما يشين أو يدعو للشك .
- اليوم خمر وغداً أمر . . وهذه المسائل يا حبيبى تتطور دائماً ولا تنتهى بالنسبة لأمثالنا إلا بورطة أو مأساة دامية . .
- أوه . . إنك تبالغ . . ولعلى لا أذيع سرّاً إذا قلت لك إنى أحبها من كل قلبى ، وأنوى الزواج منها بعد التخرج .
- مسكين يا سليمان . . إن حالتك هذه - على ما يبدو - مستعصية جداً . .
- هذه فرصة يا سعيد ، ويخيل إلىّ أنى لن أجد فى مستقبل أيامى من ستكون زوجة صالحة جديرة بى غيرها . . إن ثريا هدية السماء إلىّ .
- فضرب سعيد كفّاً بكف وهو يقهقه وقال :
- لقد سحرتك «ثريا» يا سليمان . . والعوض على الله . . .
- فاعتدلت فى جلستى وقلت فى جد واهتمام :
- دعنا من هذا وقل لى عن حبك أنت . . . لا تخف عنى شيئاً . .
- فاتخذ سعيد هيئة الجد والاهتمام وقال :
- اسمع يا سليمان . . هاك قصة غرامى بالتفصيل .
- قل ، وأتحفنا . .

- أنا لا «أحب» إلا السياسة وأحاديثها، وليس أعذب إلى قلبي من ذكريات ليلة قضيتها في السجن . لقد صرفتني هذه الأحداث عن أمثال ثريا، فوجدت فيها كثيراً من العزاء والأعمال التي شغلتنى .

- هذا جانب واحد، فأين الجانب الثاني؟؟ لماذا أغفلته؟؟ لا تحاول أن تحولني عما أريد معرفته، فلست أنت بحجر حتى تعيش بلا قلب . . .

- لن تصدقني، لكن والله تلك هي الحقيقة، أما الجانب الثاني الذي تشير إليه فأعتقد أن له وقته، قد يكون غداً لا أعلم، والآن أما زلت لا تصدقني؟

- أعتقد أنك ستظل متحكماً في نزعاتك إلى هذا الحد؟؟
فهز سعيد رأسه دون أن يجيب . . .

لم يكن يجانب الحقيقة وهو يلقي على سمعي باعترافاته هذه، لأنها كانت تنطبق على طبيعته الثائرة، وأطماعه الوطنية، وبدأ لي أن هناك أمراً ترك أثره في حياة سعيد . . . فالنساء إما مشاغبات لا يهدأ لهن شجار مثل عمته، وأمه، وإما ثرارات نمامات مثل نساء حارتنا اللاتي كن يتحدثن عن «بسيمة» الخادمة، وعن الشيخ حافظ الذي لا يجد قوت يومه له ولأولاده . . .



الفصل السابع عشر



فى عام ١٩٥٠ كانت مصر كلها فى شغل شاغل من أجل الانتخابات ..

كانت المعركة حامية الوطيس فى قرينتنا بسبب انقسامها إلى شطرين : الناحية الشرقية ، وهى تؤيد حزب الوفد وتؤمن به . والناحية الغربية ، وهى تعطى أصواتها لمرشح الحزب السعدى . ولقد اتخذت المنافسة صورة عنيفة ، لكنها مألوفة ، فلقد دارت المبارك الدامية بين شطرى القرية الواحدة ، فسقط الجرحى والقَتلى ، وأتلفت المزارع بالأفدنة ، وأحرق كثير من البيوت والسواقي . لم يكن هذا الصراع يعطى غير معنى واحد قاس غاية القسوة ، وهو أن أهل هذه القرية فيما يبدو قد انقسموا إلى ألمان وإنجليز ، أو عرب ويهود ، وتناموا الأرحام والأواصر ، والصفات الإنسانية ، وكانت هذه الأعمال المزرية تلقى تشجيعاً كبيراً من (س . بك) . مرشح الدائرة ، والنائب القديم ، وكان يمدها بماله

وبتشجيعه الأدبي ، فيظهر براعته وسلطانه بالإفراج عن يتهمون
فى هذه الحوادث . . .

وظلت القرية أياماً فى العزائم والاحتفالات والشربات
والوعود الخلافة والهتافات الراعدة، فقد وعدهم (س. بك) ببناء
مسجد كبير، ووعدهم بإقامة مستشفى ومدرسة، ويتوظيف
العاطلين منهم، وما أكثرهم، تماماً كما كان يفعل فى كل مرة،
ووعد الموظفين منهم بالترقية والنقل إلى حيث يريدون . . .

ولم يكن أحد يخرج إلى حلقة أو يمشى فى الليل إلا وييمينه
سكين ذات حدين، أو عصا غليظة، أو قطعة سلاح . .

وكان واضحاً أن الانتخابات ليست وسيلة لإبداء رأى
الحر، واختيار الأصلح مسؤولاً على مصالح البلاد، بل سوقاً
للاستغلال والمنافسة غير الشريفة التى يستعمل فيها شتى أنواع
الأسلحة والمكائد، فإن النجاح هو الغاية وفوز الحزب هو المرام .

قلت لأحد المتحذلقين من رجال قريتنا :

- إن المرشح (س. بك) هذا إنسان متقلب لا مبدأ له ولا عقيدة .

فنظر إلى شرراً وقال :

- ومن أدراك حتى تحكم هذا الحكم الطائش . . ؟؟

- إنه يرشح نفسه دائماً على مبادئ الحزب الذى ترضى عنه السراى، بل رشح نفسه فى الانتخابات «الحرّة» وغير الحرّة، فتراه وفدياً أو سعدياً أو دستورياً أو مع صدقى باشا... المهم أنه ورث الدائرة عن أبيه، ويريد أن ينجح دائماً مهما كان لون الحكم وحالة البلاد السياسية.

فرد الرجل مغتاضاً وقال:

- وفر هذه الحكم الغالية على نفسك... فأنت لا تفقه فى السياسة حرفاً واحداً، أعتقد أنك ما دمت فى التوجيهية تستطيع أن تحكم على مجريات الأمور؟

فأقلت منى زمام نفسى وقلت:

- طبعاً لا تريد أن تعترف بالحقيقة، لأن نجاح (س. بك) يهزمك كثيراً، فالجنيهاً التى تقبضها منه كل أسبوع ليست بالشىء الهين.

فهوى الرجل بكفه على وجهى، وأعطانى صفقة قوية وهو يقول:

- كفى وقاحة وقلة أدب...

وكان هذا العمل بداية لمعركة شديدة بين عائلتنا وعائلته. ولم يكن من السهل على والدى أن يضيع حقى، إذ لم يهدأ له بال إلا

بعد أن أحدث جرحاً غائراً بعصاه في رأس هذا المتزحلق
المأجور . . . وظل العداء بينه وبين أبى حتى توفاه الله . .

وعادت إلى ذهنى صورة عمى «فريد» وهو يقف بباب
(س . بك) يطلب منه عملاً يفتح عليه باب الرزق، و(س . بك)
يروغ كما يروغ الثعلب، ويرسل أعوانه لعمى يطلبون منه الرشوة،
وعمى يقف حائراً بين الوظيفة التى تلوح له كالسراب . وبين يده
الفارغة وجيبه الخاوى، وقارنت هذه الصورة بالوعود الخلافة التى
يبدلها اليوم (س . بك)، وعشرات الجنيهاات التى يبعثرها بلا
حساب، ثم تواضعه الجم الذى جعله يحضر المآتم والأفراح التى
تحدث فى القرية على خلاف العادة، فألمنى هذا الزياء القدر، وتلك
الأخلاق الوضيعة . .

ولن أنسى يوم أن جاء المرشح (س . بك) بنفسه إلى بيتنا ليوقع
الصلح بين أبى وذلك الرجل الذى اعتدى علىّ، لقد قال المرشح
المحترم وهو يربت على كتفى :

- فى أى سنة أنت يا سليمان .

- فى التوجيهية . .

- حسناً جداً . . ما عليك إلا أن تنجح، وسيكون دخولك الجامعة
بالمجان أمانة فى عنقى، وهذا عهد علىّ . .

- أشكرك ياسعادة البك .

وأحاط بي أعوانه من أهل البلد وأوقفوني وقالوا:

- لا بد أن تلقى خطبة من أجل سعادة البك . . هيا . . يا سليمان .

كان أحدهم يجذبني من ذراعى والآخر يرفعني فوق الكرسي ،
والثالث يصفق لى ، وسعادة (البك) يتسم عن أسنان بيضاء لامعة ،
فلم أجد مناصاً من أن أرحب وأشكر وأدعو بالنجاح ، كالألة التى
تدور جسبما يراد لها .

ويظهر أن مواكب النفاق والرياء إذا كانت قوية متدفقة فإنها قد
تكتسح فى طريقها أولئك القلائل الذين يحاولون أن ينأوا بأنفسهم
عن هذا التيار الصاخب . . . وفى أثناء مغادرته لمنزلنا جاء أحد
أعوانه ودس فى يد أبى ورقة من فئة الجنيهات العشرة وهو يقول :

- هذه من سعادة البك ، ومن أجل الخطبة العظيمة التى قالها
سليمان :

فتراجع أبى إلى الخلف فى ذعر ، وأشاح بوجهه عن الرجل
وقال :

- ابعد عني يا رجل بمالك . . . حد الله بينى وبينك . . اذهب يا
رجل ، وربنا ساترها والحال رضا والحمد لله . .

- إنها نعمة ساقها الله إليك . . . أتركها بقدمك؟؟

- قلت لك اذهب ، لن أبيع ذمتى وشرفى بعشرة جنيهاً ، إنها

سحت وبلاء، ولن أخذها ولو خلا بيتي من لقمة العيش . . .
أعوذ بالله . .

وخرج الرجل وهو يهز كتفيه ويسخر من «سذاجة» والدي،
بينما أخذتني الحمية وتذكرت مواقف الشجاعة والبطولة التي كثيراً
ما رأيتهما على خشبة المسرح أو على الشاشة فصحت في صوت
جهورى:

- اخرج أيها المأجور . . عليك اللعنة . .

فشده الرجل، وخرج وهو يرثى لحال هذه الأسرة -أسرتنا- لا
بد أن مساً قد أصابها فاخبت سواء الوالد أو الابن . بينما التفت
أبى إلى قال:

- لا داعى يا سليمان لهذه الألفاظ الخارجة، لقد رفضنا ما عرض
علينا وكفى . . ثم سكت قليلاً واستطرد: وأقسم بالله أننى لن
أذهب إلى مكان الاقتراع، ولن أعطى صوتى لـ(س. بك) ولا
لغيره .

- لا يا أبى، يجب أن تعطى صوتك لأيهما تختار .

- كلا، لا داعى لوجع الدماغ، كلا المرشحين دعى كذاب .

- لا بد أن أحدهما أفضل من الثانى .

- لا يتفاضلان إلا فى الخداع والاستغلال . .

- إن صوتك حينما تعطيه لمن يستحقه ، فإنك بذلك تناصر قضية الحرية .

- حرية؟؟ إننى أذهب إلى الغيط لا يمنعنى أحد ، وأعود منه وقتما أشاء ، وأكل وأشرب ما يروق لى ، وأنفق إذا أردت وأفعل ما يحلو لى . فماذا أبغى بعد ذلك؟ أهناك حرية أكثر من هذا؟؟

- بالطبع يا والدى . . إن بلادنا مثلاً يحتلها الإنجليز ، ويصرف الملك أمرها حسب هواه ، ويعاونه فى ذلك حفنة من ذوى الأملاك والأموال الضخمة ، وهؤلاء جميعاً هم الذين يستمتعون بكل خيرات البلد ، ويجعلون منا قنطرة إلى مطامعهم ، ولا مقياس فى نظرهم إلا المحسوبيات والمعارف والمآرب الشخصية . .

- وما علاقة ذلك بالحرية؟؟

- لو أن هناك حرية بالمعنى الصحيح لنال كل حقه حسب مجهوده وكفاياته ، ولكان التعليم بالمجان لا لأولاد الكبراء المحظوظين وحدهم . . . إن الحرية توجد حيث لا تباع أصوات الناخبين وتشتري . .

فأطرق أبى قليلاً ثم باغتنى قائلاً:

- لكن أعتقد أن نجاح واحد من الاثنين المرشحين فى قريتنا سينصر قضية الحرية .

ولم أجد جواباً شافياً لتساؤل والدى، فسواء أنجحت أحزاب الأغلبية، أو أريد لأحزاب الأقلية أن تحكم، فالأمر لن يتغير كثيراً فى مخبره، لكنى قلت لأبى :

- الحقيقة أن الوضع محرج ومحير، لكن اختيار الكفاءات الموثوق بها يعتبر خطوة فى سبيل مجتمع وحياة أفضل . .

- أنا لا أرى أمامى كفاءات، فالتصبر للمال وللمرضى عنهم من الزعماء ورجال السراى .

- فعلاً، إنه شئ يؤلم كل ضمير حى . .

- والعمدة هو الآخر يهدد بالمحاضر توقيع الغرامات، لكل من تسول له نفسه ألا ينتخب من يختاره حضرة العمدة .

- ربنا يصلح الحال . .

- اللهم آمين .



الفصل الثامن عشر



حالما نجحت فى التوجيهية شعبة العلوم، قررت أتقدم بأوراقى إلى كلية الطب قصر العينى، وكنت بطبيعتى أميل إلى الدراسات العلمية، وعندى من المثابرة والصبر ما يجعلنى أعكف على الأشياء العلمية بلا ملل أو سأم.

قال لى أبى:

- إنى أتمنى أن أراك قاضياً، لهذا أفضل التحاقك بكلية الحقوق ..
- ماذا لو خاننى الحظ ولم أنل الدرجة التى تؤهلنى لذلك؟ سأكون محامياً، وبذلك أقامر بمستقبلى؛ لأن مهنة المحاماة تحتاج إلى موهبة خاصة وطلاقة لسان، وأنا أفضل النواحي العلمية أكثر من غيرها.

- لكن أنت تعلم يا سليمان أن كلية الطب طويلة الدراسة، وتحتاج إلى ما يقرب من سبع سنوات، وتحتاج أيضاً إلى نفقات باهظة.

- هذا حق، غير أن طول المدة وبهاظة النفقات، سيكون لهما مقابل، وهو مستقبل طيب مضمون... وهناك مسألة الميل الشخصي، فإذا أرغمت على نوع معين من الدراسة كان ذلك مدعاة للتعثر والفشل...

- اختر ما شئت، فأنا ما زلت على أتم استعداد لأن أحقق لك كل مطالبك، ولو كان ذلك على حساب غذائنا وكسائنا... كل ما يهمنى أن أراك رجلاً ناجحاً تشرقنا، وتشرف نفسك... لأن النتائج السارة تمحو عنا آلام التعب...

فقممت من فوري وقبلت يدي والدي المتشقة الجافة، تلك اليد التي لا تبخل على مجهود، ولا تظن على ببال، وقلت:

- أبقاك الله وأطال عمرك.

- لا تحمل همًا ما دمت أنا على قيد الحياة.

كانت نفسى مفعمة بالمشاعر الكثيرة، وظهر أبى أمامى مكافحاً من الطراز الأول، وأكبر من الزعماء ذوى الهيل والهيلمان، كان رجلاً فلاحاً، لكن بصيرته النفاذة وإيمانه العميق، ودفعاه لأن يؤمن بمبولى الخاصة، ويؤيد كلامى المنطقى، لأن نفسه البيضاء الصافية لا تعرف جدلاً عقيماً، ولا أنانية منحرفة... لكم تمنيت أن يكون مرشح دائرتنا (س، بك) مثل أبى فى هذا الموقف، لكنها أحلام الجائعين بين الثمار المحرمة.

أما أمى فقد جلست تستمع إلينا فى زهو وانشراح ، والغبطة تطفو من وجهها ، فلا تكاد تلمح أن وراء هذه التقاطيع الضاحكة آلاماً قاسية تحز فى قلبها . لقد قالت لى :

- ليت المنى تحقق يا سليمان . . . أصبح أنى سأراك طبيياً تختال فى ملابسك البيضاء كالملاك ، والسماعة تتدلى من عنقك ، وأنتك ستخفف آلام البائسين ؟

- بإذن الله يا أمى . . . إن الأيام تمر سراعاً . . . الله معنا . .

- لو رأيتك على هذه الصورة لكفانى هذا نصيباً من الحياة ، ولا ستقبلت الموت راضية باسمه . .

ثم رفعت يدها إلى كعاداتها ضارعة : يا رب حقق الآمال ، واحفظه من عيون الحاسدين ، واحمه من الأخطار . . . يا رب .

وكان قلبى يخفق بقوة وانفعال مع دعواتها الصادقة . .

ثم توجهت إلى بالقول مرة أخرى :

- أستحلفك بالله يا سليمان أن تكون رحيماً بالناس إذا أراد الله لك أن تنال مرادك ، انظر لأملك . . . ، ألا تذكر أننى لم أكن أستطيع الذهاب إلى الطبيب لضيق الحال؟؟ ثم ألا تذكر حينما كنا نخرج من المستشفى حيارى لا ندرى من أين نأتى بالمال لشراء الدواء؟؟

- إنى لأذكر كل ذلك يا أمى .

- إذاً فلا تحجب نفسك عن مرضاك ، ولتكن معاملتك لهم معاملة مباشرة لا عن طريق التمورجية ، حتى تعلم المحتاج وغير المحتاج . . والقناعة يا ولدى رأس مال كبير . . كبير جداً . . .
ويكفيك رضى الله عنك . .

- أعاهدك على ذلك يا أمى .

لقد كانت أمى تستقى حديثها من صميم تجاربها ومقاساتها للأهوال ، ولم أستغرب حديثها لأنى أعرف دوافعه وأسبابه . يا لها من إنسانة طيبة نبيلة ذات قلب كبير -ولو إنه مريض . . سأنقش هذه العبارات على شغاف قلبى بأحرف بارزة منيرة . . .

أما سعيد حافظ فقد تقدم بأوراقه إلى الكلية الحربية التى كان يحلم بها منذ أمد بعيد ، حتى يكون ضابطاً مثل جده ، أو مثل عرابى صديق ذلك الجد السىء الحظ . . وكان سرور سعيد عظيماً حينما نجح فى الكشف الطبى ، لكن للأسف كانت فرحته شوهاء مبتورة . . . لقد وقفت تجربات رجال الشرطة عقبة كأداء فى سبيل التحاقه بالكلية الحربية ، فلقد كانت التقارير تقول : «إنه وطنى متطرف . . معروف بعدائه لنظام الحكم الحاضر . . ذو ميول ثورية ومن الخطرين . . . قد استضافته الشرطة مرات عديدة» .

وقال لى سعيد :

- والآن ما العمل يا سليمان، إذا لم أدخل الكلية الحربية، فستنهار آمالي، وخير لي أن أقذف بنفسى تحت شريط الترام حينذاك . .
- صبراً يا سعيد . . الأمر لا يحتاج لأكثر من توصية، أو وساطة رجل مرموق له صلة بالموضوع .
- يا للمصيبة . . .!! ألا يستطيع الإنسان أن يصل لحقه إلا عن طريق الوساطة؟
- إنه شيء مخزٍ حقاً . .
- اسمع يا سليمان . . . لا بد من دخولي «الحربية» بأى ثمن . . أنا لا أتصور أنى سأحرم منها بمجرد عدم وجود توصية تبعد عن طريقى هذا التقرير المبالغ فيه . .
- اترك الأمر لوالدك فهو كثير المعارف، وكثير المال أيضاً، وبسمارك الداهية الأكبر يقول: يمكن شراء كل شيء بالمال حتى الدم . .
- لازم . . لازم دخولها ولو ارتكبت جريمة . .
- اهتدأ يا سعيد عليك أن تجتهد وعلى الله التسهيل .
- وصدقت مخاوف سعيد فقد حرم من دخول الكلية التى كان يتعشقها، وكان هذا مدعاة لحزنه وألمه الشديد، حتى إنه بقى فى «القرشية»، وفضل عدم الذهاب إلى أى كلية أخرى، فقال له أبوه: «ما الذى يجعلك تستمسك هكذا بالكلية الحربية؟؟»

فقال سعيد: لأنى أميل إليها، وأرى فيها تحقيقاً لآمالى، وهذا يكفى..

- أخاف يا سعيد أن تكون ممن تغريهم الأشرطة الحمراء، والملابس الزاهية..

- بل إنى أعشق الحياة العسكرية وما فيها من خشونة وتقشف وكفاح.

- الجيش الآن جيش مولانا، واستعراضات مولانا، أما الصورة الخيالية التى تترأى لك عنه فهى وهم باطل لا وجود له..

- إن الرجل الشريف يستطيع أن يكون شريفاً كريماً فى أى وسط يحل به، وإذا كان فى الجيش محاسيب وأذئاب، ففيه أيضاً وطنيون مخلصون، يأنفون بنفوسهم عن مواطن الذلة، وينأون بضمايرهم عن بؤر الفساد..

- لكن ما أقلهم يا بنى!!!

- بل هم كثيرون... لو فرضنا أنهم قلة فلاكن أنا أحدهم..

- لقد صدقوا فيما كتبوا عنك من تقارير.. إنك من الخطرين حقاً، يظهر أنك لا تريد أن تكون طالباً بالكلية، بل رسولاً للتمرد والثورة فى الجيش، ولكن لا تنس أن الجيش ليس مدرسة

ثانوية تصول فيها وتجول بخطبك ومظاهراتك، فإن أقل شبهة أو أدنى غلطة قد تقضى عليك قضاء مبرماً وتطيح بمستقبلك . .

- أنا ما زلت فى الشارع، ولم تقبلنى الكلية حتى الآن، فلا داعى يا والدى لأن تسبق الأحداث . .

- أما زلت مصرّاً على دخولها بعد أن أصبح الرفض أمراً مقررّاً؟
- طبعاً، لن أتخلى عن ذلك . .

- ما دمت مصرّاً على ذلك يا سعيد، فإننى أعدك بأننى سأعمل المستحيل فى الدفعة التالية، حتى تقبل فيها إن شاء الله . . . فما عليك إلا أن تلتحق بكلية الحقوق بصفة مبدئية «حتى تمسك بالعصا من الوسط» وتحتاط . .

- لكن باب القبول قد أغلق بصفة نهائية فى جامعة فؤاد .

- من السهل التحاقل بحقوق الإسكندرية .

- قضيت أياماً ممتعة بجانب ثريا بعد أن عدت إلى القاهرة . .

لقد استطاعت بحنانها وبرها أن تمحو كل ما علق بنفسى من آثار الماضى . بل أصبح الماضى، وأصبحت قصة الخطاب الذى أرسلته إلى المدرسة مجرد ذكرى لطيفة تثير ضحكائنا، ونعلق عليها بالنوادر والفكاهات، وقلت لها ذات مرة ونحن نمشى معاً عند كوبرى قصر النيل :

- أتذكرين حينما فصلتك الناظرة لمدة أسبوعين؟
- طبعاً، هذا شيء لا ينسى.
- إن الفصل من المدرسة معناه أنك مشاغبة، ومن الطالبات المشاكسات.
- اسمع يا سليمان . . لقد تضايقت هذه الأيام من المدرسة جداً، ويا حبذا لو تكرمت بإرسال خطاب لى عن طريقها، فلعل الظروف تساعدنى أن أحظى بالفصل أسبوعين أو ثلاثة . . .
- ألم أقل إنك مشاغبة؟ لا يمكن أن أكتب مثل هذا الخطاب؟
- بسيطة جداً . . سأعرف كيف أرغمك على كتابته بطريقتى الخاصة.
- كيف يا ثريا؟
- لن أكلمك بعد اليوم . . . ولن أخرج معك فى نزهة، بل ولن ترانى من النافذة.
- فضحكت وقلت لها:
- سأسارع بإبلاغ الأمر إلى والدتك وأشكو لها منك.
- لم أعد قاصرة، فأنا لى حرية التصرف حسبما أشاء . .
- قولى ما شئت، فسأنتزعك انتزاعاً، وأرغمك إرغاماً على الخروج معى.

- لعلك تحب المبدأ القائل : ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً؟؟

- هل هناك وسيلة غير ذلك ساعتئذ . . ؟؟

فقالت وهى تبسم :

- هيا بنا فقد تأخرنا عن العودة . . هيا . .

وهكذا أصبحت ثريا جزءاً لا يتجزأ من حياتى ، وكثر لقائى معها تحت سمع أسررتها وأسرة عمى وبصرهم ، وخفت حدة عواطفى لدرجة ما ، فقد كانت هذه الحرية المحدودة ، والصدقة البريئة الصريحة ، مدعاة لرباط أوثق ، وثقة متبادلة .

وكما قلت من قبل ، كانت ثريا قوية صريحة ، وكنت أشعر بقوتها وسيطرتها كلما انفردت معها فى نزهة أو غير ذلك ، فإذا ما نظرت إلى وجهها وحدثتني نفسى بشيء ما ، شعرت برهبة ممزوجة بالاحترام تجاهها ، لقد علمها أبوها أن الشرف حياة ، وعلمتها أمها أن تكون سيدة الموقف دائماً ، وأن لها السيطرة والغلبة ما دامت تعتبر المحافظة على العرض رأس مال . . .

وكثيراً ما فكرت بادئ ذى بدء فى الانقضااض عليها ، وتقييلها رغم أنفها ، لكن عزمى كان ينهار أمام قوتها وإصرارها ، نظراتها الجريئة التى تشبه الديدبان اليقظ المتحفز . . .

- أكان هذا السلوك منها مدعاة لنفورى وانصرافى عنها ، وتبرمى بها . . ؟؟

كلا فقد ازداد حبي لها، وكبرت فى نظرى، وأصبحت هيكلًا مقدسًا للعفة والطهر، ويرغمنى على احترامها، والتضاؤل بجوار عظمتها . . .

وسرعان ما تغيرت نظرتى إلى فتيات المدن اللاتى كنت أحسبهن خليعات مغرورات، لا يعرفن من الوفاء إلا اسمه، ولا من الحب إلا مظاهره الداعرة، وكنت أظن أن الزواج بهن دناءة ومقامرة غير مأمونة النتائج . . وأن الريفيات بفطرتهن وبساطتهن الموروثة هن أدعى للسعادة والثقة، وآمن فى الزواج وحماية الأسرة . . . لقد تغيرت نظرتى كثيرًا، فها هى ثريا تضرب المثل لذلك بحافظتها وبعدها عن التفاهات والسفاف، وها هى ترغمنى على احترامها ومحبتها . . . أجل، تستطيع المرأة أن تكون موردًا للصفاء والحب، وهى متدثرة بثوب عفتها وطهرها، وهذا ما أكدته لى علاقتى مع ثريا . .

وظل دأب ثريا معى هكذا، ولم تشذ عن هذه القاعدة إلا مرة واحدة سيأتى ذكرها فيما بعد . .



الفصل التاسع عشر

طال انتظار الشعب على أمل أن تحل قضيته الوطنية حلاً يرضى آماله . . . وجاءت حكومة الأغلبية، وأمل الجميع أن تستجيب لرغبات الأمة، وتكون لسانها المعبر، والممثل الحقيقي لرغبتها في التحرر الكامل، والاستقلال التام . .

وابتدأت سلسلة جديدة من المحادثات والمفاوضات وجس النبض، والوعود المطاطة فلم يطق الشعب هذه المظاهر التي ملها من كثرة تكرارها، وخرجت الأفواج ثائرة هادرة مطالبة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦، وإباحة حمل السلاح، وتشجيع حركة المقاومة الشعبية في القنال وما إلى ذلك .

وتحت وطأة الضغط الشعبى تمزقت هذه الوثيقة التي كانت بيننا وبين الإنجليز، وتسابقت جموع الشباب صوب القنال رغم أنف الملك، وتكررت الحوادث التي اشترك فيها عمال وطلبة وموظفون وضباط من الجيش وفلاحون، فساد الذعر معسكرات الإنجليز،

فلجشوا إلى مسائلهم البربرية، وتصرفاتهم الوحشية، فكان التعسف واللصوصية هما ديدنهم عند نقط التفتيش التي أقاموها، وخاصة بعد أن تمردت جموع العمال المصريين، فتركوا معسكراتهم رغم الإغراء أو التهديد...

كان الشعب كله فى اهتمام وتحفز وإصرار على النصر... وازدادت مساحة قوائم المتبرعين فى الصحف السيارة، وطلعت رويداً رويداً على ما يكتب من تسبيح بمجد الملك، وترنيم «بزاهر» عهده..

قال عمى لى: أخاف أن يطعن الملك حركة المقاومة من الخلف.

- لا يمكن يا عمى، فهو الذى وافق على إلغاء المعاهدة..
- كلا، يقال إنه لم يكن يوافق على ذلك، ثم أنسيت أنه كان قد وافق أيضاً على حرب فلسطين؟؟
- الوضع مختلف جد الاختلاف فى هذه المرة..
- لم يختلف كثيراً، وإذا كان الملك - كما يعتقد - قد انتابه على حين غفلة حمى الوطنية، فما على الإنجليز إلا أن يعيدوا مهزلة ٤ فبراير الشهيرة..
- إذا كان الموقف لم يتغير بالنسبة للملك، فإن الشعب قد وثب إلى

الأمام وثبات طويلة ، ولن يصل الإنجليز إلى مأرب من مأربهم بعد ذلك إلا على أشلائنا . .

- عندك حق فى هذه النقطة بالذات ، فالشعب يفهم أن الملك قد يطعنه من الخلف ، ومع ذلك فهو يسير فى إصرار لينال حقوقه . .

- لكن ماذا يحدث لو تأمر الملك مرة أخرى . .

- سيخوض الشعب المعركة الفاصلة ضده هو الآخر . .

- ستزيد أعباء المعركة ، وقد لا ترحج كفة الشعب .

- خذها عقيدة يا سليمان . . الشعب هو الفائز دائماً مهما طال الطريق ، وزاد الصراع ، ومهما كانت الحرب التى يخوضها سجالاً . . . إن إرادة الشعب المؤمن من إرادة الله . . .

- أجل ، لكن الطريق طويل . . . طويل وشاق . .

زارنى سعيد حافظ زيارة غير متوقعة . . .

كان يلبس سترة صفراء . . . قلت له : كيف تركت الإسكندرية وكلية الحقوق ؟

فقال سعيد : لا شأن لى بالإسكندرية ولا بكلية الحقوق . . الوقت وقت كفاح . . . كفاح . . . !! أفهمت ؟؟

- ما هذا الحماس الزائد يا سعيد ، إذا كان أبوك جديراً باسم الشيخ

حافظ هتلر، فما أراك إلا كفتاً لأن تسمى باسم سعيد نابليون . . .

- لن أقضى معك غير ساعتين وسأتركك بعدها . . .

- إلى أين؟؟

- ألا تعلم؟ إلى القنال طبعاً . . . لقد طالبنا بإلغاء المعاهدة، وبإباحة حمل السلاح، واستطعنا الحصول عليه فعلاً، فماذا بقي بعد ذلك؟؟ هل كانت المسألة مجرد هتافات ومطالب . . .

- بارك الله كفاحك يا سعيد . . . لكن هل يعلم أبوك بسفرك؟؟

- الوقت ضيق، وقد طلبونا للسفر بسرعة، وسأكلفك بكتابة خطاب إليه .

- لكن ماذا؟ إننى أعرف ما تقول . . . أعلم أنها حياتى، وأنا أتصرف فيها حسبما أشاء، وليس لأحد دخل فى ذلك، قد يتألم والدى أو يحزن، ويعتبرنى مغامراً، لكن هذا لن يثينى عما اعتزمت . . . ومن أدراك أن أبى سيتضايق مما أفعل؟؟ إنه لا يقل حماساً ووطنية عنى . . .

- بل هو الذى غرسها فىك ورعاها . .

وضغط سعيد بأسنانه، وكور كفه السمراء، وضرب بها على

المنضدة وقال:

- لا بد أن نثار من هؤلاء الأوغاد ..

ما أكثر الأشياء التى كان سعيد يريد أن يثار لها . . . جده . . وأخته، حرمانه من دخول الكلية الحربية، أهوال الحرب وآلامها . . ابن مرسى أبو عفر الذى سخر منه لأن بسيمة خادمة . . الحياة السياسية الفاسدة . . الظلم الاجتماعى . . الرشوة . . المحسوبيات . . الانحلال ؛ لأن كل هذه الأشياء أعراض لمرض واحد هو الاستعمار . .

وانطلق سعيد حافظ بحلته الصفراء، وعوده الفارع، وحقيته فى يده، ليلحق بالجموع الذاهبة إلى الموت -أعنى الحياة- الجموع التى لا تحمل من السلاح إلا التافه الصديد، ولا تفخر إلا بما فى قلبها من إيمان وطيد .

وأخذت أتبع أنباء المعركة باهتمام بالغ . . . انفجارات هنا، وكمين هناك، لغم تحت كوبرى . . . نصف لسكة حديدية . . هجوم على معسكر، منشورات تلقى فى أماكن القيادة الإنجليزية . . عبارات «كتائب التحرير مرت من هنا» مخطوطة فى كل مكان من معسكراتهم . . مواكب الشهداء فى القاهرة والإسكندرية والقنال . . قصص البطولة فى كل بيت . . أطفال يشعلون النار فى معسكرات الأعداء . . أمة تتحرك رغم القيود الثقيلة التى تكبلها من قديم الزمان .

ولم أنسَ أن أكتب للشيخ حافظ شيخاً خطاباً كما أراد سعيد، وملاّته بعبارات المواساة والتشجيع، ويظهر أن الشيخ حافظ رثى لحالى وابتسم لسذاجتى، فقد قال فى خطابه الذى رده به على: «... سامحك الله يا سليمان... أتظن أنى أضن بابنى به على وطنه؟؟ إن دم التضحية يا ولدى يجرى متسلسلاً من أب لابن فى شراييننا، وكم كنت أتمنى أن أكون بجانب سعيد، لكن جزى الله الشيب بما أوهن من جسدى، وأضعف من جلدى... صحيح أن أمه تبكى بكاء مرّاً، وتزعم أننى السبب فى فقدان بريمة، وسأكون أيضاً الجانى على سعيد، بما أفرغه فى عقله من أفكار وآراء... ولا شك أن خضرة زوجتى معذورة لجهلها، فهى لا تأمل من الحياة غير وظيفة طيبة لسعيد، وزيجة موفقة لسعيد، وسلامة وعافية لسعيد... أما التضحية والكفاح والوطنية فهذه مترادفات مبهمة، وطلاسم لا معنى لهل عندها، ولهذا فهى تسب الحكومة والإنجليز، وتسبى معهم، لأننا كنا السبب فى حرمانها من سعيد...»

قلت لها: لا تحزنى يا خضرة إن ابنك بطل..

فردت علىّ نائرة:

- بطل؟؟ أنت يا شيخ حافظ مجنون طول حياتك.. وستورث ابنك الجنون هو الآخر.. يا للمصيبة..!!

ألست معى يا سليمان فى أنها معذورة .. ؟ أما أنا فأصلى ليل نهار ،
وأدعو الله أن ينصر سعيداً وإخوانه ويكتب لهم النجاة ، فقلبى -
على البعد - مع كل خطوة من خطواتهم ، وروحي تهفو لكل خبر
عنهم ..



وجدت أحداث ضخمة زلزلت مصر بعنف وقوة ... العدوان
الإنجليزى على دار المحافظة بالإسماعلية ، سقوط عشرات من
رجال الأمن صرعى الرصاص الغادر .. الحادث يهز الشعب من
أقصاه إلى أقصاه . حريق القاهرة وما فيه من سلب ونهب .
المنشآت والدور تشتعل ، بينما الملك يحتفل فى قصره بالمولود
الجديد ولى العرش .. إقالة وزارة ثم تولية أخرى .. ليالى القاهرة
ميتة صامتة لمنع التجول .. انتكاس حركة المقاومة ، مصر تعيش فى
حلم رهيب مملوء بأشباح الهلع والارتياح .

وعادت أفواج الشباب من القنال ، لكن سعيد حافظ لم
يعد ...

وخفت أنغام الكفاح ، وأناشيد النضال تحت ضغط الإرهاب ،
حتى أغانى الإذاعة الوطنية لم تعد تطرق الأذان ، وبقيت الأنغام
الحالة ، والألحان التى تحكى عن وله العاشقين ، وهيام المحبين ..
وبكى الشيخ حافظ فآلمتنى دموعه حتى بكيت معه .. قلت له :

- ألم يكن فى حسابك أن يقضى سعيد شهيداً فى المعركة؟

- بلى ، لكنى أبوه . . ثم الخيانة التى طعنت كفاحه من الخلف ، إن هذا ما ييكينى ، بل هو أقسى على من فقدان ولدى . . . إن قلبى يغلى بالحقْد والنقمة على المجرمين الذين شوهوا حركة الكفاح . . وجعلوا منها سلعة وتجارة . .

وتراءت لى صورة سعيد بحلته الصفراء وهو يقول :

« لا بد أن نثار . . » فساءلت نفسى : هل نثار فعلاً ، وشفى غليله وغليل أمته المستعبدة؟؟ أما خضرة والدة سعيد فقد ولولت ، وقلبت حياة الأسرة إلى صراخ وجحيم ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الجنون ، بل إنها جلست لتبكى بسمية وتبكى معها أم سعيد ، والشئ يذكر . .

وأقبل الشيخ حافظ ذات مساء إلى مسكننا ، وقذف أمامى بورقة صغيرة مكتوب فيها خمسة أسماء بينهم اسم «سعيد حافظ شيخا» ، وقبل أن أسأله عن مدلول هذه الأسماء قال :

- علمت من قيادة كتائب التحرير أن أصحاب هذه الأسماء الخمسة لم يستشهدوا كما أشيع ، لكنهم وقعوا أسرى فى أيدى الإنجليز .

- إذا فسعيد ما زال حياً لكنه أسير فى المعسكرات البريطانية . .

- يرجع هذا .

- الحمد لله . . ألف مبروك .

وسنحاول فى الغد إن شاء الله مقابلة رئيس الوزراء أنا ومن يمثلون هؤلاء الأسرى ، ونطلب منه أن يتصل رسمياً بالحكومة البريطانية لتسليمهم .

- وسأكون أنا معك أيضاً . .

- ولقد وعدنى بعض الصحفيين بأنه سيحاول إثارة الموضوع فى الصحف ، ورغم الرقابة الشديدة ، ووجود الأحكام العسكرية . .

ووثبت من مكانى لأقبل رأس الشيخ وأهتته بنجاة سعيد . .

وجلست أفكر : كيف أستقبل سعيداً عند عودته . . ؟؟

لا بد أن أقيم له حفلاً عظيماً ، بل إن الحماس قد سيطر على وفكرت فى كتابة قصيدة من الشعر ولو مكسورة الوزن ، بالرغم من عداوتى التقليدية للشعر الجاهلى ومقامات الحريرى وما شاكلها . . .

وتواترت الأنباء عن تعذيب الإنجليز للأسرى الأبطال ، وسمعنا الكثير عن الكلاب المتوحشة التى تغرز أنيابها فى أجسادهم ، وعن الحمامات الثلجة التى يقذف بهم فيها ، وعن

تركهم بلا طعام أو شراب والسياط تنزل على أجسادهم، وعن اقتلاع أظافرهم فى عنف وغلظة، ونزع شعرهم فى قسوة منقطعة النظر؛ من أجل استقاء الأنبياء منهم، فازداد الضغط على الحكومة حتى تلح فى مطالبتها بتسليمهم . . .

وكان سماع هذه الأنباء يؤلم الشيخ حافظ فيذرف الدمع السخين، لكنه كان يعود ويحمد الله على أن ابنه ما زال حياً يرزق، أما التعذيب والاضطهاد فسيعد سيتحملها حتى ثمر الأزمة بسلام . .
وأخيراً عاد الأسرى الخمسة . . عادوا وقد طالت لقد عاشوا مع الموت أياماً حالكة مفزعة، حضروا فى اليوم التالى إلى الجامعة، وسط الهتافات الراعدة، والترحيب العظيم، ترمقهم نظرات الحب والتقدير من الألوف المؤلفة شعورهم، وضمرت أجسامهم من كثرة ما لاقوا من أهوال، التى احتشدت لاستقبالهم فى الجامعة، رغم الأحكام العسكرية، وتكميم الأفواه، والجو الخانق الذى يسود أنحاء البلاد . .



الفصل العشرون



قام فريق الجواله بكليتنا برحلة كشفية إلى معسكر الكشفاء الدائم جوار بحيرة «قارون» وكنت مع الرهط فى هذه الرحلة التى استغرقت أسبوعاً كاملاً، وعقب انتهاء الرحلة عدت فى المساء متأخراً، وكان شارع الطولونى هادئاً لا تكاد تسمع فيه حركة، والضوء الباهت يزيده سكوتاً فوق سكون ووحشة إلى وحشة، ولفت نظرى وجود أعلام خضراء وحمراء، ومصابيح ملونة، وبقيّة مسرح متنقل أمام منزلنا، لكننى كنت متعباً من أثر السفر، فقصدت من فورى إلى حجرتى لأصيب بعض النوم فى هذه الساعة المتأخرة... وحوالى الثامنة صباحاً أقبلت زوجة عمى وهزتنى برفق وهى تقول :

- لقد تأخرت فى نومك كثيراً ففانتك صلاة الصبح... ألا تقوم؟؟

فتمطيت وتشاءبت، وأنا أحاول أن أرفع أهدابى الثقيلة التى ما زال النوم يغلقها بالرغم من جلوسى فى السرير...

وبعد تناولى طعام الفطور هممت بفتح النافذة، ونفسى تحدثنى برؤية «ثريا» بعد هذه الغيبة، لكننى تذكرت أنها تكون فى مثل هذه الساعة بالمدرسة، وما أشد ما كانت دهشتى حينما وجدتها تقف فى نافذتها وتبتسم وتحينى تحية الصباح ملوحة بيدها...

ولمحت أحد العمال يستعين بسلم خشبى لينزل الأعلام والأضواء الملونة، وشعرت بزوجة عمى تدلف إلى حجرتى فقلت لها:

- ما هذه الزينات والمسرح الذى كان مقاماً ليلة أمس؟

- ألا تعلم؟؟

- ومن أدرانى؟

- لا. هذا كثير جداً، كيف لا تعلم أن ثريا قد عقد قرانها ليلة أمس، وستزوج بعد أيام قلائل.

- ثريا؟؟ يا خبر...!!

قلتها فى سرعة وانفعال دون أن أستطيع أن أمسك بزمام لسانى...

- طبعاً، لك أن تدهش لأنهم لم يدعوك فى الحفل، لكنهم معذرون فقد كنت بعيداً عن القاهرة، ولا يعرف لك عنوان...

وعلى كل حال فإن ثريا كانت قلقة من أجلك ، لكنها احتفظت لك بنصيبك من الشربات وما إلى ذلك ..

كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على ، كنت كمن رنت فوق رأسه كتلة من الصخر تارجح لها كيانه ، وتبعثر على أثرها جماع ذهنه فلا يدري ؛ كيف يفكر ولا بماذا ينطق .. قلت لنفسى : « هذا مستحيل ... لأننى لم أكن أتصور هذا الذى حدث ، ولا فكرت فيه على الإطلاق ... أتصير ثريا لغيرى ؟؟ هذا فظيع ولن يكون ... !! لقد قررت من زمن أنها لى وحدى ، وسأتزوجها ولن أستطيع العيش بدونها ، وكان الأمر يبدو لى سهلاً بسيطاً ، فأنا أهل لها وهى أهل لى ، وعواطفنا متبادلة ..

وبعد أخبرتنى زوجة عمى بكل شىء ...

قلت لها : كيف حدث هذا فجأة ودون سابق إنذار ؟؟

- كثيراً ما يكون زواج البنت بالصدفة والحظ ..

- ربما ، لكن كيف تم ذلك لثريا ؟؟

- إن رئيس قسم تموين الخليفة . وفى الوقت نفسه رئيس والد ثريا ، رجل فى الخامسة والأربعين من عمره ، ومن أسرة طيبة السمعة ، متسعة الثراء .

- لقد فهمت الآن، لا بد وأن ثريا تزوجت ابنه . . فضحكت زوجة عمى وقالت: صبرك علىّ يا سليمان .

ثم استطردت قائلة :

- ولقد تقرر نقل والد ثريا من القاهرة إلى الصعيد .

- متى كان ذلك؟؟

- فى أوائل الأسبوع الماضى . .

- لا شك أنه تألم كثيراً، وخاصة لأنه كبير السن .

- وهذا ما حدث فعلاً، لذلك أخذ يقابل هذا، ويتوسل إلى ذاك

من رجال الوزارة ذوى الكلمة المسموعة بلا فائدة، ولقد جاءه

رئيس المكتب بنفسه -رئيس القسم- ليزوره زيارة الوداع، وكما

قلت لك رأى ثريا عن طريق الصدفة فأعجبته، وسرعان ما طلب

يدها من والدها .

- لنفسه؟؟

- أجل، ووعدته بأن يعمل كل ما فى وسعه لإلغاء النقل لأنه -أى

العريس- له صلة وثيقة بوكيل وزارة التموين، ولم يكتف بهذا

بل وعده بترقية عاجلة، ووالد ثريا كما تعلم من الموظفين

المنسيين . .

- كيف قبلوه زوجها لها رغم فارق السن؟؟ إنها صفقة دنيئة، ولا بد أنها تمت رغم أنف ثريا...
- على العكس، إن ثريا فتاة طبية عاقلة تفهم ظروف أسرتها وتعمل على تأمين مستقبلها.
- عندما سمعت هذا الكلام خيل إلى كأن خنجرًا مسمومًا يتخذ طريقه إلى كبدي، لهذا قلت في غيظ:
- ومن أجل ذلك قذفوا بها بين رجل يدلف إلى الشيخوخة..
- وماذا تريد الفتاة؟؟ مالا ومركزًا بمتازًا وأسرة طبية، ورجلاً ذا صحة سليمة قوية، أما فارق السن فقد يأتي في المرتبة الأخيرة من حيث الأهمية...



انتهزت فرصة وجود ثريا وحدها في البيت بعد أن خرج والدها وزوجة عمى إلى حيث يشترون لها بعض ما يلزمها من حاجيات الزواج، واندفعت ناحية البيت، وكانت عوامل عدة وانفعالات مختلطة تعصف بكيانى، حتى إنى تصرفت تصرفاً جنونياً لقيتها، ولست أدري كيف طوعت لى نفسى أن أقترف هذا العمل الشاذ، فقد هبت «ثريا» لتستقبلنى عندما رأتنى وهى تبتسم وترحب بى،

فمدت يدها لتصافحني لكن يدي كانت أسبق من يدها، إذ رفعتها وهويت بها على وجتيها، والشرر يتطاير من عيني، فعقدت الدهشة لسانها، فوضعت يدها مكان الصفحة، ووقفت صامته برهة من الزمن ثم قالت:

- ما هذا يا سليمان؟؟ هل جنت؟؟ حسبتك جنت تحمل إلى التهته وتدعولي بالتوفيق...

- احرصى يا عذبة الوفاء... أهذا هو حبك ووقاؤك؟؟

وشعرت بأنى قد قمت بعمل غير لائق، ولولا اعتصامها بالصبر، وحبها لى لردت علي بالمثل، أو استغاثت وقذفت بى إلى الشارع، لكنها قالت والدموع تبلل عينيها:

- ماذا تقصد بذلك؟؟ هل من الوفاء لك أن أعيش عانساً، وأرفض الزواج وأخرج على إرادة أبى؟؟

فلم أجب، بل رمقتها بنظرة احتقار قاسية، بينما التفتت هى إلى فى اهتمام وكأنها تذكرت شيئاً كان غائباً عن ذهنها وقالت:

- أكنت ترغب فى الزواج منى يا سليمان؟؟

- ألم تكونى تعلمين ذلك؟؟

- ومن أدرانى؟؟ أنك لم تقل شيئاً عن ذلك ولو مرة واحدة.

- أظن أن الأمر لم يكن فى حاجة إلى كلام . . . فاطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها لأرى الدموع تهطل من عينيها وقالت :

- هل من الإنصاف أن أنتظرك سبعة أعوام أخرى حتى تنتهى من دراستك الطبية؟ ومن يدرى بعد ذلك؟؟ لعل سليمان عبد الدايم الطبيب يرفض الزواج من ثريا ابنة الموظف الصغير المنسى، والذي يسكن فى شارع الطولونى . . . إن المستقبل أمامك واسع كبير . . .

- كفى عن هذا الهراء، ودعى تلك العلل الواهية . . فاقتربت ثريا منى، والدموع ما زالت تترقرق فى عينيها، وألقت يديها فوق كتفى وقالت وهى تمزغ وجهها ورأسها فى صدرى :

- لكم أحببتك يا سليمان . . . أحببتك بكل روحى وجوارحى، وأنت تعلم ذلك، واغتفرت لك مضايقتك وما كان يقوله عنى فتيات الشارع ونساؤه، لكن يظهر الإنسان فى هذه الحياة مدفوع بقوة قاهرة لا يستطيع الوقوف فى تيارها .

وكان كلام ثريا واضحاً غاية الوضوح . . كانت تريد أن تقول إنها ضحت بنفسها من أجل رغبة أبيها، ومن أجل إنقاذه من الانتقال إلى الصعيد، وفى سبيل الترقية المنتظرة .

ولم يكن الأمر فى نظرهم يحمل معنى التضحية بكل مدلولاتها، لأن الزوج - كما تعلم - يسيل لعاب الكثيرات للزواج منه رغم فارق السن . .

ويبدو أن ثريا كانت منطقية فى أفكارها، وأكثر واقعية منى، لأنى ما زلت أتمسك بأهداب الحب الذى لا يستطيع أن يمس الأرض بقدمين، والحب المخلق فى سماء الخيال والأحلام، إذا تصورت أن ثريا لو كانت تحبى حقيقة لرفضت الزواج من رئيس المكتب، ولما اكرثت بنقل أو ترقية أبيها، أو اهتمت بمال أو مركز، ولهربت معى إلى آخر الدنيا، ولم أسأل نفسى: «هل كنت أنا على استعداد لأن أغامر وأضحى من أجل هذا الحب؟؟ ومن أين لى بالمال اللازم وأبى يرهق نفسه إرهاباً حتى يحقق لى ما يلزمنى من مطالب؟؟»، لكنى أبدت عناداً شديداً، واتهمت ثريا بكل معانى الغدر والخيانة والتنكر لحبنا و . . . ولم أستجب لدموعها واعتذارها إلا حينما أغرقت وجهى بالقبلات . . . أجل القبلات المجنونة النهمه، والتى ألهمت بها شفتى ووجتى وجينى وشعرى فاستسلمت لها وصرت كالطفل المدلل بين ذراعيها . . .

ووجدتنى أنا الآخر أسكب دموعاً لا أستطيع لها حبساً . . .
ولما حان موعد ارتحالى قالت ثريا وهى تداعب شعرى بأناملها

الجميلة، والدموع ما زالت تبلل أهدابها، ورنه البكاء ما برحت تبدو في كلماتها:

- سليمان... لى رجاء... أتعشم أن تحققه لى بحق حبنا الذى لن يغادر قلبى مدى الحياة... رجاء واحد، قد يكون فيه راحة لى وراحة لك فلعلك تحققه...!!

ولم يكن فى استطاعتى أن أجيب فاستطردت ثريا قائلة:

- هذه آخر مرة أراك فيها قبل زواجى، فهل تعدنى بذلك؟؟

فهممت بالخروج دون أن أجيب، لكنها تعلقت بعنقى من جديد وعادت لقبلاتها العميقة، وألحت على كى أستجيب لمطلبها، فقلت متفعلاً:

- أعدك بذلك.

- مع السلامة.

وخرجت من عندها قاصداً حجرتى، وأخذت أجمع ما يكفينى من ملابس وكتب لمدة أسبوع، وهو الوقت الذى سيتم فيه زواج ثريا، وأضعه فى حقيبتى، وكان الدنيا من حولى كانت تعزف لحناً جنائزياً يمزق نياط قلبى، والدمع قد احتبس فى أعماقى، وبدأت لى الدنيا سوداء حزينة لاخير فيها، ولا أمل فى أيامها...

وانطلقت إلى أحد زملائي لأقضى عنده هذا الأسبوع، وشريط
ذكرياتي مع ثريا يمر على ذهني بكل دقائقه وتفصيله، واللحن
الجنائزي يصب أنغامه المكتبة في وجتي . . . وعنقي وشعري، إلى
حيث كانت قبلاتها تمسح عني كثيراً مما بنفسى من الألم
وأوجاع . . . ولم أنسَ بالطبع أن أكتب خطاباً لعمى استأذنه فيه
قضاء أسبوع مع زملائي استعداداً للامتحان ، وفي اعتقادي أن هذه
الحجة الواهية لم تكن لتفنع عمى ولا زوجته الطيبة .



الفصل الحادى والعشرون



وعدت إلى عمى بعد أسبوع لأجد أمامى لغزاً محيراً فى انتظارى، حتى لكان الأحداث قد اتفقت على أن تأتى فى أسبوع واحد، وتكوم فوق رأسى كما قال عمى: أين كنت؟ لقد ظللت أبحث عنك لمدة ثلاثة أيام متتالية.

- لقد أخبرتك أنى سأغيب أسبوعاً، فليس هناك محل للقلق إذاً..

ولم يستطرد عمى فى نقاشه معى احتراماً لشعورى، وحتى لا ينكأ الجرح الذى تسبب عن زواج ثريا، لكنه قصد مباشرة إلى الموضوع فقال:

- لقد وصل لك خطاب من سعيد حافظ.

- أين هو...!!

وقدم عمى الخطاب فوجدته لا يزيد على بضع كلمات موجزة:

«أخى سليمان . . أرجو انتظاري بعد أربعة أيام من تاريخه، لأننى سأتى مع والدى إلى القاهرة لاستلام «بسيمة» وشكراً . . .

«بسيمة»؟؟ وكيف ذلك؟؟

أبعد ستة أعوام أو يزيد تعود بسيمة؟؟ إن هذا البعث لا يكاد يحدث إلا فى الأساطير أو الأقاويص المقتعلة . . . ! ! ! لقد انتهت بسيمة الصغيرة من زمن بعيد، لا يعقل أنها أفلتت من غارات هتلر على الإسكندرية . وإذا كانت على قيد الحياة طوال هذه المدة، فما الذى حجبها عن الظهور؟؟ يا إلهى؟! هل أنا فى حلم أم أن ما أراه حقيقة واقعة . . .؟؟

وانتظرت سعيد على أحر من الجمر فى الميعاد المحدد، لكنه لم يحضر وكذلك أبوه . . وكان الامتحان على الأبواب، وأمامى كثير من المجهود الشاق والعمل المضنى، إذ لا بد أن أعيد تشريح الضفدعة والصرصور والأرنب وثعبان البطن ودودة الأرض وما إلى ذلك، ولم يكن هذا بالعمل السهل على، فبالرغم من عشقى للعلوم وإقبالى عليها إلا أنى كنت أصاب برعشة فى يدى كلما أمسكت الموضع -المشروط- وهممت بالتشريح، وأمامى الكثير من التجارب الكهربائية والحرارية والكيميائية و . . . مما ينوء به طالب الإعدادية بكلية الطب، فرأيت من الواجب أن أنسى ثرياً وأنسى

بسيمة - أو على الأقل أحاول ذلك - ولو إلى حين، فالأمر يتعلق بمستقبلي وبالقروش التي يرسلها إلى والدي، وبسمعتي كطالب ناجح في قريتنا ومحسود من الجميع، وقلت لنفسي:

- يكفيني تفكيراً في الحب والغرام الشهور الماضية، ولا داعي لأن تسيطر هذه الأفكار على عقلي أكثر من ذلك، لأن التماذي فيها معناه الفشل الذريع، والضيعة التي ما بعدها ضيعة... ورضخت لذلك...

لكنني كنت أحس في قراري نفسي بمشاعر كثيرة مختلطة، تبرز فيها ذكريات بسيمة ومأساتها بفجيعتي في ثريا وزواجها المباغت السريع..

واستطعت بعد حين أن أغرق نفسي في خضم الأعمال الكثيرة في المعامل والمدرجات وفي البيت، فاستسلمت بذلك للجو الجديد، إذ لم يكن لدى الوقت الذي أضيعه عبثاً، والدقائق التي أفرغ فيها أستغلها في النوم، أو في مقابلة أحد زملاء الكلية للنقاش في بعض المسائل العلمية..

وانتهى الامتحان على وجه مرضٍ استراح له ضميري، فعولت على الإسراع إلى قريتنا. وخاصة أن القاهرة لم يعد فيها ما يبهجنى بعد أن نأت ثريا، بل إنني أحسست بميل جارف وحنين عجيب إلى

بسيمة ، وأيامها الساذجة الجميلة ، ووجدت من اللهفة والقلق وما يدفعنى إلى لقائها . .

فهل يقيظ الحب القديم ، وأراد أن ينفض عنه أكفانه ليبعث من جديد رغم تقادم العهد ، وتوالى الأحداث ، وتغير الأفكار والآمال؟؟ وقبل سفرى بيوم واحد نزل على سعيد حافظ بغته . . .

قلت له : خير إن شاء الله . . ما الذى أتى بك هكذا فجأة دون سابق إنذار؟ لعلك انتهيت من الامتحان ، وأثرت الاستمتاع بليالى القاهرة .

- كلاً لم أمتحن على الإطلاق . .

- أصحيح ما تقول؟

- لقد أتيت لاستيفاء بعض الأوراق ، وإنهاء بعض الأعمال المتعلقة بشأن قبولى فى الكلية الحربية . .

- من جديد؟؟ أما زلت مصرأ؟؟

- وعندى أمل مائة فى المائة هذه المرة بعون الله . .

- هكذا أنت دائماً يا سعيد . . إذا أردت شيئاً تفانيت فيه ولا تبغى به بديلاً ، ما عيب كلية الحقوق؟

- أعود للحديث عنها مرة أخرى ، دعنا من هذا ، لقد استقر رأى .

وعادت إلى ذهني حكاية بسيمة، وكان المفروض أن تكون هي بداية حديثنا، لكن وجدت نفسي في شبه إحراج لا أعرف له سبباً وجيهاً، حتى لكان هناك هاتفاً في داخلي يوسوس لى أن فى الأمر شيئاً قد لا يرتاح له قلبى، أو يرتاح إليه سعيد، وأحسست بميل جارف لمعرفة الأمر، لا ولم أستطع الانتظار أكثر من ذلك، فقلت:

- لقد أرسلت لى خطاباً تطلب منى انتظارك أنت والدك .

- أجل، لكن لم أجد ما يدعو لمقابلتك تلك المرة.

- إذا فقد أتيتم إلى القاهرة؟؟

- طبعاً . .

وبدا التأثر والألم على وجه سعيد، فأوجست خيفة، لكنى تشجعت وقلت: وهل وجدتم بسيمة وعادت معكم؟؟

- نعم، لكن ليتهما لم تأت . . .!!!

وهب سعيد واقفاً والضيق قد أخذ منه كل مأخذ، وقال:

- هيا بنا نتجول قليلاً فى القاهرة . . .

- ألا تنتظر حتى يعود عمى ونتناول العشاء معاً؟

- فى الإمكان تأجيل ذلك بعض الوقت .

ومع تلهفى الشديد لأخبار بسيمة وما حدث لها، لم أستطع أن أفاتح سعيد فى هذا الموضوع مرة أخرى حتى لا أوله أو أخرجـه . .

وهيأت الظروف لى فرصة طيبة لتحقيق أمنيتى . ففى أثناء توقيع الكشف الطبى على سعيد لدخول الكلية ضمن الدفعة الجديدة جدت أمور، وقال لى سعيد :

- أنا فى حاجة ماسة إلى عشرين جنيهاً، بأسرع وقت . .

- ما الحل؟؟ إن مرتب عمى كله لا يتجاوز العشرة جنيهات . .

- عندى فكرة . .

- قل، وأنا مستعد لتقديم كل ما فى إمكاني . .

- أنا لا أستطيع مغادرة القاهرة الآن حتى لا أتغيب عن الكشف الطبى .

- طبعاً . . . طبعاً . .

- لهذا أرى أن تسافر إلى «القرشية» فتحضر هذا المبلغ من والدى وتعود إلى القاهرة فى الغد مباشرة .

- لكن . .

فقاطعنى قائلاً :

- ليس أمامنا غير هذه الطريقة . . فلا مجال للتردد إذًا . .
- على بركة الله . .



- وعلمت بكل ما حدث لبسيمة حينما بلغت القرشية . . .
- أخبرتني أخت الشيخ حافظ عن كل شيء ، وقالت لى :
- آه لو تعلم حالنا حينما وصلت بسيمة إلينا !!!
- لقد أثر سعيد الصمت ولم يخبرنى بشيء . . .
- له العذر . . . لقد صدمنا صدمة قاسية . . .
- كيف؟؟

- كان يومًا مشكومًا ، أقسى مما لو كنا دفنا بسيمة فى القبر وأهلنا عليها التراب . . لقد أتى بها أبوها تحت ستار الليل . . . وعندما دخلت البيت كانت تصرخ وتبكى وتهذى كالمحمومة . . . وظلت حياتها بعد ذلك مقسمة بين فترات الذهول قد تطول وقد تقصر ، وفترات من الهياج والهذيان والبكاء . . وكلما رأت أحدًا أو سمعت صوتًا مقتربًا فزعت وارتاعت وتمسكت بأهداب من حولها .

- وماذا تقول فى هذيانها .؟؟

تتحدث عن الغارات العنيفة فى الإسكندرية، وتروى الكثير عن الدماء والأشلاء والموت والمخايب، وتزعم أن سيدها -ثرى الحرب- فى إحدى المرات قد جمع أولاده وزوجته وولى هارباً عن البيت، وتركوها وحدها حيث الظلام والألم والخوف وطيف الموت الذى يحوم . . .

لم يكن عنده وقت لياخذها ضمن أولاده، ثم تتحدث عن هجرة سيدها إلى أسبوط مسقط رأسه، وبقائه فيها بعد الحرب بعام أو أكثر . . وهناك طلبت منه أن ترى والدها فضحك ضحكة ساخرة، وماطلها ولم يحقق ما تريد . . ثم انتقل سيدها إلى منطقة ريفية قرب أسبوط حيث توجد ضياعة الواسعة، وفى إحدى هذه الضياع حدثت لبسيمة مأساة . .

فقلت فى لهفة :

- ماذا حدث؟؟ . .

- سمعتها تهذى وتقول : حرام عليك يا سيدى . . حرام عليك . . ماذا تريد منى؟

لا . . . لا أستطيع، إن أبى لو علم بذلك لقتلنى ووزع لحمى على الكلاب . . .

أقول يا سيدى ستتزوجنى؟؟ لا . لا أريد هذا الزواج فإن
سيدتى تضربنى لو حدث ذلك . . أنا خادمة يا سيدى . .
اتركنى . . . وعندئذ تنهمر دموعها ، وتشب أظافرها فى جسدها
وتمزق ثيابها ، وتجرى فى الحجرة هنا وهناك ، ثم تبدأ فى هذيانها من
جديد : «ماذا تريد مرة ثانية يا سيدى؟ . كلالن أقبل هذا . . . لقد
وعدتنى بالزواج ولم تفعل . . ماذا تقول؟؟ أتهددنى بالطرء ،
ويتسلمى لقسم الشرطة ، وتقول عنى إننى من بنات الليل
الفسادات وأننى أتجنى عليك؟؟ حرام عليك يا سيدى أنك
تظلمنى . . أنت من اعتدى على فلم أعد عذراء . . . ووعدتنى
بالزواج وما زلت تماطل . . . إذا فأنت ما زلت عند وعك بالزواج
منى . . . لك ما تريد . . . وتسود فترة صمت تضحك فيها بسيمة
ضحكات هسترية ممتزجة بالبكاء ، ثم تطوف بوجهها سحابة من
الحزن القاتل وهى تواصل هذيانها . . إلى أين يا سيدى . . . إلى
بور سعيد؟؟ أتقيم فيها بدلاً من الإسكندرية؟؟ ليكن فأنا معك فى
أى مكان ، لكن أريد أن تتزوجى أولاً حتى أطمئن ، ماذا يحدث لو
جاء أبى ووجدنى على هذه الحالة . أقسم لك يا سيدى أنه سيشرب
من دمنى . ثم تصمت قليلاً ، وتقول فزعة : مات؟ كيف؟؟ أقول إن
أبى الشيخ حافظ مات . . . لا يمكن . . لن يموت قبل أن
يرانى . . . يرانى زوجة . . إنك تخدعنى يا سيدى . . .»

وهكذا تمضى فى هذيانها على هذا النمط المحزن، وتظل طول الليل تهرف بهذه الأقوال، فتسأل وتجيّب على نفسها، وفهمت من كلامها أيضاً أن سيدها حينما غادر بورسعيد إلى الإسكندرية مرة ثانية، تعتمد أن يهرب منها فى محطة «سيدى جابر» بعد أن ترك معها حقيبة فارغة وأمرها بالانتظار حتى يعود...

ومضى هو وأسرته إلى حيث لا تعلم بسيمة... ويظهر أن المسكينة قد هالتها الصدمة والمأزق المحزن الذى تورطت فيه، ففضلت أن تقذف بنفسها فى البحر، لكن أمنيته لم تتحقق إذ سرعان ما أنقذوها، وقادوها إلى أحد الأقسام، فوجدت نفسها بين عشية وضحاها وسط السارقات والعاهرات، وأصبحت موضعاً للزراية والاحتقار... فانهارت أعصابها...! انهارت حينما فكرت فى أيها كيف تقابله؟؟ وحينما فكرت فيما مربها من أحداث، ووجدت نفسها طريدة شريدة لا تعرف لها ملجأ ولا مأوى، فسارت فى الطريق إياه..

وسكتت أخت الشيخ حافظ لتسترد أنفاسها، بينما رددت عليها من فورى قائلاً:

- أى طريق تقصدين؟؟

- مستشفى الأمراض العقلية...

- يا خبر أسود...!!!

- وهناك عثرنا عليها بطريق الصدفة بعد هذه السنوات التي مرت... وياليتنا ما عثرنا عليها...!!!

- ومن قادكم إليها...؟؟

- أتعرف «الشيخة روحية» الموجودة في بلدكم... .

- تلك المقرئة الضعيفة البصر والتي ذهبت إلى مستشفى الأمراض العقلية من مدة؟

- أجل، إنها هي، لقد ألتقت بسيمة هناك، وعرفت حكايتها كاملة من أفواه المرضى. وكانت حالة «الشيخة روحية» عبارة عن لومة خفيفة، سرعان ما شفيت منها، فاتصلت بسيمة في الأوقات التي كانت تهدأ فيها أعصابها، وسألتها عما إذا كانت ترغب في العودة إلى أبيها حافظ، فارتاعت وبكت وفرت من أمامها... . ولما عادت الشيخة روحية، وأخبرت الشيخ حافظ بما حدث، ذهب إلى القاهرة وأتى بها، ولما عرضها على الإخصائين أفهموه أن حالتها قد تحسن، لكنها قد تستغرق وقتاً طويلاً... .

- هذا أمر غريب حقاً... .

- يظهر أن مستشفى الأمراض العقلية مجتمع مقفل مثل السجن

تمامًا، سرعان ما يلم نزلها بقصة كل نزيل جديد ونواده
ويلده... .

وبعد فترة التفتت إلى أخت الشيخ حافظ وقالت في دهشة:

- أتبكي يا سليمان...؟؟ إنك لطيب القلب، فقلت في ثورة
واندفاع:

- لقد جعلها ذلك الوغد حطامًا، وتركها كومة من الألم والبؤس،
أقسم لو عرفته أو لقيته يوماً لحطمت جمجمته... .

- هذا نصيب... . والمكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين... .

- قد يكون بعض هذا «النصيب» المكتوب مما يثير النفس ويدفع
للمررد على الأقدار... .

- لكن ما الحيلة؟؟ لا نتيجة ترجى من ذلك... .

ووثبت من مكاني مغتاضًا محاولاً الخروج من بيت الشيخ
حافظ، فأمسكت أخته بكمي وقالت:

- أتريد أن ترى «بسيسة» قبل أن تأتي خضرة من الخارج؟؟

فلم تترك لي فرصة للتردد، بل جذبتني فسرت وراءها وهي
تنصحنى قائلة:

- حذار أن تحدث صوتًا، أو تفتح الباب... . إن هذا ممنوع،
ومدعاة للمتاعب... .

- إذا فكيف أراها . . ٢٢؟

- من ثقب الباب .

واستطعت أن ألقى نظرة شاملة على بسيمة، كان قلبى يدق بعنف وسرعة، وجسدى كله يتفرض انتفاضاً . . . كانت تجلس داخل الحجرة ذاهلة عن كل شيء تمحلق فى اللامنتظر . . . ولست أدري ما الذى جعلنى أشبهها بالأميرة المسحورة، ورغم أنى لم أعرف شيئاً عن هذه الأميرة اللهم إلا ما قرأته عنها فى الأساطير . .

كانت بسيمة - كما صورها لى خيالى دائماً - جميلة القوام جذابة، حلوة التقاطيع رغم الشحوب الذى يكسوها ويبرز وجتيتها، ورغم الذهول الذى تسبح فيه . . . وألهانى النظر فى وجهها عن التدقيق فى ملامحها وهندامها، وفجأة سمعنا طرقات على باب البيت فسارعنا إلى حيث كنا جالسين من قبل، مخافة أن يرانا أحد ونحن نتجسس على بسيمة . . بسيمة التى يقولون أنها فقدت عقلها . . .

وأصررت على السفر إلى القاهرة مباشرة بعد أن أخذت العشرين جنيهاً من الشيخ حافظ، ولم أستجب لرجائه فى قضاء ليلة معه .

ولن أنسى منظر «خضرة» زوجة الشيخ حافظ وهى تقول فى

حزن:

- لقد عادت بسمية . . .

فقلت لها :

- أعلم ذلك . . .

واندفعت خارجاً من البيت قبل أن يلمحوا دموعى التى أخذت
فى الانحدار من جديد .



الفصل الثانى والعشرون



اليوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ..

عربات الجيش تطوف بالشوارع ، والموقف يوحى بالرهبة والتوجس ، لكن الناس كانوا على عكس ذلك .. فالشعب يقابل هذه المظاهرات بالهتاف والتصفيق ، أما الزعماء والقادة القدماء ومن يدور فى فلکهم فقد جمدوا لیتظروا مجريات الحوادث ..

الملك يستجيب لبعض مطالب الجيش ... حركات تطهير فى الحاشية ... المفاجأة الكبرى وهى «فارق یرحل على ظهر المحروسة خارج البلاد فى تمام السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو ..» لقد انهار الإله الأكبر .. والناس بین مصدق ومکذب .. هذا لا یمکن أن يحدث بین يوم وليلة .. المجد والدنيا والصولجان .. کل هذا أصبح لا شىء؟؟؟ یا للعجب ... !!!

قال عمى فريد :

- ها أنت ترى يا سليمان أن حركة الجيش وطرد الملك نتيجة حتمية للمخازى التى رزحنا تحت نيرها زمناً طويلاً.

- إنه نجاح منقطع النظير يا عمى . .

- الثورة أمامها أعمال كثيرة جداً يا سليمان . . أمامها الإقطاع . .

الأحزاب . . وأمامها قوات الأعداء الرابضة فى القنال . . ألا

ترى أن النجاح الآن لم يتحقق منه إلا جزء يسير . . . ؟؟؟

- فعلاً فالأمر أعقد مما أتصور . . .

- لقد ورثنا عن الملك تركة مثقلة بالديون والمفاسد المنبثة فى شتى

مرافق حياتنا -سياسية واقتصادية واجتماعية- وهذا هو الميدان

الحقيقى الذى يجب أن تركز فيه الجهود، وتكتمل

المجهودات . .

- والاستعمار؟؟ أتعتقد أنه يرضى عن هذه الحركة . . ؟؟

- الاستعمار -كما تعلم- يعادى كل تحرر وطنى، وكل انطلاق

نحو حياة أفضل، لهذا فلن يسكت عن مؤامراته وتدابيره،

وعزاؤنا الوحيد أن نكون شعباً يقظاً واعياً لهذه الألاعيب،

وأؤكد لك أن الاستعمار عندما يرانا كتلة واحدة متماسكة

سيحمل عصاه ويرحل، ويحاول أن يخطب ودنا، ويكسب

صداقتنا . . . صداقة الحر للحر، لا صداقة التابع للمتبوع . .

- يا عمى إني أكاد أظير من الفرح . .

- لست وحلك . . . سر فى الشارع فسترى على كل وجه ابتسامة ،
وفى كل عين أملاً ، وأملاً واسعاً نضيراً . . .

يكفى يا ولدى أن هذه أول مرة يحكم مصر مصريون دماً ونشأة
وعواطف . . . إنه حلم تحقق . .

- الآن أستطيع أن أقول إن الحياة أصبح لها معنى يجعلنا نحرص
عليها ونفنى فى سبيلها . . . لقد ردت إلينا قوميتنا واعتبارنا ،
وفى اعتقادي أننا أصبحنا شعباً فى استطاعته أن يسود ويحكم
نفسه ، وينال المنزلة اللائقة به . . .



حينما تم جلاء القوات البريطانية عن مصر بمقتضى اتفاقية
١٩٥٤م ، قلت للضابط الملازم سعيد حافظ شيجا ضاحكاً :

- لم تكذ تتم تعليمك بالكلية الحربية حتى كان الإنجليز فى طريقهم
إلى بلادهم . . مسكين أنت يا سعيد !!! لم تمكنك الظروف من
أن تتأثر منهم .

فلوى سعيد شفته السفلى وقال :

- أنا سيبى الحظ دائماً . . . ويؤسفنى أن يكون هذا هو ختام
الرواية .

- وماذا كنت تريد أكثر من ذلك؟ لقد خرجوا صاغرين أمام
إصرارنا واستمسكاً بحقوقنا، فهل بقي شيء بعد ذلك؟
- لقد كانت إساءتهم لنا كثيراً بحيث لا يمسخها هذا الخروج
الهادئ..

- إنك غريب الأطوار حقاً، لعلك تريد أن تقول لهم قفوا مكانكم،
لا تخرجوا من ديارنا الآن لأننا سنلقنكم درساً قاسياً لن تنسوه حتى
نتأثر لأنفسنا، وحتى لا تسول لكم أنفسكم العودة من جديد..؟؟
- لا داعي للسخرية مني، يجب أن تفهم معركتنا مع الإنجليز ما
زالت ممتدة، ما دام لهم جندي واحد في أي بقعة عربية، وما
دامت أسلحتهم تتدفق على إسرائيل بغزارة، بينما يضمنون بها
علينا الحاجة في نفس يعقوب. إن إسرائيل خطر داهم علينا،
وهي مخلب القط، وعنصر الاضطراب بيننا...

- ولماذا يا سعيد لا تشتري السلاح من أي مكان غير إنجلترا؟؟ ألم
نعد أحراراً؟؟ أليس من حقنا - بل واجبنا - أن نحمل أنفسنا من
عدوان إسرائيل، ونحضر السلاح حتى من الشيطان نفسه؟؟ إذا
لم نفعل ذلك فستورق إسرائيل علينا حياتنا، وتنغص عيشنا..

- هذا ما طالب به ضباط الجيش، ولعلني لا أذيع سرّاً حينما أقول
لك إن هناك صفقات في طريقها إلينا من بعض دول الكتلة
الشرقية..

- غداً يتهمونا بالشيوعية ويملثون الدنيا ضجيجاً ودعاوى باطلة ..
- فليفعلوا ما شاءوا لأننا لن نسكت حتى تدهمنا إسرائيل فى عقر دارنا.
- أجل ، لا حق ، ولا حرية ، ولا كرامة إلا فى ظل القوة التى تحرس وتحمى هذه القيم والمثل العليا التى تحكم بها الإنسانية ..
- وتمر فترة صمت ، ويقول سعيد بعدها :
- نسيت أن أخبرك يا سليمان بأنى سأنتقل إلى منطقة القنال فى حركة التنقلات القريبة ..
- إذن ستحرمنا من أنسك إلى مدة لا يعلم إلا الله مداها ..
- انتهى عهد التلمذة ... عهد الاستقرار ، وبدأنا فى تحمل أعباء الوظيفة ، فعلينا أن نقاسى الغربة ، والبعد عن الأهل والأحباب ..
- هل أحمد الله إذا على أنى ما زلت طالباً بكلية الطب؟؟
- لا مبالغة فيما تقول ..
- يا صديقى إننى أتعجل الأيام حتى أحصل على شهادة إتمام الدراسة ...

- للأسف، نحن لا ندرك جمال هذه الأيام إلا بعد فوات الأوان،
عندئذ نجلس لتغنى بذكرها، أو نترحم على جمالها... .
- ومع ذلك فإنى أحسبك لأنك تخففت من أعباء التعليم،
وضمنت مستقبلك وأصبحت موظفًا لا يستهان به... أما أنا فما
زلت طالبًا، طالبًا لا أكثر رغم أنى فى المرحلة النهائية... ليتنى
دخلت الكلية الحربية معك لكنت استرحت من زمن بعيد... .
أما الدراسة الطبية فهى أشغال شاقة.. لقد هصرت عودى،
وأحنته من طول ما تفحصت وشرحت وذاكرت... .
- لكنك طبيبًا سامى المنزل، غنى الموارد... وغمز سعيد بعينه
ضاحكًا وهو يقول عبارته، بينما تمتمت قائلاً:
- المهم أن يوفقنا الله، ويحقق لنا الآمال... .



كانت كارثة ضخمة تلك التى حلت بى بعد أيام... لم يكن فى
استطاعتى أن أصمد لها، لأنها كانت أكبر من رجولتى وصبرى
وتعليمى؛ بل إنها زلزلت إيمانى بالحياة ومن فيها بالظموح والأمل
والناس والمال وكل ما فى الوجود... وخيل إلى أن الأقدار
تتحدانى دائماً، وتوجه إلى صفعات ظالمة قاسية... أتدرى لماذا؟

لقد ماتت أمى!!!

فصرخت: كيف؟؟ لا أريد أن تموت الآن... إننى أذاكر وأكّد وأستعجل الأيام حتى أرد لها الجميل... كنت أود أن أقدم لها ثمن شقائها وتعبيها من أجلى، فوضعت عشرات المشروعات كي أطبقها بعد تخرجى من الكلية، لقد انتويت أن أحضرها من قرينتا هى وأبى، ونعيش معاً فى إحدى المدن حيث الراحة والهدوء والهناء الذى يلزمهما فى شيخوختهما... بل إننى كنت قد أعددت العدة لنقلها إلى قصر العينى حتى يتم علاج قلبها تحت إشراف أحد أساتذتى المختصين بعد أن اتفقنا على ذلك... ليتنى أسرع... ليتنى فكرت فى هذا الموضوع من قبل... وإشقائى الذى لا ينفد... كم أنا حزين عليك يا أماء!!! إن قلبها رغم علله وأمراضه كان -كما قلت- رحيماً كبيراً، وهل أنسى نصائحها الغالية بشأن مستقبل حياتى ومعاملاتى مع الناس...؟؟

لقد حطمتنى هذه النكبة، وأحنقتنى فى الوقت نفسه، وأصبح الكتاب الذى أذاكر فيه عدواً لدوداً، وشبحاً ثقیل الظل، وأصبحت ضيق النفس لا أرتاح لكلام الأصدقاء، ولا لمواساة المعارف...!!
أهكذا يكون المصير؟؟

يا لتعاسة الإنسان!! لقد كنت أرى العشرات يموتون فى قصر العينى فلا أكاد أشعر بشيء ذى بال، أترحم عليهن بكلمة مقتضية، ثم أذهب إلى حجرة الدرس، كأن لم يحدث شيء، لهذا كنت

أنتقز من النساء الغارقات فى الملابس السوداء واللاتى يقفن أمام
قصر العينى يكيّن ويندبن . .

أما هذه المرة فإنها أمى . . ولماذا يسير الناس فى طريقهم
كالمعتاد . . .

ترى هل تريد منهم أن يحزنوا مثل حزنى ، ويكوا من أجل أمى
دون أن يعرفوها؟ لست أدرى . . يبدو أن الإنسان بسيط . . بسيط
جداً . . ياله من درس قاسٍ . . . !!!

ولاحظ عمى إغراقى فى الحزن وإدمانى فيه ، فقال وهو يغالب
عواطفه الجياشة :

- كفى حزناً يا سليمان . . . إن كأس الموت طوافة على الجميع . . .
- كان من الممكن أن تبقى حية .

- «كان» فعل ماض ، فلا تقلق بالك بأمر مضى وفات ، وإلا
جلبت لنفسك الشقاء المقيم . .

- لكنها كان يجب أن تعالج من دائها . .

- إنه قدر مكتوب . . . سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله
تبديلاً . . . رحمها الله . . . لها الجنة . .

- الجنة . . ؟؟ ربما . . . لقد عاشت طول حياتها فى جحيم ،
أمراض ، فقر ، و . . .

- أنت واهم يا سليمان . . لقد كانت سعيدة!! سعيدة رغم الداء وضيق ذات اليد . . . كانت تجدد في الحرمان بناء لمستقبلك، وتكويناً لشخصيتك، وكانت تجد في دائها امتحاناً لصبرها ورضائها بقضاء الله وقدره، وتكفيراً لما قد اقترفته من صغير الآثام . . . إن هؤلاء الفلاحين البسطاء يا ولدى - أمثال أبيك وأمك - هم الذين يجدون السعادة في حظائر الماشية، ومخازن الغلال، خلف المحراث والنورج والساقية، وفي الرضى بما قسم الله والخلود . . . !!! إنه لن يكون في هذه الدنيا لغير الله . . . فعد إلى نفسك يا سليمان، وتذكر والدتك وهي تدعو إلى الله ساجدة راکعة آملة، ثم انهض من يأسك وغمك هذا وابتهل إلى الله كما كانت تفعل . . . واضرع إليه بقلب خاشع خالص فستشعر ببرد الراحة والسلام يغمر قلبك وكيانك كله، وستصبح بذلك إنساناً آخر، إنساناً صقلته التجربة، وجلته الأحداث، ورجلاً يؤمن بالله أعمق الإيمان، ويرضى بالقضاء الذي لا حيلة له فيه . .

- أشكرك يا عمى فقد أعدت إلى الثقة، ورددت على معاني الإيمان التي أوشتك أن أفقدها لهول الكارثة .

- لا تأس يا بنى . . أنت بخير دائماً مادمت تركز إلى الله، وتستلهمه الرشد والتوفيق حين تنزل بك النوازل، وتحط عليك الملهمات . .

- إنا لله وإنا إليه راجعون . .

- واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . .

- اللهم إن كانت محسنة فزد من حسناتها ، وإن كانت مسيئة فتجاوز عن سيئاتها . .

- اللهم آمين . .



الفصل الثالث والعشرون



ذهبت إلى الكلية يوم ٣٠ أكتوبر عام ١٩٥٦ . . كان الجميع ذاهلين مشدوهين سواء في ذلك الطلبة والطالبات والأساتذة، والسخط والألم يرتسم على وجوه الموظفين والفرّاشين والمرضى . . . وقفنا-نحن الطلبة-في رحبة الكلية تجثم علينا حيرة قاتلة، وحن موعّد تلقى المحاضرات والذهاب إلى المعامل والمشارح، لكن لم يتحرك أحد من الطلبة أو الأساتذة . . .

لم نكن نتوقع مثل هذا الغدر والهجوم الوقح الذي قامت به إنجلترا وفرنسا وإسرائيل مشتركين، لقد أمنا قناة السويس، وهذا حق لا جدال فيه، وأعلنّا أمام الدنيا بأسرها ضمان حرية الملاحة للجميع، ووعدنا بتحسين القتاة والاهتمام بأمرها، وأيدتنا أغلبية الدول في ذلك . . فما معنى هذا العدوان الثلاثي . . ؟؟

أهذا هو معنى الصداقة في المفهوم الإنجليزي الفرنسي؟؟ أهذا هو معنى الاستقلال والحرية اللذين نلناهم بعد كفاح السنين

الطويلة؟؟ أهذا هو السلام الذى يدعيه العالم الحر؟؟ وعدت إلى البيت من فورى، ودخلت صامتًا لا أتكلم. . وأخذت أجمع الكتب وأحشرها فى الدولاب وفى الحقائق، وأخرجت ملابس الكشفية وارتديتها على الفور، ولم أنس أن أحمل معى بعض الآلات والمواد الطبية. .

ووقفت أمام عمى على هذه الصورة فنظر إلى فى استغراب وقال:

- ما هذا؟؟ إلى أين؟؟

فقلت فى صرامة وإصرار:

- إلى القنال. .

- ماذا؟؟ أصحيح ما تقول؟؟

- طبعًا، إننى لا أمزح. . هل أنتظر هنا حتى يأتى الأعداء ليعسكروا فى الأزهر ويذبحوا فىنا كالشاة، وكلنا يعرف مدى نذالة اليهود وخسة الفرنسيين ووحشية الإنجليز؟؟

- إن أمامك الامتحان النهائى بعد شهر ونصف والواجب عليك أن تكمل استعدادك للامتحان أولادك، وحينما تصير طبيبًا تستطيع أن تقوم بواجبك على أتم وجه، أما حماسك الذى طرأ عليك اليوم فهذا ما لا أقرك عليه. . .

- أعمى الذى يقول هذا الكلام؟؟ لا أصدق!! كنت لا أعبأ بمثل هذا الحماس من قبل، أما اليوم فهو جد مختلف.. يجب علينا أن نقف على حدودنا ونقطع رقاب من تسول له نفسه أن يعتدى علينا.. إنها حريتنا يا عمى.

وأطرق عمى دون أن يجيب، فأنا أعلم أنه كان يتكلم بما لا يعتقد، وما دفعه إلى ذلك إلا خوفه على وعلى مستقبلى، وعلى مجهود أبى الطويل المضنى، لكن متى كان مستقبل الأوطان التى تشد الحرية، يعبأ بمثل هذه التعلات والأسباب؟ ثم هز عمى رأسه وقال: عندك حق... غير أنى أخاف هذه الحادثة خوفاً شديداً؛ إذ إن العدوان هذه المرة تقوم به دولتان كبيرتان بالإضافة إلى إسرائيل، وانتصارهم معناه الضياع لنا، وتخطيم قوتنا وقوميتنا..

إنها تجربة قاسية غمر بها، تجربة أثبتت أن الإنجليز ليسوا حلفاء ولا أهلاً للصدقة، وسنخرج منها أحراراً شرفاء يعتز بصادقتنا العالم، وإلا فالموت أشرف لنا..

فسارع عمى قائلاً:

- لا تذكر ذلك الاحتمال الثانى، إن قلبى يحدثنى بأنه لن يكون.

- لن أنتظر هنا أكثر من ذلك، بل سأسافر فوراً يا عمى.

- لكن ماذا أقول لو ذلك؟؟ إنه لن يتصور أنك ستقدم على مثل هذا العمل..

- قل له ذهب يدافع عنك وعن إخوته وعن الشيوخ والعجائز . .
- وماذا تتوى أن تفعل؟؟
- سأستخدم مهارتى الطبية فى إسعاف الجرحى فى الميدان، وغير ذلك من الإسعافات الأولية، وسيكون مسدسى فى جيبي، فإذا ما رأيت غريباً يزحف نحونا قتلته .
- المسدس فى يمينك، والمبضع فى يسارك . .
- أتقصد أن يمينى شيطان، ويسارى ملاك؟
- الدنيا مزيج من الرحمة والقسوة، والخير والشر .
- ليس هذا شراً بالمعنى المعروف، لكنه دفاع عن النفس، وعن حق الحياة الحرة . .
- على بركة الله يا سليمان . .



- التقيت بالضابط الصديق سعيد حافظ فى بور سعيد، وكانت المعركة حامية الوطيس . قال سعيد :
- إنهم أنذال، ويبيتون لنا أسوأ النوايا، تصور أنهم لم يكتفوا بضرب المطارات والمناطق العسكرية، بل تعدوها إلى حيث يسكن الآمنون من الأطفال والنساء والشيوخ، سواء فى منطقة القنال أو غيرها . .

- عجباً لك يا سعيد، ليست هذه أول مرة يدوسون فيها الإنسانية ..

- لن نسلم لهم بما يريدون ولو رصفوا الأرض بأجسادنا.
فابتسمت وقلت: بهذه المناسبة، لعلك سعيد جداً .. ستثار
كيف شئت من الإنجليز هذه المرة ..
فقال وهو يضغط بأسنانه:

- أجل سأثار ... وأثار .. وأثار ..

وربت يده على كتفى وقال:

- الوقت ضيق، ولا مجال فيه للعواطف والكلام، اذهب من
فورك إلى المكان «ج» واتصل بالأومباشى (. . .) فسيضمك إلى
فريق الخدمة الطبية مع المتطوعين، وسيدفع إليك بالملابس اللازمة
والشارات الخاصة .. هيا فإن الجرحى كثيرون فى شتى نواحي
بور سعيد .. ومن يدري لعل عددهم يتضاعف فى الغد ..

وفعلاً كانت بور سعيد فى انتظار الضربات المركزة من
الأعداء .. وكانت كتائب المتطوعين والحرس الوطنى وأفراد
الشعب يتدفقون فى الشوارع حاملين السلاح، وأصبحت
أعصاب الناس من القوة بحيث لم يعودوا يعشون بأزيز الطائرات
الذى لا يصمت لحظة واحدة، ولا بمنظر العمارات الضخمة وهى

تنهار على من فيها، ولا بمنظر الدماء التي تفسر الأرض هنا وهناك ..

عجباً ألا يعلم الناس أن إنجلترا بقضها وقضيضها هي التي تسير الجيوش لتعتدي علينا ومعها فرنسا وإسرائيل؟؟ هل عقولهم في غيبة بحيث لا يقدرّون الكارثة تمام التقدير، أم الشياطين الحمر أصبحوا أسطورة وهمية لا ترهب إنساناً ولا تخيف شعباً؟؟ أم أننا أمة نعتصم بحقها وحرّيتها، ولذلك فهي لا تضمن في هذا السبيل بأى تضحية مهما غلت ..؟؟

وتحرك الضمير العالمي، وتوالت الاحتجاجات على الدول المعتدية، وثارَت هيئة الأمم من أجل السلام الضائع وروسيا تهدد لندن وباريس بإطلاق الصواريخ الموجهة و... دول كثيرة ساخطة، ناقمة على هذا التصرف الأحق، والشعب المصري مستميت في كفاحه الدامي لا يحيد ولا يكل... ولواء المظلات يحاول احتلال بور سعيد، ويقذف بقواته ونيرانه من الجو، والشعب والجيش رابضان في الشوارع والحواري يقتنصون الهابطين من السماء...

وكان شارع فؤاد في بور سعيد ميداناً لمعركة رهيبة، وكان في مقدمة المدافعين في هذه المنطقة الملازم «سعيد حافظ شيخا».. إنه يتحرك وراء المتاريس مغبر الوجه، مسود اليدين، وسبترته ملوثة

بالدماء، يوجه بعض الجنود لإطلاق الرصاص صوب السماء حيث الهابطين بالمظلات، ويأمر آخرين ليضربوا هؤلاء المتقدمين ناحية المتاريس، ثم يشير لنا-نحن رجال الإسعاف-كى نحمل جريحاً أو نقل شهيداً، ثم يعود إلى مدفعه ليقدف منه الحمم والموت فى حقد وإصرار إلى صدور المعتدين . .

كنت أرمق سعيد حافظ بإعجاب وهو يطلق الرصاص، وقد تقلصت عضلات وجهه، والشرر الشائر يثب من عينيه، وشعره الأشعث المنفوس يهتز مع اهتزازت جسده بتأثير حركة المدفع عند إطلاقه . . . لقد حانت الساعة لأن يتقم سعيد لجده الضابط القديم ولعرايى معه، ويتقم لأبيه الذى قاسى كثيراً، ولبسيمة التى عادت وليتها ما عادت . . إنه ليتذكر يوم أن وقع أسيراً فى معسكرات الإنجليز، ويتذكر الكلاب والسياط والماء البارد والجوع والأوان العذب التى قاساها . . . وخيل إلى أنه يتقم لى أنا الآخر من هؤلاء الذين قهقهوا حينما وقعت فى المجرى المجاور لطريق المعاهدة فى ميت غمر، ولسيد ابن عم سالم بائع الجميز، ويثار لعمى الذى لم يستطع الحصول على عمل بلا رشوة أو توصية كبيرة . . . ويثار للكثير جداً الذى لا يستطيع حصره فى هذه اللحظات الرهيبة . . .

وكنت أنظر خلف الضابط سعيد حافظ فأرى عجباً . . فهنا جنود رسميون بملابس الميدان المعروفة، وبجوارهم لابسو

الملابس الأفرنجية، وفريق ثالث يرتدى الجلابيب والبجاماتو، وهناك فريق رابع يلبس المهلهل الرث من الشياب ممن كانوا بالأمس يجمعون أعقاب السجائر أو يمسخون الأحذية أو يبيعون أوراق اليانصيب . . . خليط من الغلمان والشباب والكهول، فيهم الطالب والشيال والموظف والجندي والضابط وبعض الفتيات، بل لقد رأيت امرأة تظهر في شرفة بيت نصف متهدم، وتقذف بإناء نحاسى فوق رأس أحد الجنود المعتدين، ثم همت بالدخول-ولعلها أرادت أن تحضر إناء آخر- لكن رصاصة غادرة باغتها في رأسها فتكومت حيث هى فى شرفتها والدم ينبثق من رأسها.

كانت معركة عجيبة استعملت فيها الزجاجات الفارغة والأسلحة الحديثة، والطوب والأحجار وسكاكين الجزارين، وأوانى الطبخ النحاسية . . . أمة تبنى مجدها وتدافع عن حريتها بكل شىء . . . أى شىء . . .

ولم يكن نقل الجرحى والمصابين تحت وابل الرصاص بالعمل الهين، ومع ذلك فقد أنستنى رهبة الموقف، وخلال المقاومة ما أنا فيه من إنهاك وتعب . . . وخوف، ويبدو أن امتداد المعركة وعنفها جعل من القتال أو الموت صنعة عادية من السهل مزاولتها . . .

وكانت الدفعة الأولى من لواء المظلات قد أبيدت، ثم الثانية . . . ثم الثالثة . . . وأصبح جلياً لى أن بورسعيد تخوض أتون معركة خالدة، لا أستطيع أن أشبهها بمعركة ستالينجراد التى لم أرها . . . إن معركة بورسعيد علم وحدها، معركة فريدة رائعة فى تاريخ وطننا . . .

وعشت فترة بين الدخان والصرخات وأصوات المدافع والقنابل المتفجرة، دنيا من الأشلاء والدماء والمكافحين . . . ونظرت إلى حيث يتحرك سعيد حافظ فلم أجده . . . وهممت بالتسلل إلى حيث كان كى أستفسر أين ذهب، لكنى لمحت جريحاً فى النزع الأخير يستنجد بى فكان على أن أسارع بنقله، وأؤجل موضوع الاستفسار عن صديقى . . . وحينما بلغت المركز الطبى أرقدت الجريح على فراش معد لذلك، وسارعت إلى حيث ينتظر الطبيب، فوجدته يقوم بعملية جراحية فى بطن أحد الضابط ليستخرج منه رصاصة . . . وتفحصت فى وجه الضابط الجريح . . .

لقد كان سعيد حافظ بلحمه ودمه . . . فصرخت من فورى :

- من هذا . . . ؟؟

- إنه مسكين . . . لقد أخرجنا له رصاصة من كتفه الأيمن، ونحن على وشك إخراج الثانية من بطنه .

فنظرت بحزن إلى وجه سعيد الشاحب الذى لم يستطع المخدر أن يذهب عنه جمود ملامحه وإصراره العنيد، وقلت بلا وعى:

- هل هو الملازم سعيد حافظ؟

فرد الطبيب بهدوء:

- لا ندرى... إنه مواطن يقال إنه أبدى ضرورياً من البسالة والتضحية يحسد عليها...

فقلت فى لهفة واضطراب وتوسل:

- أعتقد يا سيدى أنه سيشفى...؟؟

- ولمَ لا؟ نحن الآن فى مصر أرض المعجزات...

- إذا فالجرح خطير جداً...

- ليس خطيراً جداً، وأعتقد أن عملية نقل الدم قد أفادته كثيراً...

- وفقك الله يا سيدى الطبيب...



بعد قرار وقف إطلاق النار بأيام كنت أتنقل فى أنحاء مبنى المستشفى الذى يضم بعض جرحى المعركة ببور سعيد، فلمحت الشيخ حافظ بعمامته وجلبابه الصوفى الأسود يدلف إلى الداخل فى حالة من الحزن والخوف يرثى لها، والحقيقة أن رؤيته أدهشتنى

فى هذا الوقت، فأسرعت خلفه، وما إن دخلت الحجرة التى ينام فيها سعيد حتى رأيت مشهداً مثيراً، إذ وجدت الشيخ حافظ ينحنى على سعيد ويقبله وهو يبكى - بينما يحاول سعيد الابتسام ويقول :

- فيم البكاء يا أبى، إننى بخير والحمد لله . .

وتدخلت أنا فى الحديث محاولاً تهدئة الشيخ :

- يا عم الشيخ حافظ، إن سعيد قد أثبت بطولة نادرة، عندما تسمع تفاصيلها سينشرح لها قلبك، وتسعد بها نفسك، ولعلك قرأت طرفاً منها فى الصحف التى تكتب عن الفدائى العظيم الضابط سعيد حافظ حفيد أحد المشتركين فى ثورة عراقى . .

فرد الرجل فى تواضع :

- الحمد لله . . . هذا ما كنت أنتظره من ولدى . . . بل إنى لومت الآن لكنت سعيداً بذلك، أما دموعى التى أذرفها فلا أستطيع منعها . . . فلتعذرونى . . .

وطالت الزيارة وطال بنا الحديث، وتكلمنا فى أشياء كثيرة، وعند خروج الشيخ حافظ، انفجر باكياً للمرة الثانية، فقلت له :

- لماذا تبكى من جديد؟؟ ألم يطمئن قلبك على حال سعيد؟

- لقد اطمأنتت جداً لكن . .

- لكن لماذا؟؟

- لقد سألتني سعيد عن بسمية . . .

- وماذا فى ذلك؟

- لقد كذبت عليه وقلت إنها بخير . .

- وماذا كنت تريد أن تقول له غير ذلك؟؟

- كان من الممكن أن أخبره بأننا وجدناها ذات صباح أشلاء ممزقة على شريط القطار، ولم ندر كيف خرجت من البيت ولا متى وكيف كان ذلك . . . لقد انتحرت المسكينة، وكنا نحسب أنها لا تعى شيئاً على الإطلاق، فما بالك بالتفكير فى الانتحار على هذه الصورة البشعة التى لم نكن نتصورها؟؟

- يا إلهى . . !!! هذا كثير . . !!

فلم يجب الشيخ حافظ بغير الدموع التى أخذ يجففها بمنديله، وطافت بذهنى صورة سريعة لماضى هذه الأسرة، ثم تبصرت فى مآل بسمية ومآل سعيد البطل المحبوب ووجود الشيخ حافظ بين الاثنين، وفؤادى يتفطر من الحزن والأسى العميق، وهتفت قائلاً:

- لا حول ولا قوة الا بالله . .

وقبل أن أودع الشيخ حافظ على المحطة همست له فى صوت خفيض يخالطه الألم:

- أرجو أن تخبر عمى عند مرورك بالقاهرة بأنى سأعود بعد أسبوع، كي أستأنف دراستى فى الكلية وأستعد للامتحان، وسأبقى هذا الأسبوع، بجوار سعيد حتى يتم شفاؤه ..
- أعانك الله ... سأفعل ..

- مع السلامة ..

- سلمك الله ...

«تمت»

